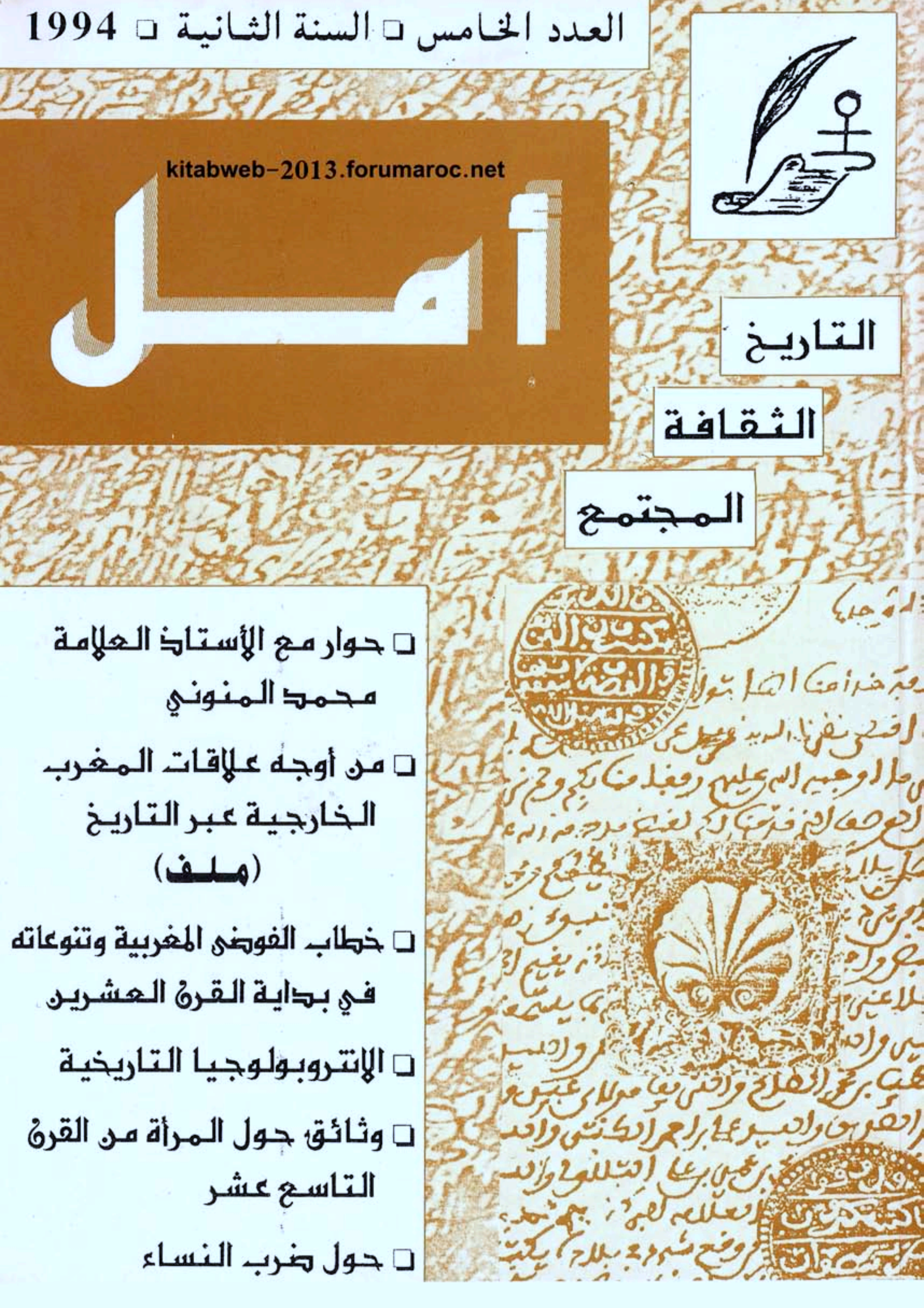

العدد الخامس □ السنة الثانية □ 1994
kitabweb-2013.forumaroc.net
أمل
التاريخ
الثقافة
المجتمع
□ حوار مع الأستاذ العلامة محمد المنوني
□ من أوجه علاقات المغرب الخارجية عبر التاريخ (ملف)
□ خطاب الفوضى المغربية وتنوعاته في بداية القرن العشرين
□ الانتروبولوجيا التاريخية
□ وثائق حول المرأة من القرن التاسع عشر
□ حول ضرب النساء

أمـــل

التـاريـخ ـ الثقـافـة ـ الـمجـتـمـع

العدد الخامس ▫ السنة الثانية ▫ 1994

★ تـصـدر ثـلاث مـرات فـي الـسـنـة ★

المدير المسؤول : المختار عنقا الإدريسي ▫ **رئيس التحرير**: محمد معروف الدفالي

هيئة التحرير :

بوشعيب آهلال ـ محمد الفلاح العلوي ـ عبد العزيز باقية

العنوان : صندوق البريد *14910* ـ البريد المركزي ـ الدار البيضاء

السحب : مطبعة النجاح الجديدة

التصفيف : سبراتكست، الهاتف : *38.66.81* ـ **التوزيع** : سابريس

* الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء أصحابها.
* المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

ملف الصحافة : *8* ص *85* ـ **الإيداع القانوني** : *48* ـ *92*



ملف الدراسات

مفاهيم وقضايا نظرية

متابعات

كتابات ووثائق حول المسألة النسائية

من أوجه علاقات المغرب الخارجية :

- جنوة وبلاد المغرب من 1222 إلى 1226 م
- العلائق السياسية للدولة المغربية
- يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب على عهد السلطان مولاي سليمان
- هولندا والمعاهدة البريطانية المغربية سنة 1856

جنوة وبلاد المغرب من 1222 إلى 1226

LAURA BALLETTO*
ترجمة : مصطفى نشاط

عرفت العشرينات من القرن 13 عدة أحداث هامة ترتبط بعلاقات بلاد المغرب بالعالم المسيحي[1]. نذكر من ضمن هذه الأحداث الحملة الصليبية الخامسة، وما نتج عنها من مضاعفات على النشاط التجاري بالبحر المتوسط بشطريه الغربي والشرقي، ثم "استشهاد" بعض الإخوان الفرنسيسكان بالمغرب والذين دفنوا بفندق الجنويين بسبتة بعد أن خلفوا وصية موجهة إلى أسقف جنوة. كما نذكر توجيه البابا Onorio الثالث ثلاثة رسائل إلى الفرنسيسكان المستقرين بالمغرب، وذلك في 13 ماي 1223 و 10 يونيو 1225 و 17 مارس 1226. وشهدت سنة 1223 توقيع معاهدة جنوية موحدية. كما ظهرت في نفس الفترة مؤسسة Scribania الجنوية بتونس (هي شكل من الكتابة كانت مكلفة بتسيير والإشراف على عائدات الجمرك والفندق والفرن والحمام وباقي المرافق الجنوية ببلاد المغرب) مع العلم أن هذه المؤسسة وجدت ببجاية على الأقل منذ 1164، ونتوفر على إشارة إليها بسبتة تعود إلى سنة 1214[2]. وأخيرا نشير إلى أن الدولة الحفصية بتونس شهدت ميلادها على يد أبي زكرياء سنة 1228.

غير أنه لتأطير هذه الفترة تاريخيا، لابد من الإشارة إلى بعض الأحداث الهامة التي تمت قبلها وبعدها. فقد جرت قبلها معركة العقاب التي أحدثت حسب طرح BAUTIER تحولا واضحا في ثقل التجارة الجنوية من سلا وسبتة باتجاه بجاية وتونس[3]. بينما حاول ابن هود حاكم مورسية في سنة 1231 أن يسيطر على سبتة. وبما أن الجنويين كانوا مهتمين بهذه المدينة، فإنهم وجهوا حملة بحرية إليها تحت قيادة CARBONE MALOCELLO و NICOLINO SPINOLA . وعندما دخلت سبتة في صراع فيما بعد بين الينشتي والرشيد، سارعت جنوة سنة 1234 ـ 1235 إلى توجيه حملة جديدة

نحــو هذه المدينة تحت قــيــادة Ugo Lercari ، كــمــا أنشــأت مــا يعــرف بالمعونة MAONA وفي سنة 1236 وقعت جنوة مـعـاهدتين. الأولى مع سبتة، والثانية مع الأمير الحفصي أبي زكرياء[4]. وقد عرفت العشرينات من القرن 13 على مـسـتـوى آخـر وجـود عـدة تجـار فلورنسـيـين ولوكـيـين (نسـبـة إلى Lucques)كـانـوا يتـاجـرون مع بلاد المغـرب، وخـاصـة مع تونس، تحت المظلة الجنوية[5].

لقـد كـانت العـلاقـات بين جنوة وبلاد المغـرب خـلال هذه الفـتـرة مـحط اهتـمـام بعض الدارسين مـثـل R. Lopez و Ch. Dufourcq . وقـد اسـتـفـاد هذا الأخـيـر من بعض عـقـود الموثقين ومن بعض التـحـريات التي قـام بها بأرشـيف جنوة[6]. ونشير إلى أن عدة عقود تبرز أهمـيـة التـجارة الجنوية مع بجاية ما بين 1200 و 1210، أي قبل حدوث معركة العقاب. الشيء الذي يدفعنا إلى أن نطرح مع ديفـورك السؤالين التـاليين : ألم تكن التـجـارة الجنوية التونسـيـة مزدهرة قبل القرن 13 أكثر مما قد يستنتج من العقود المنشورة لحد الآن ؟ ثم هل كـان التراجع الذي عرفتـه التجارة مع سبتـة بعد 1212 وما بين 1225 و 1235 ناتجا عن الحروب الداخلية التي كـان المغرب الأقصى مسرحا لها، أم عن نمو التجارة الكطلانية بسبتة، والتي يبرهن "عقد الإبحار" الذي أمر جاك الغــازي بالعـمـل به في 1227 عن أهمــيـتـهــا في توجـهـات برشلونة ؟ إن التـحـريات التي قـام بهـا المؤلف بأرشـيف جنوة تسـمح بالقـول بأن سبـتـة قـد شكلت الميناء الأكثر أهمية في التجارة الجنوية ببلاد المغرب ما بين 1222 و 1226. بينما تبوءت تونس الصدارة في هذه التجارة في سنة 1236 ـ وهو ما يظهر منسجما مع توقيع المعاهدة الجنوية التونسية في 1236 ـ أما بجاية، فقد كانت أهميتها ضعيفة ضمن هذه التجارة ما بين 1222 و 1226، غير أنها ستتعزز أكثر في 1259 ـ 1260.

كيفما كان الأمر، فإن التجارة الجنوية مع الاسكندرية اختفت خلال هذه الفترة تقريبا كنتيجة للمضاعفات التي نجمت عن الحملة الصليبية 1218 ـ 1221 والتي أصبح سلطان مصر بعدها أكثـر تشـددا من صلاح الدين بعـد الحملة الصليبية 1189 ـ 1192. وقد تضرر الجنويون من هذه الوضعية السلبية أكثر من غيرهم من التجار البنادقة والبيزيين[7].

لقد درست هذه الفترة التي تعنينا بصفة معمقة بفضل العقود التالية :

Liber magistri Salmonis sacri palatü notarü (1222 - 1226)

وقد نشرت من طرف Arturo Ferretto[8] ثم عقود الموثق Lanfranco التي نشرها H.C. Krueger[9] و R.L. Reynolds وأخيرا عقود الموثق Ursone de Sestri لسنوات 1224 ـ 1225 التي نشرتها L. Balletto[10] . قد يكون من الأفيد أن نحدد المكانة التي تبوءتها التجارة الجنوية مع بلاد المغرب ما بين 1222 و 1226 في إطار مجموع المبادلات الجنوية خلال تلك الفترة، وذلك بالاستناد على المصادر الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها.

لقد سمحت لنا هذه المصادر باستخلاص معطيات إحصائية عن عدد العقود المبرمة بجنوة التي تهم التجارة مع بلاد المغرب، وتتوزع هذه العقود كالتالي :

93 عقدا يهم سبتة

41 عقدا يهم تونس

31 عقدا يهم بجاية

لدينا في المجموع 165 عقدا عن التجارة الجنوية مع بلاد المغرب، بينما لاحظنا وجود عقد واحد فقط يهم الاسكندرية[11].

وإذا تفحصنا باقي العقود التجارية التي أبرمتها جنوة مع مختلف المناطق التي تعاملت معها في نفس الفترة، فإننا نجد التوزيع التالي :

صقلية ـ بما فيها مالطا ـ	85 عقدا
المشرق	56 عقدا
ساردينيا	39 عقدا
نابولي	29 عقدا
الوسط الفرنسي[12]	27 عقدا
بيزة، روما ومناطقها الساحلية	15 عقدا
كورسيكا	14 عقدا
مناطق غير محددة	8 عقود
كورسيكا وساردينيا معا	6 عقود
ابيزا	3 عقود
عكا Acri	2 عقود
الساحل الليغوري	2 عقود
دمشق	1 عقد

لدينا إذن 287 عقدا يهم التجارة الجنوية مع هذه المناطق، مقابل 165 عقدا يهم التجارة الجنوية مع بلاد المغرب، أي ما يمثل نسبة 57.5٪ من مجموع المبادلات التجارية الجنوية بالبحر المتوسط.

أما بخصوص رؤوس الأموال التي استثمرها الجنويون في التجارة مع بلاد المغرب، فإن مصادرنا الثلاثة تسمح باستخلاص المعطيات الإحصائية التالية :

4864 ليرة جنوية وجهت للتجارة مع سبتة

1223 ليرة جنوية و 8 فلسا و 6 دنانير للتجارة مع تونس

779 ليرة جنوية و 16 فلسا للتجارة مع بجاية

هكذا استقبلت الموانئ المغربية الثلاثة خلال هذه المرحلة 6867 ليرة و 4 فلسا و 6 دنانير. وعلى سبيل المقارنة، نورد مجموع رؤوس الأموال التي وظفها الجنويون خلال نفس المرحلة بباقي المناطق[13] اعتمادا دائما على مصادرنا الثلاثة :

3221 ليرة و 11 فلسا وجهت للتجارة مع صقلية ـ بما في ذلك مالطا

2836 ليرة و 5 فلسا وديناران وجهت للتجارة مع الساحل الليغوري

581 ليرة و 4 فلسا وجهت للتجارة مع المشرق

506 ليرة و 11 فلسا و 6 دينار وجهت للتجارة مع ساردينيا[14]

273 ليرة و16 فلسا و 1 دينار وجهت للتجارة مع الوسط الفرنسي

183 ليرة و 10 فلسا و4 دينار وجهت للتجارة مع نابولي

183 ليرة و 2 فلسا وجهت للتجارة مع الساحل التوسكو ـ لازيالي

133 ليرة و 2 فلسا وجهت للتجارة مع كورسيكا

105 ليرة وجهت للتجارة مع مناطق غير محددة

9 ليرة وجهت للتجارة مع إبيزا

استقبلت هذه المناطق في المجموع 8033 ليرة وفلسين ودينارا واحدا. ويستخلص من خلال ذلك، أن رؤوس الأموال التي وجهها الجنويون للتجارة مع بلاد المغرب مابين 1222 و 1226 لا تقل كثيرا عن مجموع الرساميل التي استثمروها في التجارة مع باقي المناطق، إذ لا يتجاوز الفارق بينهما الألف ليرة ـ بالضبط 1165 و 17 فلسا و 7 دنانير ـ.

قد لا نحتاج من خلال هذه المعطيات إلى مزيد من التأكيد على أهمية التجارة الجنوية مع بلاد المغرب ضمن التجارة العامة لكومونة جنوة خلال هذه الفترة. وتبدو هذه الأهمية كذلك من خلال المعدل المسجل بين عدد العقود والرساميل المستثمرة ببلاد المغرب وبباقي المناطق التي تعامل معها الجنويون. ذلك أن هذا المعدل يفوق ببلاد المغرب ما هو عليه بباقي المناطق، إذ يبلغ 42 ليرة ونصف ليرة جنوية ببلاد المغرب، بينما لا يتجاوز 27 ليرة بباقي المناطق، علما بأن التجارة الجنوية لم تعرف ـ كما أثبت ذلك Dufourcq أوجها خلال هذه الفترة، وخاصة مع بجاية وتونس.

وثمة ملاحظات أخرى يمكن تقديمها عن التجارة الجنوية مع بلاد المغرب. فقد استقطبت سبتة المعدل الأكثر ارتفاعا من رؤوس الأموال التي خص بها الجنويون آنذاك بلاد المغرب، ويبلغ هذا المعدل 52 ليرة جنوية، ثم تليها تونس بمعدل 31 ليرة، وأخيرا بجاية بحوالي 26 ليرة. كما نلاحظ اختلافا بين المدن المغربية الثلاثة على مستوى معدل كل عقد من العقود المبرمة. يقترب هذا المعدل ببجاية من المعدل المسجل بباقي الأسواق غير المغربية التي تعامل معها الجنويون آنذاك، بينما يفوق شيئا ما المعدل المتعلق بتونس، ويفوق كثيرا المعدل المتعلق بسبتة.

لم تكن العمليات التجارية الجنوية مع بلاد المغرب في الغالب من النوع الذي يحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة[15] ـ لم تكن العملية تتجاوز في الغالب 100 ليرة ـ غير أن هناك 11 عملية فاقت هذا المبلغ ضمن العمليات التجارية التي همت سبتة ـ من ضمنها 3 عمليات بقيمة 200 ليرة وواحدة بقيمة 350 ليرة وأخرى بقيمة 400 ليرة ـ كما أن عملية تجارية قام بها أحد الجنويين باتجاه تونس بلغت قيمتها 250 ليرة.

كانت معظم العمليات التجارية التي قام بها الجنويون ببلاد المغرب آنذاك عبارة عن عمليات قراض accomendaciones ، بينما كانت عمليات الشراكة societates أو المشاركة قليلة. وكانت عملية القراض تعقد حسب ما جرت عليه العادة، إذ كان ربع الربح يخصص للتاجر المتنقل socio portator. وكان هذا الأخير يقوم في بعض الحالات بالعملية مجانا، وترد هذه الحالات في العقود ضمن العبارة التالية : gratis et sine quarto lucri (بالمجان وبدون الاستفادة من ربع الأرباح».

كان الجنوين ينقلون إلى بلاد المغرب الكتان والقطن والأجواخ من مختلف الأنواع ـ الطاقيات الكبيرة، الأقمشة ذات اللونين (Bordo) والأقمشة المصنوع نصفها من الصوف والنصف الآخر من مواد أخرى (mezzalana) والأقمشة الملفوفة (randdello) والأقمشة المخططة (vergato) [16] وبقايا الخمور(fegia) وخيوط القنب وأغطية الموائد والقرنفل.

وكانت تونس تستورد اللآلئ. بينما كانت سبتة تستورد عملة migliaresi (الدرهم الفضي) وهو في الأصل معدن صدر من سبتة وضرب بالسكة الجنوية ليعود مرة أخرى إلى سبتة.

ولدينا بالنسبة لموضوع العملة بعض الإشارات التي تهم مستوى التبادل. كان التاجر بتونس في أبريل من سنة 1222 يقدم 116 دينارا فضيا مقابل 29 ليرة و 8 فلسا، وكان يحصل على 88 دينارا فضيا مقابل 33 ليرة جنوية. وهذا يعني أن الدينار الفضي كان يعادل حوالي 5 فلسا جنويا[17]. وفي بجاية قدم أحد التجار في أكتوبر من سنة 1224 ثلاثة دنانير فضية و 8 دراهم فضية للحصول على ليرة جنوية واحدة[18]، علما بأن دينارا فضيا واحدا كان يعادل عشرة دراهم فضية[19]. الشيء الذي يعني أن الدرهم الفضي كان يعادل تقريبا 6 دنانير و 1/3 دينار جنوي.

لابد من الإشارة إلى أن المواد التي أوردناها بالاعتماد على مصادرنا الثلاثة، لا تمثل سوى جزء من مجموع المواد التي كان ينقلها الجنويون إلى بلاد المغرب. ومقابل ذلك، لدينا بعض الإشارات التي تهم واردات جنوة من بلاد المغرب خلال تلك الفترة. ففي 28 ماي 1222 باع محمد بن المعلم، وهو أحد تجار سبتة للجنوي BeccorosseVicecomes سلعا بقيمة 350 ليرة جنوية. ويتعلق الأمر بـ 105 قنطارا من النحاس (= 5003،208 كلغ) و7 قناطير من القصدير (= 547 ، 333 كلغ) و 11 كيسا من المرجان ويبلغ وزنها 17 قنطارا (= 810،043 كلغ) و 5 قفات من السكر ويبلغ وزنها 6 قناطير (= 285،597 كلغ). وقد نقلت هذه السلع على متن السفينة "BOZANA" التي كان يمتلكها Jacopo Spinola وزوجته. وتم إبرام عقد البيع بمنزل Domingo كاتب كومونة جنوة الذي كان يقوم بدور المترجم كذلك[20].

لربما كان التاجر محمد بن لمعلم يقوم بدور الوسيط بين مختلف

الأسواق، ولربما نقل النحاس والقصدير إلى جنوة انطلاقا من اسبانيا أو من منطقة أوربية أخرى، وليس من بلاد المغرب. غير أننا لا نشك في أن 152 قطعة جلدية التي باعها Giovanni ابن Gugliclomo Fornarius بجنوة لـ Giovanni Bello أحد تجار ميلانو في 16 نونبر 1222 بقيمة 76 ليرة قد استقدمت فعلا من سبتة[20].

نلاحظ من خلال معظم عقود الموثق Ursone de Sestri لسنة 1224، والمتعلقة بسبتة أو ببجاية أنها أبرمت في شهر أكتوبر. هناك عقدان فقط متعلقان بسبتة أبرما في شهر غشت. أما بالنسبة للعقود الخاصة بتونس فقد أبرم معظمها ما بين 1 و 7 نونبر - 15 عقدا من بين 19 - مقابل أربعة عقود أبرمت ما بين 15 و 31 أكتوبر. أما بالنسبة لسنة 1225، فنلاحظ بخصوص العقود المرتبطة بسبتة وجود ثلاثة عقود مبرمة في النصف الأول من شهر ماي، وعقد واحد في 24 أبريل وآخر في 10 ماي. بينما أبرمت ثلاثة عقود في شهر أكتوبر موجهة للتجارة مع بجاية في نفس السنة. لا علاقة لعنصر الصدفة بإبرام معظم العقود خلال هذه الفترة بالضبط. فقد شكل الربيع، والخريف بصفة خاصة، الفصلين المفضلين للإبحار من أجل تفادي فترة ارتفاع الحرارة ببلاد المغرب، وبعد انطلاق التجار المتنقلين portatores من جنوة في أكتوبر أو نونبر، كانوا يتوقفون في الغالب ببلاد المغرب خلال فصل الشتاء. الشيء الذي يفسر أهمية المواد التي كانوا يحتاجون إليها إبان توقفهم بالمراكز الجنوية الموجودة ببلاد المغرب، وخاصة منها الخمور التي نتوفر على إشارة دقيقة عنها تتعلق بتونس.

رغم أن التجارة مع بلاد المغرب لم تكن تحظى انذاك باهتمام كبير من جانب التجار المرموقين بجنوة، فإننا نتوفر في هذا المستوى على أسماء بعض العناصر التجارية المنتمية إلى عائلات جنوية شهيرة. ونذكر من بين هذه العناصر التي تعاملت مع سبتة كتجار مساهمين برؤوس الأموال Lanfranco Mallono:Stantes و بعض الأفراد من عائلة De Volta وLanfranco Rebeus و Bonifacio Raimondo وUgo . من الملاحظ كذلك وجود بعض النساء الجنويات اللاتي اهتممن بالتجارة مع بلاد المغرب مثل Roaxia زوجة Guglielmo de Castello وAlda أرملة Philippo Embriaco و Maria أم Alda السابقة بالذكر، و Anna أم Ricio Marzoco

وGiovanna أرملـــة Guglielmo Manente و Contessa التـي كـانـت تـقـطـن مـع Alda أرملة Philippo Embriaco و Ermegina التـي كـانـت تـقـطـن مـع Raimondo de Volta و Masegina و Imelda اللتـان كـانتـا تقطنان مـع Giovanni de Pallo وJacoba زوجة Girardo de Guidone.

لدينا كـذلك أسـمـاء لبـعض التـجـار الجنويين الذين تعـاملوا مع بلاد المغرب كتجار متنقلين socie portatores ، ومن ضـمنهم Oglerio Mallono الذي بالإضـافة إلى أنه قام برحلة تجارية إلى سبتة باعتـباره تاجرا متنقلا، فإنه وظف بها مبلغا هاما من رأسماله الخاص. ثم Simone ابنAnsaldo de Castello وJacopo de Volta ابـــن Bonifacio de Volta و Enrico ابنOglerio de Volta وEnrico ابن Oglerio Nepitella و Nicola ابـن Ido و Stancono و Andriolo ابـــن Guglielmo Mallono و Enrico ابـــن المتوفىBuonsignore Mallone .

أما بالنسبة للأسـماء التي تعـاملت مع بجاية فنذكرRaimondo de Volta، وعلى مستوى القطاع النسائي نذكر Agnese Rubea و Floria زوجة Corrado de San Matteo . وقد قام هؤلاء بعملياتهم باعتبارهم مساهمين برؤوس الأموال فـقط soci stantes. في حين ساهم في التـجـارة مع بجـاية Bartolomeo de Porta و Ansaldo de Albaro وابنه Ansaldo Mascono و Giordano de Quarto باعتبارهم تجارا متنقلين.

ومن ضمن التجـار المساهمين برؤوس الأموال الذين تعاملوا مع تونس نذكرCorrado de San Matteo وRubaldo و Raimondo de Volta و Giovanna أرملة Rubaldo Elye و Giovanna أرمـلـة Guglielmo و Manente و Adalasia أخــت Guglielmo Silvagno و Magenzia زوجة Isembardo الجـــزار و Sofia زوجة Oberto Spinola وAlda زوجة Rubaldo Alberico وصـهـرة Guglielmo Alberico وSofia de Cavarrunchis صديقة Gugliolmo Alberico و Massegina التـي كـانت تـقـطـن مـع Giovanni de Pallo . أمــا بالنســبــة للتــجــار المتنقلين فنذكرGuglielmo Alberico و Guglielmo de Staino .

وثمة بعض التجار كانوا يوظفون أموالهم في أكثر من ميناء من بلاد المغرب. نشير إضافة إلى بعض الأسماء التي سبق ذكرها إلى Giovanni de

Pallo ـ الذي كـان يتـاجـر مع Pietro Manente باعـتـبارهما وصيين على ورثة Guglielmo Manente ـ الذي تعـامل في آن واحـد مع سـبـتـة وتـونس. بينما كان Balaardo de Pallo يتاجر مع بجاية. أما Oberto de Pagano Bancherius فكان يتعامل مع تونس وبجاية وسبتة ولعله أخا لـ Balduino de Pagano Bancherius و Simone de Pagano.

بينما حصر بعض التجار المساهمين برؤوس أموالهم نشاطهم ضمن بلاد المغرب، فإن ثمة تجارا آخرين تعاملوا مع عدة أسواق، وخاصة مع صقلية والشرق ـ سوريا وفلسطين ـ . ومن أشهر هؤلاء نذكر Lanfranco Rebeus de Volta و Raimondo de Volta و Giovanni de Pallo و Pietro Manente اللذين كانا يتحركان في الغالب باعتبارهما وصيين على ورثة Guglielmo Manente و Oberto de Pagano Bancherius وAlda أرملة Philippo Embriaco و Agnese Rubea و Adalasia أخت Simone و Nicola Silvagno أرملة Guglielmo Verçone ، والتي يجب أن نميـزها عن Adalasia أخت Guglielmo Silvagno. ولكي نأخذ فكرة عـامـة عن توزيع رؤوس أموال هؤلاء التجار الذين كـانوا يتحركون بفضـاء متـوسطي (نسبة إلى البحر المتوسط) شاسع، نقدم هنا بعض النماذج عن سنة *1224*. فقد وجه Lanfranco Rebeus de Volta *192* ليرة جنوية و *16* فلسا للتجارة مع سبتة وخص صقلية ب *208* ليرة والشرق ب *655* ليرة و *11* فلسا و *6* دنانير. أما Raimondo de Volta فقد خصص للتجارة مع سبتة *64* ليرة *9*، فلسا، وخص تونس ب *58* ليرة و *14* فلسا وبجاية ب *80* ليرة و *5* فلسا، بينما وجه للتجارة مع صقلية *376* ليرة وفلسا واحدا. وكان توزيع رؤوس الأموال التي خصصها Oberto de Pagano Bancherius للتجارة خلال نفس السنة على الشكل التالي : *52* ليرة و *10* فلسا لبجاية ـ مع العلم بأن *31* ليرة منها كانت في ملكية مشتركة بين الإخوان Balduino و Oberto و Simone ـ و *33* ليرة لتونس و *63* ليرة و *11* فلسا و *8* دنانير للشرق ـ *23* ليرة مشتركة بين أخوين ـ ونذكر من ضمن النساء اللاتي تعاملن مع عدة أسواق آنذاك Adalasia أخت Guglielmo و Nicola و Simone Silvagno التي استثمرت *15* ليرة للتجارة مع سبتة و *131* ليرة و *16* فلسا للتجارة مع صقلية.

لم يكن الجنويون الذين وجهوا رؤوس أموالهم للتجارة مع بلاد المغرب من التجار المرموقين. ورغم أن بعض العناصر التجارية المرموقة بجنوة كانت تستثمر أحيانا رؤوس أموالها في التجارة مع بلاد المغرب، فإن هذه المنطقة لم تكن تستقطب إلا القليل من مجموع رؤوس أموالهم. فقد كانت أهم الاستثمارات التجارية الجنوية موجهة آنذاك نحو مناطق أخرى مثل صقلية وبصفة أكثر نحو المشرق. ومع ذلك، نلاحظ أن معدل رؤوس الأموال الجنوية المستثمرة في التجارة مع الشرق ما بين 1222 و 1226 لم يتجاوز إلا قليلا 43 ليرة جنوية، بينما بلغ نفس المعدل خلال نفس الفترة ببلاد المغرب 42 ليرة ونصف ليرة جنوية. ويمكننا أن نخلص انطلاقا من هذا الفارق البسيط في الاستثمارات التجارية الجنوية بين المنطقتين إلى أن بلاد المغرب لم تكن آنذاك أقل قيمة من الأسواق المشرقية ضمن الاهتمامات التجارية للجنويين.

هوامش

* Laura Balletto, Da Genova al Maghrib 1222 - 1226, Bollettino dell'Associazione. Archivio Storico Sardo di Sassari, Moderna Sassari, 1982.

والمؤلفة أستاذة باحثة بجامعة جنوة، معهد التاريخ الوسيط والتوسع الأوربي، لها عدة أبحاث متخصصة في تاريخ جنوة وخاصة عن علاقاتها الخارجية. وقد نشرت أطروحتها سنة 1976 بجنوة تحت عنوان :

Genova, Mediterraneo, Mare nero (13-15 Secolo)

(1) R. Lopez, Studi sull' economia genovese nel medio evo, Torino, 1936, pp. 1 - 61.

(2) Lopez, op. cit. p. 25

وقد نشر المؤلف بنفس الدراسة عقدا يتضمن معلومات عن مناقصة مؤسسة scribania الجنوية ببجاية لسنة 1252 وعقدا آخر يهم scribania بتونس لسنة 1253. انظر ص. 28 الهامش 3. وبالنسبة لبعض أسماء المترجمين باللغة العربية الذين كانوا يعملون لفائدة جنوة ببلاد المغرب انظر ص. 25، الهامش 2. ودراسة :

Dufourcq (ch), Aperçu sur le commerce entre : Gênes et le Maghreb au 13e siècle, in Economies et Sociétés au moyen âge. Mélanges offerts à Edoard Perroy. Paris 1972.

ونضيف إلى هؤلاء Domingus الذي كان يشغل كاتب كومونة جنوة ومترجمها ، وهو الذي كتب وترجم عقد البيع الذي تم في 28 ماي 1222 بين الجنوي Beccorsso ومحمد بن المعلم أحد تجار سبتة. انظر بشأن ذلك Viccomes :

Ferretto (A), Liber magistri Salmonis sacri palatü notarü 1222-1226, in Ati della Società ligure di Storia patria, XXXVI, 1906, doc. 283

(3) R. H. Bautier, les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médievale, in Revue Historique, CCXXXIV, 1965, fasc. 2, pp. 1-28.

(4) A. Schaube, Storia del commercio dei popoli latini del Mediterraneo Sino alla fine delle crociate, traduz di P. Bonfante, Torino, 1910-1913, p. 351, Lopez, op. cit, PP. 11-16, 24.

(5) Schaube, op. cit, p. 364

(6) Dufourcq, Aperçu, op. cit. pp. 721-736, Cfr; G. Pistarino, in Rassegna storica della Ligura, I, primo semestre, 1974, pp. 139-142.

(7) Schaube, op. cit, p.p. 222-231-232

(8) Ferretto (A), Liber magistri Salmonis sacri palatü notarü 1222-1226 in Atti della Società Ligure di Storia patria, XXXVI, 1906.

(9) Notai Liguri del secolo XII e del XIII. Lanfranco 1202-1226 a curaq di H.C. Krueger - R.L. Reynolds. Genova, 1952.

(10) L. Balletto, Genova e la Sardegna nel secolo XIII, in "Saggi e documenti I", Civico Instituto Colombiano, Studi e Testi, Serie Storicia a cura di G. Pistarino, Genova, 1978, pp. 99-109.

(11) بخصوص هذه المعطيات الإحصائية انظر: Balletto, op. cit, pp. 66-67, 81-82, 87-88, 93-96.

ونشير هنا إلى أننا لم نأخذ بعين الاعتبار الوثيقة الوحيدة المتعلقة بتجارة جنوة مع الاسكندرية خلال هذه الفترة، وتهم قراضا تم في 27 ماي 1222 بقيمة 5 ليرات. انظر: Ferretto, op. cit. doc. 277:

(12) لم نأخذ بعين الاعتبار في العمليات الحسابية التي قمنا بها عقد قراض يهم بروفانسيا بقيمة 24 ليرة. وكل ما نعرفه عن هذا العقد أنه أبرم بضع سنوات قبل 1226 ، ونتوفر على إشارات عنه في عقد آخر أبرم في 9 يوليوز 1226 ، وقد كتب هذا العقد الموثق Salmone. انظر: Ferretto, op. cit, doc. 1084, Balletto, op. cit; P. 67 note: 23.

(13) انظر : Balletto op. cit. p. 98

(14) جمعنا هنا العقود المتعلقة بساردينيا وبكورسيكا معا.

(15) Lopez, op. cit, pp. 21-22

(16) لمزيد من التوسع في معاني هذه الأنواع من الأجواخ، يمكن الرجوع إلى :

M. Cual Camarena, Vocabulario del comercio medieval, Barcellona, 1976.

G. Rossi, Glossario medievale ligure, ristampa anastatica dell' edizione di Torino del 1896-1909. Bologne 1971, pp. 111, 134.

E. Pandiani, Vita privata genavesse del Rinascimento, in Attidella società Ligure di storia patria, XLVIII, 1915, p. 49.

Pegolotti, Balducci, la pratica della mercatura, a cura di A. Evans, Cambridge. Mass, 1936.

(17) Ferrotto, op. cit, doc. 179,180

(18) Balletto, op. cit., pp. 102-103

(19) Schaube, op. cit, pp. 975-976, Lopez, op. cit. p. 34

(20) Ferretto, op. cit, doc. 293

لقد ورد لدى Ferretto بأن زنة السكر هي cosini ، غير أن المعنى الصحيح للكلمة هو Cofini: وهي عبارة عن سلة تستعمل كذلك لنقل الماستيك، انظر، Pegolotti, op. cit, p. 35 , 313. وفي اللغة العربية القفة عبارة عن سلة مصنوعة من ورق النخيل (أو من مواد أخرى). انظر :

G.M. DA Aleppo - G. M. CALVERUSO, Le fonti arabiche nel dialetto Siciliano, parte I, Roma 1910, p. 149.

(21) انظر: Ferretto, cit, doc 643 و Giovanni Bello هو أحد التجار الميلانيين، سافر إلى تونس في رحلة تجارية كشريك متنتقل socio portator في أكتوبر 1224. انظر Balletto, op. cit. p. 101 . ويشير Lopez في دراسته السابقة إلى أهم المواد التي كان يستوردها الجنويون من بلاد المغرب وهي : الصوف والجلود والنيلة وشمع العسل والمرجان، ص. 33. وتوجد بأرشيف جنوة وثيقة تتعلق باستيراد أحد التجار الميلانيين للنيلة من المغرب الأقصى سنة 1263. وننشر هنا الوثيقة على الرغم من تأخرها عن فترة الدراسة التي تعنينا :

«باسم الله. آمين. أعترف أنا Jacopus de Liernis من ميلانو بأنك أنت Thome Squarçaficui ستزودني بكمية من النيلة من المغرب الأقصى. وإذا لم يكن هناك أي مشكل يعوق العملية، فإنني أقدم لك 43 ليرة و 9 فلسا في 25 دجنبر. التزم إذا لم أقدم لك هذا المبلغ في الوقت المحدد بأن أقدم لك ضعف ما نص عليه الاتفاق. وللحفاظ على روح الاتفاق أقدم لك رهنا كتعويض عن التكاليف التي تحتاجها العملية دون اللجوء إلى

أي قاضي ولا شهود. التزم بأن أبقى وفيا للاتفاق. أقسم باسم الإنجيل. أنا الأكثر منك سنا بعشرين عاما.

حضر الاتفاق الشهود

Willelmus الطبيب من Magdalena

Obertinus من Rapallo

Benevenutus من Platealonga

حرر بجنوة قرب منزل ورثة Thome Venti عام *1263*.

الإشارة IV إلى، يوم *26* شتنبر ما بين الساعة الثالثة والتاسعة».

Archivio Di Stato Di Genova, car. n. 36,C. 275 R-V.

العلائق السياسية للدولة العلوية

عبد الرحمن بن زيدان

يعد هذا المقال لمؤرخ مكناس عبد الرحمن بن زيدان، في الأصل محاضرة ألقاها في قدماء ثانوية مولاي إدريس، ثم نشرت في ملحق مجلة المغرب العدد 16 شوال 1352هـ موافق يناير 1934م، وهي منشورة في 25 صفحة[1]، إلا أن ما عثرنا عليه ضمن مجموع بالخزانة الصبيحية تحت عدد 4094 لا يتعدى 24 صفحة وتتضمن الصفحة الناقصة بعض ما كان للسلطان سيدي محمد بن يوسف من اتصالات خارجية في بداية عهده. وهو الجزء الغائب من هذه المقالة.

ترجع أهمية هذه المقالة إلى كونها تشمل بعض خلاصات الكتاب المخطوط للعلامة عبد الرحمن بن زيدان المعنون بـ «العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدول الأجنبية» وهو في نحو ثلاثة أسفار[2]. والذي لازال من ضمن ما يجب نفض الغبار عنه، ونشره من دخائر الخزانة الزيدانية، بالإضافة إلى أنها تعد المقال الوحيد - حسب علمنا - الملخص لوقائع العلاقات الخارجية للسلاطين العلويين بشكل مركز يذكر أهم هذه الوقائع دون الدخول في تفاصيلها وحيثياتها إضافة إلى أنه يعطي من خلال استعراض هذه الوقائع جردا بأسماء أغلب السفراء والمبعوثين المغاربة إلى الخارج في العهد العلوي، علاوة على ذكر أسماء بعض السفراء والمبعوثين الأجانب إلى المغرب ويعطي نظرة عن أهم الدول التي تعامل معها السلاطين العلويون على امتداد تاريخ الأسرة العلوية مما قد يفيد الباحث في العلاقات الخارجية للدولة العلوية. يضاف إلى هذا أن المقال يعطينا صورة عن المجهود المبكر الذي قام به العلامة عبد الرحمن بن زيدان في بداية هذا القرن من أجل إشعاع ثقافة تاريخية بين الشباب الوطني في بدايات الأدوار السياسية والثقافية للحركة الوطنية.

---

(1) (2) - محمد المنوني، مؤرخ مكناس ابن زيدان - مجلة دعوة الحق عدد 1 السنة 10 - ص ص . 93 - 99.

إن الكلام في هذا الموضوع ينقسم إلى قسمين : قسم اقتصادي للمبادلة في التجارة وقسم للتظاهر بالوداد والتحابب وما يوصل إليهما من أنواع المجاملات وما نشأ عن ذلك من مهادنات ومعاهدات.

وغير خاف على من له قلب يعقل به ما لتحسين العلائق بين الدول والأمم من الفوائد الجمة والمنافع التي لا تكاد تدخل تحت حصر، ناهيك ما في ذلك من نمو التجارة وجلب الثروة للبلاد ؛ والنوم في مهاد الأمن والاطمئنان ؛ ولو لم يكن من فوائد جمع ذلك في هذه الأسطر الوجيزة، إلا الإرشاد للأبناء لما كان عليه الآباء من رسوخ القدم وعلو الكعب في السياسة الداخلية والخارجية ومزاحمة الأمم الراقية بالمناكب في ميادين الاقتصاد، والسعي للأمة وراء جلب الراحة والمقدرة والشوكة ونفوذ الكلمة التي قضت على الدول الأجنبية العظيمة بالسعي وراء مسالمتهم وعقد المهادنة معهم والاعتراف لهم بالكفاءة، إن لم نقل التفوق وشفوف المكانة، لكي لا يكون مبلغ علم أولئك الخلف عجز السلف عن مزاحمة الأروبيين في كل المهمات التي لا تنابذ الدين وتتكفل للشعب والبلاد بما فيه الصلاح ونجاح المسعى.

وما جلبناه في هذه العجالة من العلائق، هو بالنسبة لما غاب عنا مما أتلفته الأيدي العادية بالنهب والحرق كنقطة من بحر.

تبتدئ العلائق السياسية للدولة العلوية مع الدول الخارجية بأول من بويع من رجالها وهو :

المولى محمد الشريف، *1050 - 1075*

وكانت تلك الفاتحة مع حاكم الجزائر العثماني الذي راسل المولى محمد الشريف مع بعض علماء الجزائر وكبار رجال حكومته من الترك، وكان الغرض من ذلك، تقرير الهدنة وعدم تجاوز الحدود ؛ ثم لما تولى :

المولى الرشيد *1070 - 1080*

ومات أخوه المولى محمد ورد عليه «رولان افرجس» التاجر يحمل رسالة ملك فرنسا إليه، بقصد إنشاء شركة تجارية بالمغرب، على ما في ذلك من البحث، وكذلك حاول الملك المذكور إرسال سفيره بالجزائر «اطروبر» لمفاوضة مولاي رشيد والتحالف معه على انتزاع طنجة من يد انكلترا ؛ وأيضا أوفد «شامويل ازرو» بقصد افتداء الأسرى من الجانبين ؛ ووجه له كرلوس الثاني ملك الانجليز «هوري هوراس» سفيرا من قبله.

على أن هذا كله لم يكن بمثابة ما سيأتي من العلائق الدولية بين دولتنا العلوية والدولة الخارجية لأن الدولة في أول نشوئها تحتاج إلى تأسيس قواعدها وتوطيد أركانها وجمع كلمة الأمة عليها في الداخل أكثر من احتياجها للخارج.

ولما أفضى الأمر لأخيهما السلطان الأعظم :

المولى اسماعيل *1082 - 1139*

الذي هو أظهر شخصية وأبرزها في هذه الدولة، والتفت حوله الأمة، عني بربط أواصر المودة مع الدول، ودارت بينه وبين ملوك عصره الرسائل والمخابرات في مختلف الشؤون، ومع أنه حارب بعضها وانتزع المهدية والعرائش من يد اسبانيا وأصيلة من يد البرتغال وطنجة من يد الانكليز وحاصر سبتة، فإن ذلك لم يحل بينه وبين إنشاء العلائق الودادية فكانت له رسائل وعلائق مع ملك فرنسا وملك الانجليز وملك اسبانيا وصاحب البرتغال وسلطان آل عثمان وصاحب تونس وصاحب الجزائر.

فقد كاتب ابراهيم الشريف صاحب تونس يحبذ قطعه الامتياز عن الأجانب ويوصيه بأهل الجزائر ؛ وأرسل لحاكم الجزائر سنة ثلاث ومائة وألف سفارة تتركب من ولده المولى عبد الملك وكاتبه الوزير والعلامة الطيب الفاسي وذلك لعقد المهادنة.

كما كاتب السلطان العثماني معاصره في شأن مناوشة الجزائريين بالحدود المغربية فأجابه على ذلك بكتاب رقيق يعتذر عما صنعوا ويعرض عليه استخدامهم فيما يريد من الفتوح في المستقبل.

وأرسلت دولة البرتغال إليه سفارة تهنئه بالانتصار في بعض الوقائع الحربية مع هدية مناسبة وفاوضه السفير في بعض المطالب ثم رجع بهدية من صغار السباع وأرسله كارلوس الثاني ملك اصبانيا في شأن فداء أسرى العرائش مع سفارة «منويل بردلون وإبيل مسيح» فأجابه على ذلك بتوجيه كاتبه حم بن عبد الوهاب، الوزير الغساني سنة واحد ومائة وألف لاستخراج ما هناك من الأسرى والكتب الإسلامية الباقية هناك، وقد ألف هذا السفير في ذلك رحلة، وكانت له مع مولاي اسماعيل روابط ودادية وهدايا قيمة ؛ وأرسل إليه ملك الانجليز ولعله هو «تشارلس الثاني» سفارة أولى وثانية وكاتبه بقصد المحالفة معه وأهدى إليه فوجه له سفارة، كما جاء ذلك في كتابه لأخ الملك المتولي بعده جيمس الثاني الذي طردته أمته وقد عرض عليه في هذا الكتاب الاسلام ووعظه وناقشه في معتقداته الدينية وطالبه

إن لم يرد إسلاما بالرجوع عن عقيدة الكاثوليك التي خلعته أمته من أجلها إلى مذهب البروتستانت، ولم يقتصر على ذلك بل أراد أن يوجه إليه جيشا يسترجع به ملكه ؛ وهذا الكتاب الدال على مقدرة مولاي اسماعيل السياسية واطلاعه على أسرار السياسة الداخلية للدول الأروبية مؤرخ سنة تسع مائة وألف ؛ وبعد أن أسر الانجليز عبد الله بن عائشة القبطان البحري المغربي الشهير وجهه ملكهم طليقا للمولى اسماعيل ازدلافا إليه وتحببا، فوجهه السلطان بعد ذلك إليهم لتهنئة ملكهم الجديد كما وجه لهم آخر حياته سفيرا آخر، أما علائقه مع لويس الرابع عشر، ملك فرنسا، فهي مشهورة معروفة كم جرت بينهما من مراسلات في شؤون مختلفة كمبادلة الأسرى وقضايا القرصان البحرية وعقد المعاهدات السياسية، وكم مشى بينهما في ذلك من سفراء ومندوبين كشمويل دود وبون شنطري وسنطلون والباشا علي بن عبد الله الريفي والحاج محمد تميم والأميرال عبد الله بن عائشة ؛ ومن ذيول سفارة ابن عائشة هذا ما أشيع من أن المولى اسماعيل كلفه أن يخطب إليه الأميرة دوكانتي من أبيها لويس الرابع عشر وذلك لما أخبره به السفير عبد الله من جمالها ووصف له من محاسنها وأن هذه الخطبة لم تلق نجاحا ؛ وهذه المقالة التي شاعت عند كتبة الفرنسيين ـ وإن كانت تدل على فرض صحتها على رغبة المولى اسماعيل في جعل رابطته مع فرنسا أوثق مما كانت عليه عروة وأشد تمكنا ـ مما يستغرب وقوعه ويبعد ثبوته محالا لوجوه : منها أنها لم تقع بكتاب رسمي وترسل بما ينبغي أن ترسل به من الإجلال والتكريم اللائقين بمقام الملكين العظيمين ؛ وإنما أصل ذلك مبني على ورقة كتبها رجل كان بسلا نائبا عن بعض التجار ؛ ومنها استبعاد أن يحصل من السفير ذكر لها عند السلطان أو وصف لأنه أرسله لأمر أعظم من تلمح جمال الفتيات والتغزل بذكره ؛ ومنها عدم التوافق في الفكر والمعتقد واللغة والتربية المؤدي لسوء المعاشرة الموجب لسوء حال العلائق بين الملكين والدولتين إلى غير ذلك من الوجوه التي أشرنا إليها في المنزع اللطيف ؛ ومما يذكر هنا أن بعض هدايا لويس الرابع عشر لمولاي اسماعيل لاتزال موجودة وهي بقايا العربة المهداة منه إليه ولاتزال بقصر الدار البيضاء من مكناس ؛ هذا مجمل علائق المولى اسماعيل الدولية ولو اتسع المجال لما اكتفينا بهذا القدر لأن بسطها يجيء في مجلدات لافي كلمات.

ولما مات المولى اسماعيل وتولى ولده :

المولى أحمد الذهبي (1139 - 1141)

عام تسعة وثلاثين ومائة وألف ورد عليه القبطان «روسيل» سفيرا من ملك الانجليز مهنئا ومعزيا وكان وروده صحبة السفير الذي وجهه المولى اسماعيل لانجلترا قرب وفاته ولم تطل مدة الذهبي فلم يكن فيها ما يذكر في الباب مع ما صاحبها من الاضطرابات الداخلية ؛ على أن أخاه :

المولى عبد الله (1141 - 1171)

عام واحد وأربعين ومائة وألف لم تحل الحروب الداخلية والفتن الأهلية بينه وبين إنشاء علائق خارجية فعقد معاهدة مع انجلترا ومع رؤساء سبع طوائف من الفلامنك عبر عنهم بالاصطادوص سبعة ديوان قبائل الفلامنك ؛ بواسطة وكلاء الجانبين القائد «محمد لوكاس» والسفيرين «فرانسسك بوطليز» وأخيه «لويز بوطليز» تشتمل هذه المعاهدة على اثنين وعشرين مادة (شرطا) وكذلك أصدر المولى عبد الله أمره بإعفاء الرهبان الذين كانوا بحضرته من تفتيش صناديقهم وما يرد إليهم وبتوقير محلهم الذي بسلا، ثم جاء ولده :

سيدي محمد بن عبد الله (1171 - 1204)

عام واحد وسبعين ومائة وألف فجدد العلائق التي كانت بين جده المولى اسماعيل وبين الدول وأنشأ روابط أخرى مع غيرها ؛ وكانت له مع السلطان مصطفى الثالث العثماني وأخيه السلطان عبد الحميد الأول علائق ودادية وروابط إخائية وكان يوجه لهما بالأموال الطائلة الوافرة ؛ والهدايا الحربية الفاخرة، على سبيل الإعانة للدولة فضلا عن الهدايا النفيسة الخاصة ؛ كل ذلك زيادة على الألوف من الأسارى الأتراك الذين دفع في فدائهم مئات الألوف من الريال وأنقذهم بذلك من ربقة الأسر ومذلة الاغتراب والقهر ؛ وقد تعددت بينهم الرسائل والسفارات والهدايا ؛ وجه أولا للسلطان مصطفى الحاج عبد الخالق عديل لتهنئته بالملك فعاد بهدايا حربية مهمة، مدافع ومهاريس وآلات بحرية ؛ ثم كاتبيه الطاهر بن عبد السلام والطاهر بناني سنة تسع وسبعين ومائة وألف صحبة هدايا نفيسة فعادا بهدية من نوع ما سبق، ثم الرئيس عبد الكريم راغون سنة ثمانين ومائة وألف لتعزية السلطان عما أصاب الأسطول العثماني في حرب الروسيا فرجع بهدية أعظم مما تقدم مع بعثة حربية بحرية تركية بها ثلاثون رجلا استعملوا في

معامل بناء المراكب وصب القنابل وتعليم رماية المدافع بالرباط وتطوان وغيرهما ؛ ولما مات السلطان مصطفى أرسل سفارة سنة ست وثمانين ومائة وألف لتهنئة أخيه السلطان عبد الحميد الأول بالولاية وتجديد أسباب المودة صحبة هدية فيها طرف من صناعة المغرب وسارت معها أربع مراكب من المراكب المغربية إلى الاستانة العلية ثم بعث له كاتبه محمد الحافي برسالة يذكر فيها مظالم حكام الجزائر وأفحاشهم في مقابلة رسائله إليهم ووجه معه المال الذي كان أخرجه لفداء أسرى الأتراك بمالطة فحالت دون ذلك موانع ليدفعه لحكومة الاستانة وكان قدره مائتي ألف وأربعة وسبعين ألفا من الريال ثم أرسل له عبد الكريم العوني في مسألة الحكام المذكورين مع هدية من ملح البارود في أربع مراكب فحينئذ أرسلت الدولة إلى ولاتها على الجزائر وتونس تأمرهم بالتزام الأدب مع السلطان وتنفيذ ما يكاتبهم به وعاد العوني مع اسماعيل أفندي السفير العثماني الذي وجه للسلطان فأرسل السلطان قائد الطبجية لمرافقته للرباط وهناك جرى استقباله في موكب فخم يوم العيد وقرئ كتاب السلطان عبد الحميد بعد الصلاة بجامع السنة الفخم وكان فيه الاعتذار عن جهل أصحاب الجزائر والإيصاء بهم وبأصحاب تونس ثم بعث إليه بعد ذلك صهره وابن عمه المولى عبد الملك بن ادريس وكاتبه محمد بن عثمان سنة ألف ومائتين وأصحبهما هداياه المالية لأشراف الحرمين الشريفين وغيرهم وهي تتجاوز الأربعمائة ألف ريال ؛ وقد ألف ابن عثمان في هذه السفارة كتابه «إحراز المعلى» ذكر فيه كيف اخترق الأناضول ومر بسوريا وتونس والجزائر وقد ذكر أنهم لما وصلوا لتونس بعثوا بعض أصحابهم إلى البر قبل أن ينزلوا من مركبهم ليكتري لهم دارا للنزول، قال فسمع بذلك أمير البلد فأمر بتعيين دارلنزولنا من أفضل دور البلد وعين قيما يقوم بالمئون والأطعمة فنزلنا بها وفرح بنا أهل البلد تبعا لأميرهم وبعد نحو ستة أيام استدعانا لملاقاته فتوجهنا إليه إلى موضع خارج عن المدينة بنحو ساعة وفيه داره ومستقره فأدخلنا إلى داره وفرح بنا وأتى بقهوة معرضا بها علينا على مقتضى عوادئهم وقد كنا صائمين قضاء رمضان فاعتذرنا له بذلك (هـ) ثم أرسل بعد هذه السفارة كاتبه المؤرخ أبا القاسم الزياني بهدية عظيمة فلما وصل أبدى له رجال الحكومة رغبتهم في الاستسلاف من سلطانه ولما رجع صحبة سفير عبد الحميد أخبر السلطان بذلك فوجه للدولة إعانة قدرها ستمائة ألف وخمسون ألفا من الريال سبائك ذهبية جعلت في صناديق

وأرسلت على يد ملك اصبانيا فملك فرنسا وجاء بعد ذلك سفير عثماني آخر غير الوارد مع الزياني فكتب لهما السلطان الجواب وأرجعهما مكرمين بعد أن أراهما الجواب الوارد من الاستانة ببلوغ الإعانة المذكورة ؛ ثم وفد عليه سفير عثماني جديد من السلطان عبد الحميد هو كاتب ديوانه أحمد أفندي مصحوبا بهدية من نفائس الأعلاق ؛ ثم أرسل السلطان أيضا صهره القائد محمد الزوين الرحماني سفيرا صحبة بعض الأسارى الأتراك الذين أنقذهم من الأسر وهدية عظيمة منها سفن أربع يقودها أربعة من كبار رؤساء المراكب المغربية ولعل هذه السفارة آخر سفاراته للدولة العثمانية وله سفارات أخر إليها من غير من ذكرناه.

ومن علائقه أيضا مع أمراء الإسلام عقده رابطة المصاهرة مع سلطان مكة الشريف سرورتزويجه إياه بكريمته. وقد كان في جهازها ما يزيد على مائة ألف دينار من الذهب والجواهر والأحجار الكريمة ووجه معها سنة اثنين وثمانين ومائة وألف ولديه أخويها المولى علياً والمولى عبد السلام، وصار في ركابها كثير من وجوه المغرب وأعيان رجاله في موكب كان حديث الناس حينا من الدهر ووجه مع الوفد هدايا لولاة طرابلس ومصر والشام وأمرائها وكان ليوم دخولهم مكة مهرجان عظيم حضره حجاج ذلك الموسم كلهم.

ولما حلت المسغبة بولاية طرابلس الغرب وجه لأميرها مركبا حاملا للقمح امتيارا للسكان ولكن المراكب النابلية اقتنصته إذ لم يكن قد هادنهم يومئذ.

أما علائقه مع دول أروبا فقد كان ارتبط معها بمعاهدات وراسلها بكتب وسفارات وكان للسفن المغربية إذ ذاك جولان فوق متن البحار ولعب على ثبج الأطلنطيكي والأبيض المتوسط تخشى تلك الدول عواقبه وتود تحاشيها واجتنابها فكانت تخطب وده وتسعى في مهادنته ومسالمته فيهادنها ويساعدها على ما كان يقع مع بعضها من الوقائع الحربية والمظاهر العدائية ؛ وفي سنة ثمان وسبعين ومائة وألف التقط القرصان المغاربة سفينة فرنسية فهجم أسطول فرنسا على ثغر سلا ثم أعاد الكرة على العرائش سنة تسع وسبعين ومائة وألف وألقى عليها من مقذوفاته ما خربها وهد دورها ومسجدها ونزل بعض رجاله فأخذ عليهم خط الرجعة واقتنص أكثرهم ووجهوا للسلطان إلى مراكش فبقوا هناك إلى أن جاءت رسل فرنسا بهداياهم يطلبون الصلح والفداء فأجابهم لذلك وعقد مع لويس الخامس عشر معاهدة سنة ثمانين ومائة وألف بواسطة سفيره الكونت «دبرنيون» وقد بنى أصل هذه

المعاهدة على معاهدة جده المولى اسماعيل مع لويس الرابع عشر وهي مشتملة على عشرين مادة وشرطا مذيلة بفصل في الجوازات ثم أرسل إليه عليا مرسيل سفيرا لتقرير الصلح وقبض مال الفداء وجلب المواد الحربية ولما مات الملك لويس الخامس عشر سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف كتب خلفه الملك لويس السادس عشر للسلطان رسالة في اثني عشر ماي منه يخبره فيها بوفاته ووجهها على يد نائبه بطنجة «برطلمي دبطنير» فأجابه السلطان على ذلك، بتاريخ جمادى الثانية سنة ثمان وثمانين ومائة وألف بإبداء الأسف وهناه بالولاية وواعده بالسير معه على ما كان عليه مع سلفه من قبل ؛ وفي سنة واحد وتسعين ومائة وألف أرسل السلطان سفارة أخرى للويس السادس عشر برياسة القائد الطاهر فنيش كبير الطبجية صحبة جماعة من الفرنسيين غرق مركبهم بالصحراء أقصى المغرب، ووجه معه هدية وكلفه بمفاوضة الحكومة الفرنسية في جعل معاهدة أراد السلطان مفاوضة الدول في عقدها مضمنها أن يقع افتداء الأسارى من الجانبين فورا رأسا برأس، وإن لم يكن رأس مقابل من إحدى الجهات فيكون الفداء مقدرا قانونا بمائة ريال دون فرق بين غني وغيره وقوي وضده ويسرح الهرم صاحب السبعين والمرأة حالا، دون فداء، حسبما جاء ذلك بالظهير السلطاني الذي توجه به فنيش واستمرت العلائق بين الدولتين على ما يرام كما تدل على ذلك رسالة لويس السادس عشر للسلطان ينبؤه فيها بازدياد مولود له ؛ وكذلك سعت اصبانيا لطلب المهادنة وأوفدت إليه رسلها بذلك فأرسل أواخر سنة تسع وسبعين ومائة وألف كاتبه أحمد الغزال سفيرا للملك كارلوس الثالث، وكلفه بالنظر في أمر أسارى المسلمين الذين هناك ودفع الصلة إليهم فكان ينتقل في أنحاء البلاد باحثا منقبا عنهم وأجابت حكومة اصبانيا جميع مطالبه التي منها تسريح الشيوخ والمصابين بأعضائهم من أي بلاد كانوا وكانت هذه تقابل باحتفال وإكرام في جميع البلاد الاصبانية حسبما أنبأنا بذلك الغزال في كتابه الذي ألفه فيها واسمه «نتيجة الاجتهاد»، ثم انقلب راجعا صحبة سفير الملك وهديته بعد أن أمضى معاهدة مهادنة مع تلك الدولة؛ وفي سنة اثنين وثمانين ومائة وألف، كاتب الملك السلطان يعرض عليه أن يتوسط له في تبادل الأسرى مع الجزائر فسعى السلطان في ذلك وأرسل الغزال ليتولاه بنفسه واستمر جو العلائق صافيا إلى أن وقع حصار سبتة سنة خمس وثمانين ومائة وألف ولكن غيم انجلى بسرعة وعاد الأمر لما كان عليه وأرسل

السلطان سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف سفيرا آخر لملك اصبانيا المذكور وهو ابن عثمان الذي كان قد توجه سفيرا للسلطان عبد الحميد فجدد معها الصلح بمعاهدة أخرى اشترط فيها ملك اصبانيا أن يعقد السلطان صلحا مع ولده ملك نابولي وقد كتب هذا السفير في ذلك رحلة أخرى سماها «الاكسير في فكاك الأسير». ثم في سنة تسع وتسعين ومائة وألف طلب الملك من السلطان أن يتوسط له وساطة أخرى في افتداء أميرة من البيت الملوكي أسرها قرصان الجزائر في أثناء ذهابها لنابولي وامتنعوا من فدائها فكتب السلطان بذلك لعبد الحميد فأمر أهل الجزائر بإطلاقها ؛ وفي سنة اثنين ومائتين وألف، أرسل ملك اصبانيا للسلطان عددا من الأسرى أطلقهم له على وجه الإهداء والإكرام فأمر السلطان ابن عثمان أن يذهب بهم لبلادهم الجزائر ؛ وفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف أصدر أوامره السلطانية بضرب أنواع السكك الذهبية والفضية من الريال باشبيلية ومدريد.

ووجه لمالطة التي كانت بيد فرسان رودس كاتبه محمد الحافي لفداء الأسرى ثم وجه ابن عثمان للغرض نفسه أواخر سنة خمس وتسعين ومائة وألف، فلقى رئيس الطائفة «منويل درويلد» وافتدى من الأسرى ما يجاوز الستمائة اكترى لهم المراكب لابن غازي وطرابلس وصفاقس وتونس ؛ ومن مالطة توجه ابن عثمان سفيرا إلى ملك نابولي «فرناند الرابع» وبعد أن افتدى بعض الأسارى وأبرم معه الصلح انقلب راجعا وجمع في هذه السفارة كتابه «البدر السافر».

وقد كانت هذه السفارات المغربية تقابل في البلاد التي توجهت إليها بمهماتها الرسمية بكل إجلال واحترام واحتفاء واحتفال سواء من جهة الدوائر الحكومية أو من جهة الأمم التي حلت بين أظهرها وكانت تجري لها المراسم الرسمية والقواعد المرعية في سفارات الدول بعضها لبعض فتتلقى بتحيات المدافع وتذهب وتجئ في حراسة الجنود وتنزلها الحكومة ضيفا عليها في أفخم دورها وقصورها إلى غير ذلك مما تدل عليه كتب هؤلاء السفراء.

وكانت للسلطان سيدي محمد بن عبد الله روابط سياسية مع غير الدول المذكورة فقد عقد معاهدة مع دولة السويد سنة ست وسبعين ومائة وألف بواسطة نائبها المفوض الذي وجهته لطلب المهادنة تشتمل على ثلاث وعشرين شرطا ؛ وفي السنة الموالية أرسل إليها الحاج التهامي مدون سفيرا.

وعقد مع ملك الدنمارك «كريستيان السابع» معاهدة بواسطة قنصله

«كوشرب» تشتمل على واحد وعشرين شرطا التزمت له الدنمارك فيها بدفع خمسة وعشرين ألفا من الريال سنويا بعضها نقدا والبعض مواد حربية مدافع وآلات بحرية ؛ وبعد أن انتزع من البرتغال ثغر الجديدة سنة اثنين وثمانين ومائة وألف وكمل بذلك عمل جده اسماعيل في إجلاء المحتلين بمراسي المغرب جاءته رسلهم بهداياهم يطلبون الهدنة والصلح فعقد مع الملك «دون جوزة الأول» معاهدة سنة سبع وثمانين ومائة وألف بواسطة القنصل سيمويس الذي خلف السفير المتوفى بالمغرب وبها اثنان وعشرون مادة ؛ وعقد مع انجلترا معاهدة ووجه لها سنة سبع وسبعين ومائة وألف القائد العربي المستيري قائد الرباط وأحد كبار الرؤساء البحرية وكان ملكها يومئذ «جورج الثاني».

وكذلك ترون أيها السادات كيف اتسعت دائرة العلائق السياسية في هذا العصر المحمدي وكيف ارتبط المغرب فيه بالدول العظمى في ذلك العهد بمعاهدات واتفاقات كان من نتائجها تسهيل سبل التجارة للواردين من أبناء تلك الدول وتمكين المغرب من جلب ما يحتاج إليه من المواد الحربية وغيرها ؛ على أن هذه النتيجة نفسها كانت السبب في تداخل الدول في شئون المغرب بعد ذلك لما نشأ عن تلك المعاهدات من الامتيازات الأجنبية التي قاسى الملوك المتأخرون شدائدها حتى كادت تشل أيديهم عن العمل في بلادهم وتصبح مشاكلها المتعددة هي شغلهم الوحيد الذي لا يمكنهم معه الانصراف إلى إنهاض البلاد وإلباسها حلة التجديد.

وبعد موت هذا السلطان تولى ولده :

المولى يزيد *1204 - 1206*

سنة أربع ومائتين وألف فلم تطل مدته ولم يكن له شيء في هذا الباب فيما أعلم ؛ على أن هذا السلطان الذي كانت أمه اصبانية لما ورد إليه سفير «دكرن» ملك اصبانيا وهو بالعرائش لم يلتفت إليه فرجع بهديته خائبا وشرع فيما كان عازما عليه من حصار سبتة وتولى الملك شقيقه :

المولى مسلمة *1206*

ثم تنازل عنه بعد نحو شهرين ورحل عن المغرب فأقام بمصر مدة ثم انتقل لمكة فنزل على شريفها صهره على أخته ثم رجع لمصر ومنها جاء إلى تونس فعظم أميرها الباي حمودة شأنه وأكرم مثواه ونزله ورتب له جراية كجراية ولي عهده وبقي بتونس معظما مكرما وتزوج بها عقيلة من بيت

الشيخ القصري ولدت له ذكرا مات صغيرا ؛ وفي أثناء مقامه بتونس زاره عالمها الكبير أبو إسحاق الرياحي فلما أراد الخروج من عنده قال له لا أسرحك في حر الشمس وألزمه أن يتغذى معه فلما أراد الشيخ الخروج خاطب المولى مسلمة بقوله :

ولما نزلنا في ظلال بيوتكم	أمنا ونلنا الخصب في زمن المحل
ولو لم يزد إحسانكم وجميلكم	على البر من أهلي حسبتكم أهلي

قال له المولى مسلمة إنك أتيت أخي ومدحته فأجازك وهو سلطان (يشير لسفارته عند المولى سليمان) وأنا غريب ثم ناوله خاتما له ثمينا فأخذه الشيخ وضمه إلى صدره وأنشد :

نظرت لخاتم قد جل قدرا	تحف به الخلافة والكرامة
فقلت له شرفت وأي فضل	حويت بلبس مولانا سلامة

ثم قال إن خاتمك شريف والشريف لا يستعمل وقد أجازني أخوك في الدنيا وجائزتي منك في الآخرة ؛ وبهذه البلاد مات المولى مسلمة وأقبر بزاوية الشيخ علي عزوز قرب سوق البلاط. ثم تولى أخوه :

المولى سليمان *1206 ـ 1238*

سنة ست ومائتين وألف فأعد جيشا سنة أحد عشر ومائتين وألف لإجلاء الأتراك عن وجدة فلما وصل ضواحيها خرج منها الترك بدون مقاومة وكتب الباي للسلطان معتذرا بأن الداعي لدخولهم وجدة هو قيام الاضطرابات بالمغرب فلما سكنت الأحوال لم يبق لهم داع للمكث بها.

وأرسل إليه حمودة باشا صاحب تونس الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي سفيرا لطلب الميرة بسبب ما حدث في تونس من المسغبة مصحوبا بهدية فأحسن الشيخ السفارة ووقع لقدومه لفاس اهتزاز وأجابه السلطان إلى ذلك ووفى له بما طلب وأنشأ الشيخ قصيدة في مدحه مطلعها :

إن عز من خير الانام مزار	فلنا بزورة نجله استبشار

ولما صاهر السلطان سيف النصر كبير عرب الحنانشة بطرابلس الغرب على ابنته أرسلها إليه بواسطة واليها الذي أصحبها بعض الهدايا.

ومع أن هذا السلطان الذي اشتهر بعدله منع رعيته المغاربة من الذهاب لأوربا للتجارة فإنه عقد مع دولها معاهدات وارتبط معها باتفاقات فقد عقد مع اصبانيا معاهدة مكناس المشتملة على ثمان وثلاثين شرطا سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف موافق تسع وتسعين وسبعمائة وألف فرنجي بواسطة وزيره ابن عثمان والسفير «اخوان سلمون» المفوض من قبل «كارلوس الرابع» ملك اصبانيا أقر فيها ماكان بين الدولتين سابقا وأضاف إليها أمورا اقتضتها المصلحة وهي اتفاقية سياسية تجارية جعل فيها للرهبان حق البقاء بالمغرب محترمين متعاطين للأدوية فيما إذا انشبت الحرب بين الدولتين كما كان ذلك من قبل على عهد المولى اسماعيل.

وعقد مع انكلترا معاهدة فاس سنة عشرة ومائتين وألف موافق واحد وثمانمائة وألف فرنجي المتضمنة لواحد وأربعين شرطا أقر فيها جميع المعاهدات المنعقدة سابقا بين انكلترا والمغرب على عهد المولى اسماعيل والمولى عبد الله وسيدي محمد إلا ما خالف منها هذا الاتفاق وكان عقدها على يد «جيمس مارية ماطرة» سفير ملك الانجليز جورج الرابع وقنصله بطنجة من جهة والحاج عبد الرحمن عشعاش قائد تطوان من جهة.

وكذلك جدد المعاهدة التي عقدها والده مع السويد وفوض لعشعاش في إمضائها فأمضاها سنة ثمان عشرة ومائتين وألف مع «بيدرفيك» المفوض من قبل ملك السويد «كستاف أطلف» على أن تدفع دولة السويد للسلطان في عنصرة ذلك التاريخ عشرين ألفا من الريال رومية وعند تمام كل سنتين تدفع أربعين ألفا من الريال وفي تلك السنة عقد معاهدة مع أميرال أميركي ورد بأسطوله لمياه المغرب ثم جاءته بعد ذلك هدية تلك الجمهورية تشتمل على مدافع وغيرها وأهدى لها بعد بمدة أسدا وبعض الخيل.

وكاتبه «الامبراطور نابليون بونابرت» يطلب منه خيلا مغربية فوجهها له على يد سفيره بطنجة.

وفي سنة 1220 هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك وأعيى الباي أمرهم أرسل إلى السلطان المولى سليمان يطلب منه التوسط بينه وبين هؤلاء الأعراب ؛ وكان أهل تلمسان راغبين في مبايعة السلطان المولى سليمان لما كانوا يسمعونه عنه من كرم الأخلاق ولين الجانب والاتصاف بالعدل وخلعوا طاعة الأتراك وبايعوا السلطان المذكور فرأى، رحمه الله، أن يسلك في حقهم

وحق الأتراك مسلكا هو أرفق بالجميع فردهم إلى تلمسان وأرسل معهم قائده أبا السرور عياد بن أبي شفرة الوديي وأمره أن يحجز بين الحضر والترك حتى يقدم الباي إلى تلمسان ثم كتب إلى الباي بما أزال شكواه وأبطل وهمه.

وفي سنة *1222* حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثماني وبين الموسكو فكتب العثماني إلى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة التي اتخذها هي وتطوان قاعدة للأسطول تحت رياسة أمير البحر الرئيس المعطى فلوريس الرباطي. ليلا تدخل قراصين الموسكو منه فتعيث في الجزر التي هي في مملكة العثماني وهي جزر الأرخبيل فأمر السلطان رحمه الله رؤساء قراصينه بالتهيؤ والمقام هنالك ففعلوا ولم يظهر شيء ؛ وبعدما تم الحرب استعمل دورة بالبحر المتوسط فغنم سبعة عشر سفينة من بعض الدول الغير المعاهدة وجاء بها للرباط فوجد السلطان المولى سليمان إذ ذاك بقصره بدار القبيبات يقرأ التفسير في قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه» ؛ ولما مثل الرئيس المذكور بين يدي السلطان قلده سيفا مذهبا مرصعا بالأحجار وأنعم عليه وعلى بحارة المراكب بإنعامات ؛ وكان من جملة الحاضرين بالمجلس من العلماء العلامة الشريف سيدي ابراهيم الرياحي وقد أنشد في ذلك بمجلس السلطان ما جلبه حفيده صديقنا أبو حفص عمر في كتابه تعطير النواحي ؛ فانظره. ولما تولى :

المولى عبد الرحمن *1238 - 1276*

جدد ما كان على عهد سلفه من المعاهدات والمهادنات الدولية كالبرتقال *1238* والانجليز *39* والاصبان *40* ودولة سجيليا أصحاب نابولي *50*، وكذلك فرنسا وأمضى من ذلك ما أمضاه أسلافه وارتبط مع حكومة الصارد بمعاهدة تشتمل على ست وعشرين شرطا وأمضى معاهدة أخرى مع جمهورية أمريكا بتاريخ *1252* وبها *25* شرطا فاتسعت بذلك حركة الأخذ والدفع في عهده وصار التجار يوجهون بالعلق وقشور الدباغ لأروبا وغيرها.

ولما احتلت فرنسا الجزائر وظهر الأمير عبد القادر الشهير كان السلطان يعينه ويمده ويميره على مقاومتها إلى أن ضاقت عليه المسالك ودخل الحدود المغربية ووقع الهرج والمرج وهمت فرنسا باقتفاء أثره وإبطال ما كان

بينها وبين ملوك المغرب من المعاهدات اضطر السلطان إلى توجيه جيش برياسة ابن الجناوي الرباطي إلى الحدود استعدادا للطوارئ فلما تقابل الجمعان اشتبكا وانهزم ابن الجناوي وتبعه الفرنسيون ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان بادر بإرسال ولده سيدي محمد الذي صار بعد سلطانا فكانت بينه وبين الجنرال «بيجو» واقعة إيسلي الشهيرة وبعد ذلك عقد السلطان مع فرنسا بواسطة نائبه أبي سلهام ازطوط اتفاقا مؤرخا بـ25 شعبان 1260 فيه ثمانية شروط ثم تلاه اتفاق على إبقاء الحدود على ما كانت عليه أمضاه القائد حميدة الشجعي والجنيرال دولار الذي وقفت على بعض رسائله للسلطان ووزيره ابن ادريس وفيها ما يفيد أنه جاء للمغرب مرتين وجرت له مع السلطان ووزيره الطيب البياز مفاوضات ومباحثات في قضية الأمير، ثم بعد ذلك أرسل السلطان سفيرا لفرنسا بإلحاح من الجنرال دولار لتثبيت الوداد الحاصل فاحتفلت به الحكومة الفرنسية احتفالا عظيما وبالغت في إكرامه ولما رجع عاد معه سفير فرنسا للمغرب، وذهب لمقابلة السلطان بمراكش مع حاشيته فاقتبله السلطان وأكد له رغبته في السلم والسير مع دولته على ما كان عليه من قبل.

وكاتبه صاحب نابولي «افردينان الحادي عشر» يعلمه بتزويج بعض الأميرات من بنات عمه.

وفي عهد هذا السلطان ألغيت مراكب القرصان المغربية التي كانت إلى منتصف أيامه تجول بالبحرين الأطلانطيكي والأبيض المتوسط وتنازل للدنمارك والسويد عن المال الذي كانوا يدفعونه للمغرب حسب اتفاق سيدي محمد مع الأول والمولى سليمان مع الثاني وقد ظفرت بمواد تدل على استمرار العمل بذلك إلى سنة 1250. ولما تولى بعده ولده :

سيدي محمد بن عبد الرحمن 1276 - 1291

واجهته مشكلة عظيمة مع اصبانيا نشأت عن اشتطاط تلك الدولة في طلب الترضية عما لحقها من القبائل المجاورة لحدودها وأشهرت الحرب التي كان مآلها احتلال اصبانيا لتطاوين ثم عقد معها هدنة وصالحها على الجلاء عن تطاوين على تعويض يدفعه المغرب في شوال 1267 أبريل 1860 وجعل نصف داخل المراسي لها فأقام أمناؤها المراقبون بها مع الأمناء المغاربة إلى أوائل القرن الحالي واضطر السلطان مع ذلك إلى عقد قرض في انجلترا

لدفع المعجل من التعويض، فكان أول قرض عقده المغرب مع أوربا وكان من جملة مواد الصلح، أن تعقد الدولتان معاهدة تجارية، فوجه السلطان أخاه المولى العباس الذي كانت إليه قيادة الجيش في الحرب الاصبانية، وأمضى مع حكومة مادريد تلك المعاهدة سنة *1278 ـ 1861* وهي تشتمل على أربع وستين مادة ولعلها أطول معاهدات المغرب، ثم تلت ذلك اتفاقات أخرى مكملة لما سبقها، وفي عام *1279* وجه السلطان كاتبه ابن ادريس سفيرا لملكة الاصبان إيزابيلا فوجهت هي أيضا سفارة أخرى من قبلها ولذلك عادت العلائق بين الدولتين ودية كما كانت من قبل وقد عثرت على جواب السلطان للملك ألفونش الثاني عشر على كتابه الذي أخبره فيه بزواج الأميرة أخته.

وبعد حرب اصبانيا لم يقع في عهده ما يكدر صفاء جو العلائق وكانت له روابط مع الامبراطور نابليون الثالث ولأول ولايته وجه له الكاتب ابن ادريس سفيرا لتهنئته بمناسبة مناداة فرنسا به امبراطورا عليها ومفاوضة الحكومة الفرنسية في بعض الشؤون وجرت بينهما رسائل ودية وبعد ذلك وجه له الحاج عبد الرحمن العاجي في أمر تشغيب الحدود بين الجزائر والمغرب، ثم أخرى فيها القائد عبد الكريم الشرقي وابن سعيد في أمر بعض ثوار الحدود، ثم رابعة سفيرها السيد محمد بركاش وزير الخارجية يومئذ وكذلك أوفد لانجلترا الكاتب عبد الرحمن الشرفي سفيرا، وكانت له مع غير هذه الدولة علاقات ودادية ومخاطبات رسمية وكان يستعين برعاياها في بعض المشروعات التي أخذ ينشئها لترقية البلاد والنهوض بها ؛ ثم تولى بعده السلطان :

مولاي الحسن *1291 ـ 1311*

فوجه همته لإتمام ما بدأ به والده من إصلاح حالة المغرب وإدخال التنظيم الذي يستوجبه العصر وبذل في ذلك رحمه الله مجهوده ولو طالت حياته، لكان للمغرب شأن غير ما صار إليه بعده واستقدم عددا من الفنيين من مختلف الأجناس لتنظيم الجند وتدريبه وتمرينه وبناء الحصون وغير ذلك ووجه لأوربا بعثات الطلبة لاقتباس فنونها وتلقي علومها وفرقهم في مدارس فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا واصبانيا ووجه جماعات من ضباط الجند لجبل طارق وفرنسا وبلجيكا وألمانيا لأخذ آخر ما استحدث في الفنون

العسكرية والحربية ولما عادوا استعملهم في المؤسسات الحديثة كمعمل السلاح بفاس وبناء الأبراج وغير ذلك، وأوصى على صنع بارجة حربية بمعامل ليفورنو من إيطاليا وهي المسماة (بشير الإسلام بخوافق الأعلام). فكانت الخطوة الأولى من نوعها في سبيل تجديد الأسطول المغربي على النمط الحديث وهي مع الأسف الأخيرة أيضا، وفي سنة 1293 أرسل الحاج محمد الزبيدي سفيرا لدول فرنسا وبلجيكا وانكلترا وإيطاليا ردا لزيارة سفرائها الذين قدموا عليه لتهنئته بتبوإ عرش الملك ولمفاوضتها في شؤون امتيازات رعاياها بالمغرب فقابل المريشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسا وملك البلجيك وفكتوريا ملكة الانجليز وفكتور عمنويل الأول ملك إيطاليا، ودفع لهم الرسائل السلطانية وفاوض وزراءهم في المسائل التي ذهب لأجلها وكان يتبرع أثناء شغله في تلك البلاد على ضعفائها وملاجئ الإحسان بها ثم انقلب راجعا قد خلف ذكرا طيبا وراءه.

وكانت له سفارات لفرنسا ومراسلات مع رؤسائها طيرس ومكماهون وجول كريفي في رياسته الأولى والثانية، وكارنو بعث أولا لمكماهون الزبيدي المتقدم ثم لكريفي القائد عبد المالك السعيدي سنة 1302 والقائد المعطي المزمازي سنة 1306 والحاج محمد بن سعيد كما بعثت له الحكومة الفرنسية سفيرها طيسو لتهنئته بالملك سنة 1290 ثم الكوندي دوبيني بعد ذلك.

وكانت له علائق حسنة ومراسلات عن ألمانيا وامبراطوريها فريدريك الثالث وولده غليوم الثاني وجه لها القائد الطيب بن هيمة وعبد السلام بن رشيد ثم الحاج محمد بركاش سنة 1302 مع بعثة الطلبة المغاربة الحربية.

وأهدت له الملكة فكتوريا فيلا عظيما ووجهته مع كاتبها صحبة نائب حاكم جبل طارق، فجاء به يقوده الهنود إلى السلطان سنة 1309 وفي السنة نفسها أوفدت إليه سفيرها شارل وكانت بينه وبينها مراسلات.

ولإيطاليا القائد بوشتى بن البغدادي سنة 1302 والحاج المعطي الشاوي ، ووجهت له سفيرها «توكنطاغلي» وجرت بينه وبين ملكها «فكتور عمانويل الأول» وولده «امبرتو» الأول رسائل ومخاطبات وكذلك بين وزير خارجيته (وكرسي) وغيره من وزراء الطاليان :

وكانت له رسائل ودية وسفارات متعددة لاصبانيا للمصالح التي

تقتضيها المجاورة وجه لها أولا محمد ابن الباشا عبد الله بن أحمد سنة 1294 ثم قائد الرباط عبد السلام السويسي، ثم الحاج عبد الكريم بريشة في الموضوع نفسه، ثم بوشتى بن البغدادي كذلك، ثم القائد عبد الحميد الرحماني في مطالب متعددة وعقد مع هذه الدولة معاهدة حدود مليلية وتداول الرسائل مع ملوكها ألفنش الثاني عشر ثم زوجه الملكة «ماري كريستين» ثم ولدهما «ألفنش الثالث عشر» آخر ملوك هذه الدولة ووجهوا له سفارات منها سفارة «يانكوس» والجنرال «مرطينس كمبوس».

وكانت له علائق مع دولة البرتقال وملكها لويس الأول ولما توفي أرسل القائد محمد بن المؤذن سفيرا لولده الملك «كارلوس الأول» للتهنئة.

وجرت بينه وبين رئيس جمهورية أمريكا «هارسوس» مراسلات وكذلك بينه وبين «ليبولد» الثاني ملك البلجيك.

ولما ورد أحد أولاد قيصر روسيا للمغرب مع قرينته في عهده قوبل بكل إجلال وإكبار وأجريت له التسهيلات اللازمة في تنقله بين المدن المغربية.

ولم يقتصر مولانا الحسن على ربط أسباب المودة مع تلك الدول العظمى مع ملوكها ورؤسائها بل وجه القائد عبد الصادق الريفي سفيرا للبابا «ليون» الثالث عشر لتهنئته ببلوغه الخمسين من عمره.

وبسبب هذه العلائق التي ارتبط بها مع جل الدول الكبرى شاع وذاع اسمه وارتفع في أقطار الأرض ذكره فلما صار الأمير كارلوس الأول «شارل الأول» ملكا على مملكة رومانيا وجه له كتابا يعلمه بذلك وقفت على جواب السلطان عليه.

أما علائقه مع الدولة العثمانية فقد وجه كتابا لطيفا طويلا للسلطان عبد الحميد الثاني يهنيه فيه بولاية الخلافة العظمى التي كان سلفه العلويون يعترفون بها لآل عثمان وكان هذا الكتاب جوابا عن كتاب سابق أرسله إليه السلطان عبد الحميد يدعوه للتألب على أوربا والاتحاد عليها، كما أن شيخ الإسلام العثماني حسن خير الله كتب ذلك للوزير الأكبر موسى بن أحمد وقد عثرت على رسالة محمد سعيد وزير خارجية الدولة العثمانية لوزير خارجية الدولة العلوية مؤرخة بـ 1304 يخاطبه فيها بشأن إحداث سفارة تركية في طنجة وقد اتفق الطرفان أخيرا على تبادل السفراء وعزم المولى الحسن على تعيين العلامة الحافظ أبي إسحاق ابراهيم السنوسي الفاسي نزيل الاسكندرية

سفيرا بالاستانة العلية وأعد الهدية المناسبة التي يتوجه بها. ولما كاد الأمر أن يتم ويخرج من حيز القوة إلى الفعل تداخلت دولة انكلترا في القضية، وسعت بكليتها في نقض ما أبرم، وحذرت المولى الحسن من تداخل تركيا في المغرب، وأبدت وجوها منها أن إيالته لا ترى مانعا دينيا يمنعها من الالتجاء إلى سفارة تركيا والاحتماء بها، حيث أنها دولة اسلامية بخلاف غيرها من دول أوربا التي كان المحتمي بها والملتجئ إليها أو إلى سفرائها وقناصلها في المغرب يعد في نظر حملة الشرع وأهل الفضل والدين مارقا من دينه خائنا لوطنه ودولته وعضد انكلترا فيما أبدته من الإنذارات بعض البطانة الملتفة بالسلطان ... كما أن سفير ألمانيا قام حجرة عثار في ذلك السبيل حتى فشل مشروع تبادل السفراء وخابت مساعي الساعين فيه وبلغ المعاكسون ضالتهم المنشودة.

وقد عثرت على نسخة ظهير أصدره السلطان المولى الحسن هذا أو والده سيدي محمد للخديوي اسماعيل باشا باعتماد الحاج عبد الواحد التازي وكيلا عنه للنظر في أمور المغاربة الساكنين بمصر أو المارين بها في طريق الحج وفي آخره الإشارة إلى أنه كان لسلفه مع سلف السلطان محبة وسيرة حسنة :

وفي عهد المولى الحسن انعقد مؤتمر مدريد وحضره ممثلوا اثني عشر دولة، وكان الغرض منه حصر ما وقعوا عليه بإمضاءاتهم المتكاثرة من تفاحش أمر الحمايات التي يعطيها الأروبيون لبعض المتصلين بهم من المغاربة وسفراء الدول وما تسبب عن ذلك من التداخل في أمور البلاد وطلب مطالب بعيدة الاحتمال حتى كاد أن لا يبقى للدولة شغل غير مسائل الأروبيين المتعددة. ولما تولى ولده :

المولى عبد العزيز *1311 - 1326*

أرسل لاصبانيا الحاج عبد الكريم بريشة سنة *1312* .. واستخلص من شركة انجليزية مرسى طرفاية التي أحدثتها.

ولما تولى الملك إدوار السابع ملك انكلترا سنة *1320* وجه لحضور حفلة تتويجه ابن عبد الصادق الريفي نائبا في ذلك وفي العام بعده زار الملك المذكور جبل طارق فأوفد لتحيته ابن عبد الصادق المذكور وأرسل وزير الحربية المنبهي لانكلترا وألمانيا سفيرا ووجه ابن سليمان عبد الكريم وزير الخارجية سفيرا لفرنسا وروسيا :

وفي عهده عقد قرض للمغرب بفرنسا وانعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1323 وكان سبب ذلك أن فرنسا قدمت لمولاي عبد العزيز مطالب الإصلاحات واقترحت العمل بمقتضاها فزار إذ ذاك امبراطور الألمان غليوم الثاني طنجة إظهارا لتعضيده المولى عبد العزيز في معارضة السياسة الفرنسية وأوعز إليه أن يطلب عقد مؤتمر دولي للنظر في الشؤون المراكشية، فلبت فرنسا الطلب وثار بينها وبين الدولة الألمانية غبار المناقشة في مشروع لائحة المؤتمر بكيفية توترت منها العلائق السياسية بينهما توترا خف منه نشوب الحرب بين الدولتين، إذ ذاك ولولا أن المسيو «روفييه» رئيس الوزارة الفرنسية ألجأ المسيو «دلكاسي» رئيس الخارجية للاستقالة من منصبه لسالت دماء كالغدران ثم حصل الاتفاق بينهما، وانتهت المخابرة في 28 سبتمبر سنة 1905، وعينت دولة أوربا من ينوب عنها وانتدب السلطان المولى عبد العزيز وفدا من قبله للحضور في هذا المؤتمر تحت رياسة الحاج محمد الطريس، وانعقد المؤتمر في الجزيرة الخضراء في 16 يناير سنة 1906 حضره ممثلوا أحد عشر دولة. ولما ولي الملك صنوه :

المولى عبد الحفيظ 1326 - 1330

وجه لأول بيعته بمراكش صديقنا العلامة أبا بكر الشنتوفي سفيرا لانجلترا وألمانيا وإيطاليا وهلاندة، للحصول على اعتراف تلك الدول به وأوفدت إليه فرنسا سفيرها، م، «رينيو» سنة 1327 فوجه إليها وزير ماليته إذ ذاك. ج. محمد المقري متأبطا لظهير منه أصدره لرئيس الدولة. م. «فليار» وكان القصد من هذه السفارة النظر في مسألة الديون واحتلال وجدة وثغر الدار البيضاء، وتعويضات خسائر هذه الأخيرة، ثم كان ما كان من حصار البرابر السلطان بفاس، واضطراره إلى مساعدة الجيش الفرنسي النازل بالشاوية وثغر الدار البيضاء، فقدم لنجدته الجنرال (مواني) وبسبب ذلك دخلت فرنسا فاسا، ثم نشرت حمايتها على المغرب ثم تنازل السلطان المذكور وتولى أخوه :

المولى يوسف 1330 - 1324

وجه سفارة لإحياء روابط الود المؤسس على تقوى من الله ورضوان بين صالح سلفه وملوك الحجاز العظام وتهنئة الملك الشريف حسين بالاستقلال بملك تلك البقاع الطاهرة يرأس تلك السفارة صديقنا العلامة المشارك الشيخ أبو العباس أحمد سكيرج، قاضي سطات الحالي، وكان ذلك عام أربعة وثلاثين

وثلاثمائة وألف ؛ وقد ألم صاحبنا المذكور بحديث هذه السفارة وما راج فيها في رحلته المعنونة بـ «البعثة المكية».

وفي عهده زار المغرب «ألبير الأول» ملك البلجيك وعقيلته الأميرة ورئيس الجمهورية الفرنسي م. «مليران» ثم زار السلطان المذكور فرنسا في عهد رئيسها دو ميرك وهو أول ملك من ملوك دولتنا الشريفة زار فرنسا زيارة رسمية.

يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب على عهد السلطان مولاي سليمان

جوزي دي سانطو انطونيو مورا
تقديم وتعريب
ذ. عثمان المنصوري

لم يحظ موضوع العلاقات المغربية البرتغالية بما يكفي من الاهتمام لدى الباحثين في تاريخ المغرب المعاصر، لأن اهتمامهم انصب أكثر على الدول التي أصبح لها بعد القرن 19 موقع متميز ومؤثر في تاريخ المغرب مثل فرنسا وانجلترا وإسبانيا. ولاعتقاد أغلبهم بأن هذه العلاقات لم تكن من الأهمية بالدرجة التي تبرر مثل هذا الاهتمام.

وبغض النظر عن صحة أو خطإ هذا الاعتقاد، فإن الذي سيمكننا من تقدير مدى أهمية هذه العلاقات هو الشروع فعلا في دراسة الوثائق العديدة الموجودة في المكتبات المغربية والبرتغالية والمتعلقة بالعلاقات بين البلدين في الحقبة المعاصرة.

وفي هذا الإطار يسرني أن أقدم مساهمة متواضعة تتجلى في تقديم وترجمة إحدى الوثائق الغنية بالمعلومات المتعلقة بعهد السلطان مولاي سليمان، وبالعلاقات بين المغرب والبرتغال على عهده. ويتعلق الأمر باليوميات التي كتبها أحد أعضاء الوفد البرتغالي الذي أرسلته دولة البرتغال في سفارة إلى السلطان مولاي سليمان من يوم الجمعة 6 يناير 1797 تاريخ انطلاق الرحلة من لشبونة إلى غاية عودته إليها يوم 21 أبريل تاريخ رجوعه إلى نفس المدينة.

تقديم الوثيقة.

توجد هذه الوثيقة في مكتبة طوري دي طومبو بلشبونة، وهي ضمن مراسلات القنصل البرتغالي إلى وزير خارجيته الموجودة تحت رقم MNE CX 301 ، مراسلات سنة 1797 . وهي عبارة عن تقرير باللغة البرتغالية، صيغ على شكل يوميات، تتناول تفاصيل الرحلة المذكورة، وقد حرص كاتبها على إيراد الرسائل بنصها العربي مرفوقة بترجمة لها إلى البرتغالية، وكذلك الشأن بالنسبة لأسماء بعض المواقع.

وصاحب هذه المذكرات هو الراهب جوزي دي سانطو أنطنيو مورا[1] الذي كان مكلفا من قبل دولته ليقوم بدور المترجم الرسمي للسفارة. وقد تم الاختيار عليه نظرا لمعرفته باللغة العربية، ولدرايته بأحوال المغرب الذي يظهر من المذكرات نفسها أنه سبق له أن قضى به بعض الوقت، وله به العديد من المعارف والأصدقاء[2].

وقد أوكلت رئاسة هذه السفارة إلى القنصل البرتغالي بالمغرب جورج بدرو كولاصو[3] ويتضح من اليوميات أن الهدف من هذه السفارة هو تهنئة السلطان المغربي وتقديم الهدية البرتغالية له، وكذلك السعي لديه للحصول على بعض الامتيازات التجارية، خصوصا وأن دولة البرتغال في هذه الآونة كانت تعاني من نقص في المواد الغذائية والدواب بسبب انشغالاتها العسكرية.

ملاحظات واستنتاجات.

هناك عدد من المواضيع التي تتناولها هذه اليوميات مباشرة أو بشكل عرضي، كما أن قراءتها تسمح لنا بالخروج بالكثير من الاستنتاجات والملاحظات، وسنحاول التطرق إلى أهمها حسب النقط التالية :

1) تبادل الهدايا والسفارات : يمكن أن نعتبر أن الهدية السلطانية هي المهمة الرئيسية لهذه السفارة، التي هي أول سفارة ـ حسب علمنا ـ من البرتغال إلى السلطان مولاي سليمان. وقد جرت العادة أن تبعث دولة البرتغال وفدا للتهنئة مرفوقا بهدية عظيمة عند تولية السلاطين المغاربة أو بمناسبة التفاوض من أجل إبرام اتفاقيات خاصة مع المغرب أو تعديلها[4].

وموضوع الهدية يحتاج بمفرده إلى بحث مستقل، نظرا لما يطرحه من تساؤلات متعلقة بأهمية الهدية والدور الذي تلعبه في العلاقات بين الدول الأوربية والمغرب. والمعروف تاريخيا أن تبادل الهدايا لم يكن مقتصرا على هذه

الفترة فقط، بل إن السلاطين المغاربة تلقوا هدايا كثيرة وفي مناسبات متعددة في عهد مختلف الدول التي حكمت المغرب، وعلى سبيل المثال يمكن الإشارة بسرعة إلى الهدية البرتغالية التي وصلت إلى المغرب في أعقاب معركة وادي المخازن، التي يمكن اعتبارها أول هدية رسمية برتغالية إلى المغرب[5].

وللهدية دلالتها، فهي إما تعبر عن الصداقة القائمة بين دولتين، وإما تكون وسيلة لاكتساب هذه الصداقة أو تدعيمها، ولذلك نجدها في أغلب الأحيان مصحوبة بمطالب أو مدعمة لمفاوضات، تنتج عنها اتفاقات لصالح الدولة التي قدمتها.

ومن خلال الأرشيف البرتغالي نجد أن هذه الهدية تقدم على الأقل في ثلاث مناسبات :

1) مناسبة تولية السلاطين الجدد.

2) مناسبة زيارة السلطان لطنجة.

3) الأعياد الدينية الكبرى (الأضحى والفطر والمولد).

بدون أن ننسى الهدايا التي يتلقاها أعضاء الوفود والأمراء عند زيارتهم للبلدين، أو بمناسبة إجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات.

وعلى قدر حجم وقيمة الهدية، تتحدد أهمية العلاقات بين البلدين، لأن الهدية الثمينة ذات القيمة المرتفعة، تدل على اعتناء الدولة التي قدمتها، ورغبتها الأكيدة في تمتين العلاقات، والعكس بالعكس. كما أنها تفتح الطريق للحصول على امتيازات من خلال المفاوضات التي تصاحب الهدية عادة.

من هذا المنطلق يمكننا أن نتسائل عن الهدية البرتغالية التي تتكلم عنها اليوميات، وعن أهميتها وعن الدور الذي لعبته بالنسبة للعلاقات بين البلدين.

رغم أن الهدية هي الموضوع الرئيسي للسفارة البرتغالية فإن اليوميات لا تتكلم عن مضمون ومحتوى الهدية، ولا تفصل في مقادير ونوعيات الأشياء المهدية، [ما عدا هدية الوزير ابن عثمان] وكل ما نعلمه عنها هو أن عدد البغال التي تحملها هو 50 بغلة. ولا ندري هل هذا العدد خاص فقط بهدايا السلطان أم أنه يشمل أيضا هدايا الأمراء والوزراء ورجال المخزن. لكن من حسن حظنا أننا عثرنا على تقرير آخر لنفس الراهب صاحب اليوميات[6] يفصل فيه بدقة نوع الهدايا ومقاديرها، ومنه يتبين لنا ما يلي :

عدد الصناديق المكونة للهدية.
يفصلها التقرير كما يلي :

السلطان	55 صندوقا
مولاي عبد السلام	15 صندوقا
مولاي الطيب	15 صندوقا
مولاي عبد المالك	3 صناديق
باشا طنجة	4 صناديق

وبذلك يكون مجموع الصناديق 92، بدون حساب هدية الوزير ابن عثمان، والهدايا الأخرى التي وزعها القنصل عند وصوله إلى فاس، مما يوصل عدد الصناديق إلى ما يناهز المائة. وعلى هذا الأساس فإن عدد خمسين بغلة الذي تذكره اليوميات، يجد تبريره إذا اعتبرنا أن كل بغلة تحمل صندوقين، أو أنها تحمل صناديق السلطان فقط.

محتوى الهدية.

فيما يخص محتوى هذه الصناديق، فإن التقرير المذكور يفصلها كما يتبين من الجدول التالي :

لائحة تفصيلية بالهدايا المقدمة إلى السلطان مولاي سليمان

رقم الصندوق	المحتوى
1	8 قطع من ثوب «نوبريسا» (Nobresa) ، عريض المنكب، لون الورد، مزركش الألوان، طولها 181 ذراعا. 7 قطع من لون اللؤلؤة، طولها 152 ذراعا. قطعة واحدة من شريط مذهب، طولها 20 ذراعا ونصف. 48 أونصة من خيوط الذهب، و24 من خيوط الفضة.

2	9 قطع من ثوب «الكوركورة» من ألوان مختلفة، طولها 223 ذراعا. قطعة من الدمشقي الأبيض والمذهب، طولها 26 ذراعا.
3	قطعة من الدمشقي قرمزية بطول 52 ذراعا. قطعة من نوع «الكوركورة» خضراء مزركشة، طولها 30 ذراعا ونصف. قطعة «نوبريسا» بيضاء طولها 50 ذراعا وربع. 1 من الساتان لون الورد، طوله 24 ذراعا وربع. 1 أخرى بطول 34 ذراعا. 1 «كوركورة» قرمزية طولها 25 ذراعا. 1 نوبريسا «زرقاء» طولها 25 ذراعا. 1 أخرى بلون الورد طولها 25 ذراعا. 1 ثوب دمشقي مذهب، بطول 25 ذراعا. 2 قطعتان من أشرطة الفضة.
4	1 قطعة من الدمشقي بطول 62 ذراعا. 5 قطع من «الكوركورة» بطول 173 ذراعا. 3 قطع من «النوبريسا» بطول 82 ذراعا. 3 أخرى بنفس الطول. 1 قطعة من الساتان بطول 25 ذراعا. 2 من شرائط الذهب.
5	1 قطعة من «الكوركورة» ليمونية مزركشة، بطول 28 ذراعا. 1 من «النوبريسا» 50 ذراعا. 5 قطع من الساتان، بطول 183 ذراعا. 14 قطعة من ثوب «الكمبراية». 4 من ثوب الموسلين.
6	15 قطعة من النوبريسا» عريضة بطول 300 ذراعا. 1 قطعة من الساتان، لون اللؤلؤ والذهب، بطول 25 ذراعا. 1 قطعة من الساتان بيضاء، بطول 25 ذراعا. 3 قطع من ثوب مخملي مخطط بطول 95 ذراعا.
7	15 قعطة ثوب من نوعيات مختلفة.
8	30 قطعة من أثواب مذهبة ومخططة.

9	2 قطعتان من ثوب رهيف يدعى (Sangibes) . 4 قطع من نوع «نانسوك». 16 قطعة مذهبة. 2 قطعتان من ثوب رهيف.
10	4 قطع من ثوب انجليزي رهيف من ألوان مختلفة طولها 96 ذراعا.
11	4 قطع أخرى رهيفة جدا، بطول 86 ذراعا.
13 - 12	32 قطعة من أثواب إيرلندية.
14	4 من الأواني، و4 من أواني السكر، و48 من الملاعق الفضية، وآنية للشاي «براد».
15	30 قطعة من ثوب (Bretanhas) .
17 - 16	80 رطلا من الشاي من نوع (Perola) في 160 زجاجة.
19 - 18	80 رطلا من الشاي من نوع (Hysson) في 160 زجاجة.
21 - 20	256 رطلا من الشوكولاطة.
24 - 23 - 22	24 قارورة من الكريسطال، ثم 12 من الأواني للعصير.
26 - 25	فواكه جافة.
28 - 27	قوارير وجرار من الخزف والفخار.
30 - 29	60 قالبا من السكر.
33 - 32 - 31	15 جرة من الصنع الياباني بسدادات من الفضة.
34	7 أطباق يابانية، و4 دزينات من الأواني لشرب العصير. وجهاز كامل من الأواني لشرب الشاي.
من 35 إلى55	60 مجموعة من الأواني الخزفية الثمينة.

وقد فصلنا في استعراض محتويات الهدية السلطانية، نظرا لأهميتها من جهة، ولأن المصادر المغربية قلما تسعفنا بهذا النوع من التفصيلات. أما بالنسبة

لباقي الهدايا، فهي تتضمن نفس الأنواع، وخاصة الأثواب والأواني الثمينة، والسكر والقهوة والشاي والشوكولاطة والفواكه الجافة : إلا أن المقادير تقل كما وكيفا حسب مكانة الشخص المقصود بالهدية كما يتجلى من عدد الصناديق أعلاه.

ومن خلال استعراضنا لحجم ونوع الهدايا البرتغالية، تتضح لنا أهميتها، وبالتالي رغبة البرتغال في الحصول على نتائج إيجابية من هذه السفارة[7].

ويمكن أن نتبين أهمية الهدية أيضا من الصدى الطيب والاستحسان الذي لقيته من المهدى إليهم، فالأمير مولاي الطيب بادر بمجرد وصول الهدية إلى مراسلة القنصل، مبديا رضاه عنها، وتقديره للقنصل البرتغالي ولدولته، واستعداده لتذليل كل العقبات من أجل حصول البرتغال على ما تأمله من المفاوضات.

وبالنسبة للمطالب البرتغالية، فيمكن إجمالها في رغبة البرتغال في الحصول على بعض الامتيازات المتعلقة بالتبادل التجاري، ومن بينها تخصيص مرسى العرائش لوسق الحبوب إلى البرتغال، والترخيص لهم بالوسق أيضا من مرسى أسفي وتيط، والعناية بالرعايا البرتغاليين، والحرص على سلامتهم، وتزويد السفن الحربية البرتغالية بحاجياتها الغذائية «الفريشك»، والسماح بوسق الحبوب والبغال والأبقار، مقابل «صاكة» خفيفة، إضافة إلى حل مشكل سابق متعلق بأحد المراكب التي أسرتها البحرية المغربية.

وقد استجاب السلطان لأغلب هذه المطالب كما يتبين من اليوميات، لكنه أراد أن يستثمر هذا التقارب مع البرتغال ليحصل على البارود، وقد تحفظ القنصل في البداية ثم قرر فيما بعد السعي للحصول على هذا الطلب.

إن أهمية الهدية لا تشرح وحدها استجابة السلطان لجل المطالب البرتغالية، ولذلك لابد من البحث أيضا في الظروف التي كان البلدان يعيشانها، فالمولى سليمان كان في بداية عهده، وأمامه عدد من المناطق التي لم تخضع تماما لسلطانه، وتشير اليوميات مثلا إلى ثورة عبد المالك، التي تزامنت مع زيارة الوفد البرتغالي وإلى منع الاتجار مع أسفي وتيط لوقوعهما تحت نفوذ الثائرين على السلطان. أما البرتغال فكانت في هذه الأثناء في حالة حرب مع فرنسا، وقد بدأت هذه الحرب منذ سنة 1793، وزادت من حاجة البرتغال إلى الحبوب والبغال، والمواد الغذائية.

وبسبب هذه الحاجة المشتركة من كل طرف للآخر، فإن تقاربا حدث بين الدولتين، كان من نتائجه أن البرتغاليين تمكنوا من وسق كميات كبيرة من الحبوب والبغال والمواشي، كما أن المخزن المغربي توصل بحاجياته من البارود رغم احتياج البرتغال إليه بسبب ظروف الحرب[8].

2) المراسيم المتبعة في تبليغ الهدية : تطلعنا اليوميات على عدد من التفاصيل المتعلقة بتركيبة الوفد المرافق للسفارة والإجراءات البروتوكولية التي تتم بهذه المناسبة، ونستطيع بناء على ما جاء فيها أن نقول إن الإجراءات كانت تتم كما يلي :

عند وصول السفينة يخصص لها استقبال رسمي بحضور قناصل الدول الأخرى وباشا المدينة. وبعد أن يستقر الوفد لدى قنصل بلده، وتوضع الهدية في المخازن، يبعث الباشا والقنصل، كل من جهته، برسائل إلى السلطان والوزير الأول، والمعنيين من أمراء وغيرهم، لإخبارهم بوصوله، ويطلب الإذن له بإيصال الهدية. ولا يمكنه أن يتحرك إلا بعد وصول الإذن من السلطان الذي يحدد له تاريخ الانطلاق بالهدية والمكان الذي تتجه إليه، والمرافقين له من الموظفين والجنود.

وبالنسبة لهذه السفارة البرتغالية، فبعد وصول الإذن، تم تعيين الجنود المكلفين بالحراسة (10 من الفرسان)، وعدد البهائم (50 بغلة) اللازمة لنقل الهدية، وحدد السلطان مبلغا من المال للإنفاق على الوفد في الطريق. أما الانطلاقة فقد تحددت من مكان معين بظاهر المدينة، وشيعها الباشا والقناصل إلى أن غادرتها.

عند وصول الوفد إلى ضواحي فاس وجد في استقباله حاجب السلطان وأخ الوزير الأول وبعض الجنود الذين رافقوه إلى مقر إقامته، وأعلموا السلطان والوزير الأول بحضوره. وفي اليوم الموالي تم إخبار الوفد بالاستعداد لملاقاة السلطان وتقديم الهدية في نهار الغد.

وقد كان الاستقبال في جو احتفالي، يصفه صاحب المذكرات بدقة، حيث استقبلهم السلطان في ساحة المشور بعد صلاة الجمعة، راكبا على فرسه وبمعيته كبار الأمراء والجنود وموظفي المخزن، في نظام وترتيب حسب المراكز والأهمية، وفي هذا اللقاء العام لم تناقش تفاصيل المطالب البرتغالية، وإنما طلب القنصل لقاء خاصا بالسلطان لتوضيح هذه المطالب، وسلم له محفظتين تتضمنان مفاتيح الصناديق المكونة للهدية، ولائحة بمحتوياتها.

وقبل هذا اللقاء الخاص تم الاجتماع بالوزير الأول للتمهيد له، ومناقشة المطالب البرتغالية. ثم بعد ذلك تصف المذكرات بروتوكول اللقاء الثاني مع السلطان، وما راج في هذا الاجتماع، الذي قدم فيه القنصل خاتما ثمينا للسلطان كان ضمن الهدية ولكن القنصل أرجأ تقديمه لهذه المناسبة - ولعله كان يؤمل أن يكون لذلك وقع خاص مساعد للحصول على المطالب - وتبادل الجانبان بعد ذلك عبارات المودة والتقدير.

بعد هذا الاستقبال، كان هناك لقاء أخير مع الوزير ابن عثمان الذي أكد للقنصل أنه لا يمكنه الحصول على أكثر مما حصل عليه، واستأذن هذا في العودة إلى طنجة، وبدأت رحلة العودة. وقد أهدى السلطان للقنصل جوادا وحمولة من التمر، كما أهدى بغلة للمترجم. ودام مقام الوفد في ضيافة السلطان بفاس أسبوعين كاملين.

3) المواصلات : تساعد اليوميات في التعرف بعض الشيء على ظروف المواصلات في المغرب لهذا العهد، فالوفد الرسمي البرتغالي سلك طريقا معينة من طنجة إلى فاس،. نستطيع أن نتتبعها إنطلاقا من الوصف الذي قدمه صاحب المذكرات، مع المدة الزمنية التي يستغرقها الانطلاق من نقطة إلى أخرى. وقد استغرقت الرحلة في الذهاب عشرة أيام كاملة، وكذلك الحال عند الإياب. تضاف إليها مدة الإقامة بفاس وهي 15 يوما، لتكون المدة الإجمالية التي استغرقتها الرحلة إلى فاس 35 يوما. ويجب أن نضع في الاعتبار أن الوفد الرسمي يتوفر على إمكانيات لا تتوفر للمسافرين العاديين من تجار وغيرهم، مثل الدواب لنقل الأحمال والأمتعة، والجنود للحراسة، والخيام والزاد، ومع ذلك فقد تعرض للسرقة عدة مرات. وقد كان عبور الأنهار يأخذ وقتا يتراوح ما بين ساعتين ونصف وأربع ساعات، حسب وسائل العبور المتوفرة، وحالة الأنهار. ومن خلال هذه المعطيات نستنتج بالأساس أن المواصلات لم تكن قادرة على تسهيل عمل التجار ولا المخزن بالنظر لطول المدة التي يستغرقها الانتقال من طنجة إلى فاس، في طريق يفترض أنها رئيسية، وسهلة. ويمكن لنا أن نتصور حالة الطرق الأخرى، وظروف السفر فيها، بالنسبة للمسافرين العاديين، وانعكاسات هذه الوضعية على الأمن والتبادل الداخلي. لأن انتقال التجار والجنود يكون مشابها للظروف التي سافر فيها الوفد البرتغالي، وتزداد الأمور صعوبة حينما تزداد أحوال الجو سوء بسبب الأمطار والأوحال وامتلاء الأنهار.

لقد استغرقت السفارة البرتغالية منذ انطلاقها من لشبونة إلى عودتها لنفس المدينة أزيد من ثلاثة أشهر، وهي مدة طويلة نسبيا، وكان للمواصلات دور واضح في هذا الطول.

4) مواضيع أخرى : توحي قراءة هذه المذكرات بالعديد من التساؤلات الأخرى، من بينها : التساؤل حول تركيبة الوفد البرتغالي. وإذا كانت لا تتحدث سوى عن القنصل والمترجم، فإننا نجد في أحد التقارير[9] توضيحا لهذه النقطة، حيث يذكر أن وفد سنة 1798 كان يضم إلى جانب القنصل والمترجم كاهنا، وضابطا وعددا من موسيقيي القصر الملكي البرتغالي[10]. ومتعهدا للخيام، وطباخا، ومقتصدا مكلفا بلوازم المشروبات والحفاظ على الأثاث، بالإضافة إلى المساعدين من يهود ومسلمين، وخدم القنصل والكاتب.

وقد خصص لهم الملك البرتغالي مبلغا يوميا : 400 ريال للقنصل، و200 ريال لكل واحد من الباقين وجرت العادة أن يحمل الوفد معه حاجته من لحم الخنزير، والسكر والقهوة والشاي والشوكولاطة، والباقي يقدمه له المغاربة.

ومن المسائل المثيرة للاهتمام، وجود راهب برتغالي يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وفي اليوميات إشارة إلى وجود راهب آخر جاء لتعلم اللغة العربية. مما يدل على اهتمام البرتغاليين بتعلم اللغة العربية، وهو اهتمام قديم نجده في القرن 16 لدى الراهب دي كونتريراس بفاس، ولدى نيقولا كلينارد[11]، وسيتواصل خلال القرن التاسع عشر، بزيارة مستشرق آخر هو دي باربوزا[12].

ولاشك لدي أن القارئ بدوره سيطرح تساؤلات أخرى، ويستنتج استنتاجات مكملة لما قدمناه، وهذا هو الهدف الأساسي من تقديم هذا النص.

نص اليوميات

يوميات الرحلة التي قمت بها أنا جوزي دي سانطو أنطونيو مورا بأمر من صاحبة الجلالة[1] في هذه السنة 1797 من لشبونة إلى طنجة، مرفوقا بالهدية التي أرسلتها نفس السيدة إلى سلطان المغرب وإلى الأمراء إخوته[2]، بصفتي مترجما للقنصل البرتغالي جورج بدرو كلاصو لخدمته، وخدمة بلاطنا،

وما وقع في الرحلة التي قمنا بها من هناك إلى فاس حيث يوجد السلطان الحالي مولاي سليمان.

الجمعة *6* **يناير** : على الساعة التاسعة صباحا، ركبت في فرقاطة[3] جلالة الملكة المسماة (Aulisses) وقبطانها لويش دا موطا فيو[4].

السبت *7* **يناير**: بسبب عدم توفر الرياح المساعدة لم تقلع الفرقاطة.

الأحد *8* **يناير**: على الساعة السابعة صباحا، خرجنا عن طريق الرصيف الخارجي وبدأنا سفرنا الميمون إلى طنجة.

الأربعاء *11* **يناير** : من الثانية إلى الثالثة ظهرا، رست الفرقاطة بمرسى طنجة، ورغم سوء الأحوال الجوية، نزلت بسرعة إلى البر مع الوفد الرسمي، حاملا معي الرسائل من وزارتنا إلى قنصل جلالة الملك جورج بدرو كولاصو وسلمتها له فورا.

الخميس *12* **يناير** : وصل في الصباح الباكر إلى البر رجل دين، أحضره معه الراهب مانويل دا سيلڤا ربيلو[5] لكي يتعمق في دراسة اللغة العربية. واستقر بمنزل القنصل الذي استضافه بدون تردد. وفي نفس الصباح كان لي شرف تلقي زيارات معارفي الأقدم هنا، قناصل اسبانيا والبندقية والسويد وهولاندا.

الجمعة *13* **يناير** : أنزلت الهدايا من المركب، ووجهت إلى أحد مخازن القنصل.

السبت *14* **يناير**: بأمر من قنصل جلالة الملكة كتبت الرسائل الآتية :

* نسخة الرسالة المكتوبة إلى السلطان سليمان[6].

باسم الله الرحمان الرحيم.

نعرض على عالي مقام سيدنا أنها وصلت لهذه المرسى سفينة برطقيزية من اجبونة بهدية وكتاب كرطينا[7] لسيدنا وقد كتب لي الوزير كتابا يأمرني بأمر البرنسيبي[8] مولاي بالتوجيه لحضرة سيدنا العالية مع الهدية والكتاب لسيدنا وهذا ما وجب على الإعلام به لسيدنا طالبا من فضله الكريم أن يأمرني بالتوجيه لحضرته الشريفة ومعي كاتب هذا الكتاب وهو الفرايلي[9] الوارد

علي بأمر الكرطي ليتوجه معي ترجمان لحضرة سيدنا وربنا يبارك لنا في عمر سيدنا آمين والسلام. كتب في 14 رجب عام 1211.

* نسخة الرسالة المكتوبة إلى مولاي الطيب أخ السلطان :

الاعلام به لسيدنا أنها وردت على هذه المرسى سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية وكتاب لسيدنا وفي صحبتها هدية وكتاب إليكم وقد أمرني الوزير بأمر البرنسيبي أن نتوجه مع الهدية لحضرة سيدنا بعد التلقاء معكم لتقفوا معنا فيما نريده من سيدنا المنصور ظاهرا من البرنسيبي أنكم أعزكم الله هنا لاكن حيث أنتم بالعرايش ووصلنا الخبر أنكم خارجين منها ويخفى علينا الموضع الذي تمشون إليه وجب علينا الكتب إليكم ونعلمكم بأننا قد كتبنا لسيدنا وأعلمناه بما نعلمكم به طالبون منه الأمر بالتوجيه لحضرته العالية فلأجله نطلب من فضلكم أن تعلمونا بالموضع الذي نلاقيكم فيه لأننا نريد النظر لوجهكم الكريم وإن كنتم في العرايش أو مع سيدنا فذاك وإلا يصعب علينا التوجيه إليكم لأن أمر أخيكم المنصور هو الأول كما لا يغيب عن عزيز مقامكم وإن لم تكونوا في أحد من المواضع المذكورة نطلب من فضلكم أن تعلمونا بالعمل مع الهدية والكتاب إليكم إما أن نبعثها إليكم إما نتركها هنا وربنا ينعم علينا بطول عمركم. آمين والسلام.

انتهى في 14 من شهر رجب عام 1211.

* نسخة الرسالة المكتوبة إلى مولاي عبد السلام أخ السلطان :

وبعد فليعلم سيدنا أنها وصلت لهنا سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية كتاب البرينسبي لسيدنا المنصور وفي صحبتها هدية وكتاب إليكم ووصلني أيضا كتاب الوزير يأمرني بأمر البرينسبي أن نتوجه لحضرة سيدنا العالية مع تلك الهدية وقد كتبت لسيدنا نعلمه بما نعلمك به طالبا منه الأمر بالتوجيه إلى حضرته العالية وها إن أمرني سيدنا بالتوجيه لفاس أو مكناس فإني نصحب معي هديتكم والكتاب إليكم وألا نطلب من فضلكم أن تعلموني

بالعمل مع هديتكم إما أن نبعثها إليكم إما أن نتركها هنا إلى أن تبعث أحد من أصحابكم ليتوجه بها لحضرتكم والسلام كتب في 14 رجب عام 1211.

* نسخة الرسالة المكتوبة إلى ابن عثمان وزير السلطان الأول :

الأرضى المرتضى والأعز ما لدينا الفقيه الأجل السيد محمد بن عثمان كاتب أعظم أوامر سيدنا الشريفة. بعد السلام عليكم نعرض على سيادتكم الكريمة أننا كتبنا لسيدنا المنصور كتابا نعلمه بوصول سفينة برطقيزية من أجبونة بهدية وكتاب لسيدنا وقد أمرني الوزير بأمر البرينسبي مولاي أن نتوجه بها إلى حضرة سيدنا ومعي الفرايلي كاتب هذا الكتاب القادم علينا وقد طلبنا منه أيده الله ذلك فلأجله نطلب من فضلكم أن تقفوا معنا في هذا الغرض عند سيدنا إلى أن يبعث لنا أمره الشريف بالتوجيه لحضرته العالية بالله وأما كاتب هذا الكتاب يسلم عليكم كثير السلام ويطلب الله دوام عافيتكم ونحن أن تعرض لكم غرض هنا أو في بلادنا اعلمونا به نقضيه لكم والسلام. كتب في 14 رجب عام 1211. عن إذن قونصو البرطقيز جرج كلاص.

الأحد 22 **يناير**: بما أن الأمير مولاي الطيب كان قد خرج من العرائش إلى الرباط على رأس مجموعة من الجنود، عندما وصلت رسالتنا إلى هناك، لذلك لم نتوصل بجوابه إلا اليوم. وهذا جوابه :

باسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إلى خديم جانبنا الأعز بالله قونصو البرطقيز بطنجة المحروسة أما بعد فكتابك ورد على شريف مقامنا تعرفنا فيه بوصول المركب الذي فيه هدية مولانا المنصور بالله أعز الله جانبه وكتاب البرينسبي إليه كما تعرفنا أيضا أنه وصل في المركب المذكور صحبة ما ذكرنا من هدية مولانا وأخينا وكتاب البرنسبي إليه هدية جانبنا الأسمى كتاب البرينسبي إلينا في الوقوف مع هديتكم والمشاورة عليها عن سيدنا وأخينا فقد تعرفنا كل ذلك

وانتهى خبره لكريم علمنا والذي يكون عليه عملكم ونأمركم به أن تتركوا تلك الهدية على ما هي عليه تحت أيديكم حتى نتلاقى بمولانا وسيدنا السلطان نصره الله ونعرفه بأمر وصولها ونشاوره على المحل الذي تلحقه فيه ونكتب لكم بشريف أمره ونبين المحل الذي تأتي الهدية إليه فإذ ذاك تقدمون بها على يقين وبصيرة وإذا وصلكم الأمر بالقدوم على مولانا فادفعوا هدية جانبنا المحفوظ لكاتبنا السيد محمد هناك واتركوها بذمته واصحبوا معكم كتاب البرينسبي إلينا وعلى ما رسمنا لكم العمل وبتاريخ العشرين من رجب الفرد الحرام من عام *1211* ومنه أيضا أننا نقف معكم بحول الله عند مولانا في جميع أغراضكم وما تطلبونه حتى يتم ذلك على ما تحبون وتريدون إن شاء الله وبه تم في التاريخ المذكور.

الاثنين *6* **فبراير**: اليوم، وصل البريد حاملا الأجوبة على الرسائل التي كتبت يوم *14* يناير إلى السلطان والأمير مولاي عبد السلام وابن عثمان الوزير الأول. وقد تأخر الرد كل هذه المدة لأن الرسائل حين وصلت إلى العاصمة مكناس كان السلطان قد غادرها على رأس جيشه في اتجاه مدينة سلا، وبما أنه كان يتعين أيضا إيصال رسالة الأمير عبد السلام في فاس حيث إقامته، فقد توجه البريد إلى هناك، ثم عاد مواصلا طريقه إلى أن لحق بالسلطان بالقرب من سلا، وعاد بمجرد ما بلغ الرسائل وتلقى الأجوبة التي كانت طيبة. واحدة منها إلى حاكم هذه المدينة لتقديم كل ما هو ضروري لمرافقة الهدية والجنود لحراستنا كما يرى في الرسالة. وعاد إلى فاس لتلقي جواب الأمير مولاي عبد السلام الذي زيادة على إعطائه الجواب كلف بعض خدمه بجلب هديته لاعتقاده بأننا لا يمكننا المرور بفاس أثناء نقلنا لهدية السلطان.

* نسخة جواب السلطان على رسالتنا :

باسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إلى قونصو البرطقيز بطنجة، أما بعد، ورد علينا كتابك تخبرنا فيه بورود الأمر عليك من دولتك بالقدوم على حضرتنا العلية بالله أنت والفرايلي والهدية وتستأذننا في القدوم فنأمرك

أن تقدم علينا كما طلبت وها نحن أمرنا وصيفنا السيد محمد السلاوي يقضي لك كل ما تحتاجه ويوجه معك الخيل والسلام.
في 24 رجب عام 1211.

* نسخة الرسالة المبعوثة إلى حاكم هذه المدينة :

الحمد لله وحده

وصيفنا السيد محمد السلاوي سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فنامرك أن توجه إلى حضرتنا العلية بالله قونصو البرطقيز والهدية التي أتته من سلطانه إلينا وأكثر له من البهايم ما يكفيه وأبعث معه عشرة من الخيل يرافقونه في الطريق ويحرسونه واعط كبير الخيل ما يصرف على القونصو المذكور في الطريق والله يعينك والسلام. في رابع وعشرين رجب عام 1211.

* نسخة جواب ابن عثمان :

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحبنا القونصو جرج كلاص البرطقيز أما بعد فقد وصلنا كتابك مع كتاب سيدنا نصره الله تطلب فيه الإذن في القدوم على حضرة سيدنا مع صاحبك الفرايلي والهدية الواردة عليك لسيدنا أيده الله من الكرطي واعلمنا سيدنا نصره الله بمرادك وها أنا بعثت لك الأمر بالقدوم ولقايد البلد ببعثك وتجهيزك وبعث الخيل معك وقد وقفت في كتابك على سلام الكاتب ففرحت كثيرا لكونه على خير وعافية وحامل الكتب بلغ إلينا المكاتب وقد بقي بيننا وبين الوصول إلى سلا أربع ساعة[10] والسلام. في 24 رجب عام 1221. محمد بن عثمان لطف الله به.

* نسخة من جواب الأمير مولاي عبد السلام :

الحمد لله وحده

صاحبنا ومحبنا النصراني جرج كلاص قونصو البرطقيز أما بعد، فقد بلغنا كتابك وفهمناه وما ذكرت على الهدية التي وردت من

الأجبونة ها نحن بعثنا إليك صاحبنا الحاج كروم ادفعها إليه يأتي إلينا بها والسيد محمد السلاوي يكتري إليه البهايم تحملها إلى هنا ونحن نخلص الكراء والسلطان نصره الله توجه بالسلامة والعافية لناحية رباط الفتح فتح الله عليه وظفره بمراده، آمين وأعانه على جمع كلمة المسلمين والسلام في أواخر رجب الفرد عام 1211.

عن إذن مولانا عبد السلام ابن أمير المومنين.

الخميس *9* **فبراير** : اليوم وكذلك في اليومين السابقين أطلقت المدفعية بهذه المدينة مرات متعددة احتفاء بالنصر الذي أحرزه سليمان ضد مولاي عبد المالك، الذي بايعته منطقة الشاوية. وأسعدنا أيضا وصول رسالة اليوم من الأمير مولاي الطيب ومعها أمر بالذهاب إلى مكناس. بمجرد تسلمنا لهذه الرسالة قررنا أن لا نسلم هدية مولاي عبد السلام إلى خادمه، وأن نأخذها معنا إلى مكناس وبذلك لا نضطر إلى تقديم هدية جديدة إليه عند التقائنا به في هذه المدينة، وبدون هذا التصرف لا يمكننا بأية حال تجنب تقديم هدية جديدة إليه، كما هي العادة عند هؤلاء الناس.

* نسخة من رسالة الأمير مولاي الطيب :

إلى خديمنا قونصو البرطقيز بطنجة المحروسة بالله أما بعد فمولانا وأخونا المنصور بالله أعز الله جانبه قد أمر بإتيان هديتكم إلى حضرته العليا بالله بمكناس فخذ بالجد والعزم في تهيية السفر بتلك الهدية مع من عينته دولتكم لمصاحبتها إلى المقام الأعز بالله.
وكاتبنا السيد محمد وفقه الله قد أمرناه بتسيير البغال لحمل هديتكم المذكورة وبالوقوف معكم في أمرها وتوجهها ففواضه [ففاوضه] في ذلك وادافع له هدية جانبنا المحفوظ مع كتاب دولتك إلينا إن لم تكن دفعتها قبل كما أمرناك وقدمنا لك وعلى ما رسمنا العمل والتمام بتاسع شعبان من عام 1211.

الاثنين *13* **فبراير** : سُلِّمت هدية ورسالة صاحب السمو الأمير سيدنا الموجهة لمولاي الطيب إلى حاكم هذه المدينة كما أمر في الرسالة السابقة، والتي

رد عليها القنصل بالشكل التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم،

> نعرض على عالي مقام سيدنا أنه وصلنا كتاب سيدنا الشريف مع حامله خديم سيدنا القايد أحمد المتيوي يأمرنا فيه سيدنا بالتوجيه لحضرة سيدنا المنصور بالله بالجد والعزم فليعلم سيدنا أننا حيث وصلنا الخبر برجوع سيدنا للعرايش أردنا التوجيه عليها بقصد التلقاء مع سيدنا بها لندفع لسيدنا كتاب البرينسبي مولاي ونعلم سيدنا بمراده أعزه الله كالأمر الوارد علينا منه وبعد المفوضة مع سيدنا في أمره نتوجه إلى حضرة سيدنا المنصور لاكن حيث أمرنا سيدنا بالتوجيه لحضرة سيدنا أيده الله بالعزم نعم فإن العبد عند أمر سيده وما نطلب من فضل سيدنا إلا أن يكتب لأخيه المنصور بالمطلوب من عالي مقامه أن ينعم علينا بمراد برينسبنا وأما ما أمرنا سيدنا بأننا ندفع لكاتب سيدنا السيد محمد هدية جانبه فقد أمكناه منها وفي صحبة هذا يصل لسيدنا كتاب البرنيسبي والزمام مما تحوي تلك الهدية نطلب الله أن تكون على خاطر سيدنا وربنا يبارك لنا في عمر سيدنا، آمين والسلام. في 15 شعبان عام 1211.
>
> عن إذن قونصو البرطقيز جرج كلاص.

السبت 18 فبراير : بمجرد أن توصل الأمير مولاي الطيب بهدية ورسالة صاحب السمو، وعرف مضمونها، وكذلك الكلام الطيب الجميل الذي صاغه القنصل في رسالته السابقة أرسل حالا جنديا فارسا بالرسالة التالية :

> بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
>
> قونصو البرطقيز جرج كلاص، أما بعد، فقد وصلنا كتابك مع كتاب البرينسبي والهدية فقبلناها واستحسناها كثر الله خيركم وأما ما عرفتنا به من أن البرينسبي أمرك بالملاقة معنا قبل الوصول لمقام سيدنا وأخينا المنصور بالله لتنهي لكريم علمنا ما كلفكم به من الأمور التي في غرضه وتتفاوض معنا في ذلك

> فبذلك كتب لنا البرينسبي في كتابه المبعوث على يديك وخبرنا بما أمركم به من القدوم على حضرة مولانا نصره الله بعد ملاقتنا السعيدة لنتعرف بجميع ما في مرادكم ونقف معكم في قضاء ذلك عند أخينا أيده الله وأعز أمره وعلى ذلك نامرك بالقدوم على شريف محلنا ومن عندنا تتوجهون لمقام سيدنا الأسمى ويكون جوازكم من هنا فإن الطريق واحدة وإن وصلك أمرنا هذا بالطريق أو بثغر طنجة لابد لك أن تقدم على مقامنا السعيد لتتكلم معنا في غرضكم وأموركم التي أتيتم بقصدها فحينيذ نكتب لك لأخينا وسيدنا المنصور بالله ونقف معكم في كل الأمور حتى يقضى غرضكم على أحسن حال وأكمله بحول الله فإنكم أولى بالوقوف عن غيركم وعلى هذا عملك إن شاء الله والسلام. في تاسع عشر شعبان المبارك عام *1211*.

الاثنين *20* **فبراير** : أخيرا اليوم بعد الظهر أعدّتْ هدية السلطان وأخيه مولاي عبد السلام على متن خمسين بغلة، ومعها كل ما هو ضروري لهذه الرحلة الشاقة، انطلاقا من المحل المسمى المصلى، حيث أقيمت الخيام. وحالا وصل الجنود المعينون لمرافقتنا وكذلك القائد الذي طلبه القنصل ليكون على رأسهم، على الرغم من رغبة حاكم هذه المدينة تعيين نفس القائد لدى قنصل اسبانيا، الشيء الذي عملنا بقوة على أن لا يتم، وإضافة إلى ذلك فإن القنصل الذي كان مدركا لنوايا الحاكم، أجاب بأن القائد الذي طلبناه هو الذي سيرافقنا، وأننا لن نخرج مع أي قائد سواه، إلى حين التوصل بجواب السلطان الذي سبق أن كتب لنا عن نفس القائد، ولذلك لا حاجة إلى إرسال أي كان إلى المدينة لكتابة رسالة أخرى للسلطان في هذا الشأن. هذا الجواب الأكيد جعل الحاكم يوافق على القائد الذي طلبه القنصل.

الثلاثاء *21* **فبراير** : على الساعة السابعة والنصف صباحا خرجنا من طنجة مرفوقين بعدد من القناصل والأصدقاء. ووصلنا إلى محل المعسكر، حيث التقينا بحاكم هذه المدينة، وبمجرد ما انتهينا من توديعه بدأنا رحلتنا وسط جو جميل، وفي الساعة الثالثة ظهرا وصلنا إلى نهر يسمى الخُلج، وفيه تعرضت لخطر كبير عند عبوره، إلا أنه من حسن حظي أن القائد مُرْشِدَنا، ركب على

بغلة قوية وتمكن من إنقاذي، وفي الساعة الخامسة خيمنا بمحل يسمى أولاد السبطة، في قبيلة غربية.

الأربعاء 22 فبراير : من الساعة السادسة إلى السادسة والنصف جمعنا الخيام، وتابعنا الطريق في جو جميل عبر أراضي القبيلة الآنفة الذكر، ثم عبر أراضي قبيلة عمر طيرثة، وفي منتصف النهار نزلنا بجوار غابة، تعرف لدى الأوربيين بغابة العرائش، وفيها ارتحنا إلى الثانية ظهرا، وهو الوقت الذي ركبنا فيه، وقطعنا الغابة المذكورة في ساعتين، وبعدها وصلنا إلى مكان كبير يدعى الخميس، يوجد تحت نفس الغابة في الساعة الرابعة، وفيه خيمنا.

الخميس 23 فبراير : على الساعة السابعة واصلنا رحلتنا، وبعد مرور دقيقتين بدت لنا العرائش. وفي الساعة الثامنة والنصف وصلنا إلى نهر نفس المدينة، حيث وجدنا في انتظارنا نائب القنصل الانجليزي، والتاجر البرتغالي جوزي أنسلمو دي ماسيدو[11] وقد ركبت أنا والقنصل مع هذا الأخير على متن قارب كان في انتظارنا هناك، ونزلنا منه في الشاطئ، ومنه أخذنا إلى منزله، حيث ضايفنا ضيافة ممتازة، بينما بقي نائب القنصل الانجليزي مع كاتب القنصل بالجهة الأخرى من النهر، إلى أن تم نقل كل الأمتعة إلى هذه الجهة من النهر، الشيء الذي تم في الحادية عشر صباحا. وبعد الظهر استدعينا للمثول أمام الأمير مولاي الطيب، الذي سألنا، بعد أن قدمنا له التحية الواجبة، عن مطالب دولتنا. أجابه القنصل أنها تريد ميناء خاصا بالدولة البرتغالية، والحق الكامل في التجارة في كل الموانئ الأخرى مثل باقي الدول ؛ وقد أجابنا على ذلك بأنه كتب إلى أخيه حول نفس الموضوع على أساس أن القنصل تحدث له عنه بشكل عام بدون تسمية مينائي أسفي والجديدة، لمعرفته بأن الأمير المذكور من أشد المعارضين لهذه التجارة، ولذلك بدلا من أن يتعاون من أجل تلبية المطلب البرتغالي، ربما نصح أخاه بعدم الموافقة على مطالب من هذا النوع.

الجمعة 24 فبراير : بما أن الأمير تأخر قليلا بسبب أمره بكتابة الرسالة إلى السلطان، لم نتمكن من الخروج من العرائش إلا في الساعة الحادية عشرة صباحا، وهو الوقت الذي تابعنا فيه رحلتنا، وقد سرنا بضع ساعات خلال إحدى الغابات ثم خلال حقول جميلة، مسقية بعيون مائية كثيرة، وحديثة عهد بالحرث. وفي الساعة الرابعة والنصف خيمنا بالمحل المسمى الرياحين، بقبيلة بمنطقة الغرب.

السبت 25 **فبراير** : فجر هذا اليوم سرقت واحدة من النوق. التي بعثها الأمير مولاي الطيب إلى أخيه مولاي عبد السلام، لكن سكان هذا المحل سيدفعون حسابا عنها في يوم آخر. في الساعة السابعة صباحا تابعنا رحلتنا في جو جميل داخل المنطقة المذكورة، وفي منتصف النهار وصلنا إلى محل يسمى مفْوَر، تابع لقبيلة السفيان، حيث نزلنا لتناول ما تيسر من الطعام. وهناك وجدنا بعض الأسوار المهدمة، من مآثر الماضي، والتي يظهر من نوع بنائها أنها من إنجاز الرومان القدامى، الشيء الذي أكده أيضا سكان هذا المكان، قائلين أن أجدادهم يروون أن هذا المكان كان مأهولا في الماضي بساكنة مسيحية. وبمجرد ما انتهينا من الأكل، تابعنا طريقنا، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر خيمنا في نفس المنطقة بقبيلة بني مالك، بمحل يسمى كوار الهَجْفَنَه، قريب من نهر يدعى واد الطين.

الأحد 26 **فبراير** : في فجر هذا اليوم سرقت فرسة في المحل السابق. وفي السابعة صباحا تابعنا سفرنا في جو جميل، وفي العاشرة والنصف وصلنا إلى سوق يسمى سوق الأحد، لأنه يعقد يوم الأحد، مجاور لجبل (Racurta) [12]. بمجرد ما وصلنا، فرغ السوق، وحالا وجدنا أنفسنا محاطين بالأعراب. وكل واحد منهم يطنب في الترحيب بنا حسب مشاعره وجهله. أنا أشير فقط إلى سؤال سألنيه واحد منهم، وهو كاف ليوضح جيدا قدرات هؤلاء الناس المتبربرين، وكان كالتالي : هل بالصدفة أصبحتم رجالا وأبناء لآدم ؟ وهو سؤال - في الواقع - أضحكنا كثيرا ؛ ومن بين هؤلاء التقينا ببعض معارف وأصدقاء القنصل الذين كانوا يحملون إليه هدايا كثيرة عندما يأتون إلى طنجة. وبعد مرور ما يناهز ساعتين ونصف، ركبنا وواصلنا الطريق إلى الخامسة بعد الظهر، عندما وصلنا إلى محل يقع على ضفة النهر المشهور الرضات، في قبيلة بني مالك، التابع لولي وزان الكبير، المحتال الأكثر توقيرا في كل هذه الامبراطورية، وهناك بتنا. وكل المرافقين لنا ارتاحوا لاختيار هذا المكان الذي يعتبرونه آمنا ويلتمسون فيه بركات هذا المتزمت الكبير، الذي رغم قداسته سرقوا له فرسة، هذا الحادث أثارجدلا كبيرا لدى مرافقينا ؛ وفي الأخير انتهوا إلى أن وليهم لن يترك جريمة كبيرة كهذه تمر بدون عقاب.

الاثنين 27 **فبراير** : ركبنا في السابعة صباحا، وتابعنا في جو جميل رحلتنا، وفي الحادية عشر نزلنا قرب عين تسمى عين القرواش، وهناك وجدنا

بعض البنايات المهدمة تماما، والتي يظهر من بنائها أنها جد قديمة، وعند سؤالنا لبعض سكان هذه البلاد عن مؤسس هذه البناءات، أجابونا بأنه يقال أنها كانت مسكنا لملك قديم كان يقيم بها. وتابعنا بعد ذلك رحلتنا، ووصلنا في الواحدة ظهرا إلى النهر المشهور ورغة، الذي يمثل حدا طبيعيا بين عدد من القبائل؛ وفي الخامسة عشية أتينا إلى الجبل المسمى جبل الكلخ، لدى القبيلة المسماة أولاد عيسى، ونصبنا خيامنا إزاء المحل المعروف باسم دوار القاضي، وبمجرد ما خيمنا بدأت الأمطار في التهاطل، وظلت كذلك طول الليل، الشيء الذي أفرح كثيرا كل هؤلاء الناس، لحاجتهم الشديدة إلى هذه الأمطار.

الثلاثاء 28 فبراير : يظهر أن اللصوص شرفونا بمرافقتنا منذ خروجنا من العرائش إلى هنا، وقد استمرت وقاحتهم أيضا هذا الفجر، لأن أحدهم حاول سرقة أحد الخيول الخاصة بالجنود المرافقين لنا، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأنهم أحسوا به؛ وقد كان سعيد الحظ لأن الجنود أطلقوا عليه النار من ثلاث عشرة بندقية، وواحد منهم كان في المؤخرة وأطلق عليه النار من مسدسه، لكنه لم يصبه على ما يظهر. في الثامنة صباحا تابعنا سفرنا في جو غائم قليلا؛ لكن بدون أمطار. وفي التاسعة مررنا بجوار مكان يعيش فيه أحد أبناء الامبراطور الراحل اليزيد. وبعد دقائق قليلة دخلنا إلى سوق يسمى سوق الثلاثة، حيث رأينا بعض آثار المساكن العتيقة، التي حسب أقوال سكان البلاد تعود إلى العهد الروماني. وفي الحادية عشرة صباحا عبرنا النهر الشهير سبو ومنه أرسلنا جنديا ليسبقنا ويخبر السلطان بوصولنا، وفي الخامسة عشية خيمنا بالمكان المسمى عين البقار، لدى قبيلة أولاد الجَمَع، عندما بدأت الأمطار في التهاطل، وقد استمرت كذلك طول الليل.

الأربعاء 1 مارس : على الساعة الثامنة صباحا تابعنا رحلتنا في جو جميل، وفي الواحدة ظهرا وجدنا في استقبالنا بضواحي فاس الحاج حمو بن حيون حاجب الامبراطور، مرفوقا ببعض الجنود لحراستنا وبأخ الوزير الأول، الذين بعد أن سلموا علينا، واحد باسم السلطان، والآخر باسم أخيه، قادونا وسط تلك المدينة إلى الحديقة العظيمة التي هي للقائد العربي الصفار، الحاكم الذي كان بفاس والصويرة، في حياة الامبراطور سيدي محمد، حيث أقمنا إقامة جيدة مع كل أعضاء وفدنا.

الخميس 2 مارس : قدم بعد الظهر أخ الوزير بن عثمان، ومعه أمر لنا

بالاستعداد، لأن الامبراطور قرر أن يخصنا بالمقابلة الأولى في اليوم الموالي في منتصف النهار.

الجمعة 3 مارس : بدأنا في إعداد الهدية على الساعة العاشرة صباحا على الشكل التالي : على كل بغلة وضعنا صندوقا، وكل واحدة يرافقها جندي، وبمجرد الانتهاء من هذا العمل، الذي تم في الحادية عشرة، ركبنا الجياد، وتوجهنا إلى فاس الجديد، مرفوقين بالحاجب المذكور، وبجنودنا، وغيرهم من الجنود، وفي منتصف النهار وصلنا إلى هناك. في الوقت الذي دخل فيه الامبراطور إلى المسجد، الذي يوجد على الجانب الأيسر عند الخروج من القصر. وقد أخذنا المكلف بتقديمنا إلى إحدى الساحات التي توجد أمام القصر. وقد أوقفنا في وسط تلك الساحة التي كانت محاطة بالفرق العسكرية. ثم خرج السلطان من المسجد في الواحدة والنصف، كان موضعي على الجانب الأيمن للقنصل ومعي محفظة الرسالة، وسكرتيره على جانبه الأيسر ومعه محفظة المفاتيح. بعد ذلك رأينا الامبراطور يخرج مع رجال دولته، على الشكل التالي : قدم أولا كل الأمراء، الذين انتظموا في صفين، وخرجوا من جهتي باب القصر. بعد ذلك تبعهم الخدم والحراس، ثم الامبراطور ممتطيا صهوة حصان جميل وعلى مقربة منا توقف الحصان على بعد نحو ثلاث خطوات. ووصل بعده مباشرة الوزير ابن عثمان، وتكلم معه، فأمره السلطان أن يقول لنا، بأنه يكن لسمو الأمير، وكل الشعب البرتغالي تقديرا كبيرا.، وأن دولة البرتغال ظلت دائما محل صداقته الأكيدة، وهو لذلك يقدرها أكثر من أي دولة أخرى. وقد أجاب القنصل على ذلك مقدما له الشكر باسم سمو الأمير وكل الشعب البرتغالي. وبعد أن قام الوزير المذكور بعرض جواب القنصل عليه، أمره أن يعبر للقنصل عن متمنياته الصادقة ، وإرادته الحسنة في تلبية ما يرغب فيه سمو الأمير. وقد عاد القنصل للجواب على ذلك مقدما له من جديد تشكراته وطالبا منه أن يخصه بمقابلة خاصة يعرض عليه فيها كل مطالب حكومتنا، ولم يبق إلا تسليم الرسالة ومفاتيح الهدية، الشيء الذي تم فعلا، وعاد العاهل إلى داخل القصر، ونحن إلى محل إقامتنا. وبعد الظهر ذهبنا لتقديم هديتنا إلى الأمير مولاي عبد السلام الذي استقبلنا بمظاهر الفرح والشكر، معبرا عن استعداده لتقديم كل ما يخدم أو يرضي سمو الأمير والدولة البرتغالية.

السبت 4 مارس : انشغلنا كل اليوم في إعطاء الهدايا، وتوزيع

النقود، حسب المعتاد من طرف خدم الامبراطور.

الأحد 5 مارس : واصلنا نفس العمل الذي بدأناه في اليوم السابق، وبعثنا بهدية للوزير ابن عثمان. وكانت كما يلي : صندوق به ألف قطعة نقدية، قطع من ثوب الحرير، وثوب من النوع الانجليزي، وقطع من الموسلين، وثوب هولاندي، والقهوة، وصندوق من الشاي، وآخر به قوالب السكر والشوكولاطة.

الاثنين 6 مارس : على الساعة الثانية ظهرا انتقلنا إلى حديقة [رياض][1] الحاج عبد الكريم بن يحيى، حيث كان يوجد أيضا الوزير الأول بن عثمان، لكي نتفاوض فيها معه، ونعرض عليه كل مطالب حكومتنا، بناء على أوامر الامبراطور، وفي هذا اللقاء استعرض القنصل كل المطالب حسب توجيهات دولتنا، ملحا أساسا على نقص الحبوب في المملكة، وهو السبب الذي أرغم سمو الأمير على أن يطلب من الامبراطور أن يمنحه مرسى خاصا بالدولة البرتغالية، وحرية التجارة بكل المراسي الأخرى، بما فيها مرسى أسفي والجديدة. وقد رد الوزير المذكور على كل هذا بأنه يرى أن من الأحسن تسليمه مطالبنا مكتوبة، لكي يقدمها للامبراطور، لأنه بهذه الطريقة يضمن ألا ينسى أي شيء ؛ ويرى أيضا أنه ليس من المناسب أن تتضمن المطلب المتعلق بالخيول، لأن السلطان لن يقبل ذلك، لأنه محرم في شريعته، ولأن الخيول ضرورية جدا لجيشه. وبعد انتهاء هذه المفاوضات خرجنا، وكتبت في الحال بالعربية كل المطالب على الشكل التالي :

ظرف جميع الأغراض التي يطلب قونصو البرطقيز بأمر البرينسبي مولاه من فضل سيدنا أيده الله :

أولا أن تكون رعية البرطقيز مقبولة مكرومة محفوظة في جميع بلاد سيدنا فلأجله يطلب من فضل سيدنا أن يبعث أمره الكريم لجميع خدامه في مراسيه السعيدة على ذلك ليفرحوا بها ويعاذبوا من يقارب لها بسوء أو مظلم.

ثانيا أن يخص سيدنا رعيتنا بمرسى العرايش لتوسق منها الزرع وغير ذلك والوسق أيضا من غيرها كالأجناس الأخرى.

ثالثا أن يسرح سيدنا لجنسنا الوسق من مرستين آسفي وطيط. وذلك كما سرح سيدنا الوسق منها لجنس الاصبنيول.

رابعا أن يبعث سيدنا أمره الكريم لجميع خدامه بمراسيه السعيدة ليعطوا لقراسيننا الفريشك[13] وجميع ما تحتاج إليها من ثيران وغنم وقطونية وبجماط ولحم مملح وغير ذلك بلا لازم ولا صاكة [14] وذلك كما كان في حياة سيدنا الكبير إلى الآن.

خامسا وسق البغال وصاكتها ثمانية ريال عن كل البغال[15] ووسق أيضا البقار وصاكتها ثلاثة ريا ل عن كل الراس واللازم لحاكم البلاد وهو وقيتان ونصف وقية عن كل الثور.

سادسا أن يبعث سيدنا أمره ليدفع لي الكاغيد الذي أعطى قونصو دينمارك مكتوب بخط يده لسيدنا ومولانا الطيب شاهدا فيه من أن المركب الذي قبض فيه الرايس ابن مبارك الأحد عشر ألف ريال خمسةماية ريال كان يسافر لآسفي وذلك كما ذكر لي حاكم الرباط في كتابه وكذا يقطع الكلام في ذلك[16].

الأربعاء *8* مارس : في الواحدة ظهرا قدم القائد المكلف بإسطبل الامبراطور القايد بوجمعة، مرفوقا بأربعة من الخدم، يقودون حصانا وهبه الامبراطور هدية للقنصل، وبغلة هدية لي.

في الثانية قدم أحد خدام الوزير ابن عثمان، ومعه أمر بالتحادث معنا، وهو ما نفذناه بسرعة، وبعد تبادلنا للتحية، بلغنا جواب عاهله على كل مطالب دولتنا، على الوجه التالي : فيما يتعلق بالنقطة الأولى والرابعة والسادسة، فقد وافق عليها جلالته بالشكل المقترح من القنصل، ومن أجل ذلك سيرسل حالا أوامره إلى كل حكام مراسيه، أما فيما يخص النقطة الثانية فقد وافق جلالته أيضا عليها بالشكل المقترح من القنصل ؛ على أساس التزام البرتغاليين بعدم الذهاب للتجارة في مراسي أسفي والجديدة، كما في المطلب الثالث، وأن جلالته ينبه القنصل إلى أن أي محاولة للاتجار سرا مع هذه المراسي، وبدون رضاه، يمكن أن تحرمهم من تخصيص مرسى العرائش لهم. ألح القنصل على هذه النقطة موضحا حاجة البرتغال إلى الحبوب، وأظهر له عددا من الأسباب التي تدفع البرتغال إلى الاتجار بهذه المراسي، وأن الحاجة وليس أي سبب آخر هي التي أرغمت البرتغال على طلب هذا الامتياز، وهذا بعد أن رأت تخويل هذا الامتياز للاسبانيين. وقد رد الوزير المذكور على هذا بأن الامبراطور يعرف جيدا مدى

الضرر الذي تحدثه كل التجارة التي تتم مع هذه المنطقة الثائرة، لأنها تدعم موقفها، وأنه سبق له أن سمح للإسبان بالاتجار معها، وأنه سيوقف هذا الامتياز للقضاء على عنادها. وبمجرد ما ينتهي الإسبان من وسق الحبوب التي لهم بالدار البيضاء، سيكلمهم بوضوح، ولا يهمه أي موقف يتخذونه. أما فيما يخص الصاكة، فإن جلالته أعطى أمرا بأن تدفع الدولة البرتغالية نفس الحقوق التي تدفعها الدولة الأكثر تفضيلا. وبما أن القنصل يعرف أن الامبراطور لا يسمح بإعفاء المواشي من الصاكة فقد طلب أن يتم على الأقل تخفيضها، وهو ما لم يحصل عليه بالشكل المطلوب، ولكن حصل فقط على حق أداء الحقوق التي تدفعها الدولة الأكثر تفضيلا.

في نفس الوقت طلب الوزير المذكور من القنصل باسم جلالته، أن يأخذ ست عشرة صرة من الذهب على شكل تبر، وأن يسلمها للأمير سيدنا لكي يسلم له مقابلها قيمتها من البارود ! وقد رد القنصل على ذلك بأنه لا يمكنه التحدث إلى سمو أميره حول موضوع كهذا في الظروف الحالية، لأنه يعرف بأن كل البارود الذي تنتجه المصانع ضروري لحاجيات الجيش والأسطول. لكن حينما رأى إلحاحه، مذكرا بما يمكن أن يحدثه جواب مثل هذا من غضب للسلطان، تعهد بالبحث من جهة ثانية - في حالة استحالة تلبية الطلب - عند بعض الوكلاء المتعاملين معه. في الليل وصل أمر من الوزير المذكوربأن نستعد في اليوم التالي لمقابلة جلالته وتوديعه.

الجمعة *10* مارس : في منتصف النهار وصلنا إلى فاس الجديد، وقد ظللنا لمدة ساعة بإزاء القصر في انتظار الملك، ووصل خادم ومعه أمر من جلالته بأن نتوجه إلى الحديقة المسماة بوجلود، التي توجد بين فاس الجديد وفاس البالي حيث يوجد جلالته في انتظارنا، وقد نفذنا الأمر. وعلى باب نفس الحديقة التقينا الوزير المذكور ومعه أعيان آخرون رافقونا حتى النهر الذي يجري في وسط الحديقة، وفوق هذا البناء دار صغيرة دخلنا إليها، وتم تقديمنا من طرف الوزير المذكور إلى السلطان، الذي كان جالسا بها. هذا العاهل استقبلنا بمظاهر الترحيب والفرح المعتادة، ودعانا إلى قرب مجلسه، وأكد لنا أنه على يقين من الإخلاص والصداقة التي كانت دائما مع سمو الأمير والشعب البرتغالي وهو الشيء الذي يدفعه إلى تقديرنا أكثر من أي كان، وأن رضاه الأكبر هو القدرة على تلبية كل ما يطلبه سمو الأمير. وقد رد القنصل على

ذلك بمظاهر الشكر، مهديا له في نفس المناسبة الخاتم الذي كان ضمن الهدية، وأخيرا عندما تأهب القنصل للاستئذان من جلالته، طلب منه أن يكتب إلى دولتنا بأن تبعث إليه بستانيا جيدا. في هذه المناسبة تكلم الوزير ابن عثمان بشكل غريب بالنسبة لنا، لأنه أطنب كثيرا في مدح الدولة الإسبانية، واحتج في حضورنا على سلطانه، لأن الدولة البرتغالية هي الوحيدة التي تحظى حقيقة بثنائه، ويقدرها أكثر.

الاثنين *13* **مارس :** في الظهر ذهبنا للاستئذان من الوزير ابن عثمان. عاد القنصل للكلام معه عن ميناء العرائش وعن الاتجار مع مراسي أسفي والجديدة، مركزا على نفس الأسباب التي تعطي لهذه المطالب أهميتها الكبرى بالنسبة للبرتغال. وقد أجاب الوزير المذكور على ذلك بأنه عرض كل ذلك من جديد على جلالته ؛ وأنه أجابه بنفس ما قاله لنا من قبل. بعد ذلك ذهبنا للاستئذان من الأمير مولاي عبد السلام، الذي وعدنا بأن يعطينا جواب الرسالة التي كتبها له سمو الأمير.

الثلاثاء *14* **مارس :** أرسل مولاي عبد السلام كاتبه بجوابه إلى سمو الأمير.

الأربعاء *15* **مارس :** في الساعة الثامنة صباحا تسلمنا جواب جلالته على رسالة سمو الأمير سيدنا ؛ ومعها أمر إلى الأمير مولاي الطيب، وإلى حكام كل الموانئ حول ما يكون عليه تعاملهم مع البرتغاليين. وفيما يلي نسخة من الرسالة التي كتبها لأخيه مولاي الطيب :

الحمد لله وحده

أخونا الأعز الأرضى مولاي الطيب رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد أنفذنا أمرنا المطاع بالله لمراسينا بأن يستوصوا خيرا بجنس البرطقيز ويراعوهم ولا يتركوا أحدا يوذيهم أو يظلموهم ومن تعدى على أحد منهم يعاقب كما أمرناهم بأن يسرحوا لقراسينهم كل ما يحتاجون إليه من بقر وغنم ولحم مملح وخبز وبجماط وخضر وساير أنواع الفريشك من غير لازم ولا صاكة كما كان لهم ذلك في حياة الوالد رحمه الله وكذلك صاكة البقر والبغال وغيرها من الموسوقات لا يلزم هذا الجنس فيها إلا ما يلزم غيره ولا يزاد عليه شيء ولا يفضل عليه غيره

والله تعالى يحرسك والسلام. في منتصف شهر رمضان من عام 1211 [موافق 14 مارس 1797].

* نسخة من الرسالة الموجهة إلى حاكم طنجة، والتي أرسلت نسخ مماثلة لها إلى كل حكام المراسي الأخرى :

الحمد لله وحده

خديمنا القايد محمد السلاوي سلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد

فنامرك أن تستوصي خيرا بجنس البرطقيز وكل من يرد عليكم منهم فعاملوهم بأحسن المعاملات ولاحظوهم بالإحسان ولا تترك من يقربهم بسوء أو يطوف بساحتهم بمكروه ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فأدبه وعاقبه بما يستحقه وكذلك قراسينهم يحملون كل ما يتوقفون عليه من بقر وغنم وخبز وبجماط وساير أنواع الفريشك من غير صاكة ولا لازم على ذلك كما كان لهم ذلك قديما حيات سيدنا رحمه الله والسلام، في حادي عشر رمضان عام 1211.

بمجرد تسلمنا لرسائل جلالته تأهبنا للرحيل، وفعلا خرجنا من تلك المدينة على الساعة الثانية ظهرا، من الباب المسمى بني مسافر. ولحظات بعذ ذلك بدأت الأمطار في التساقط، وفي الساعة السادسة مساء خيمنا في أحد المرتفعات بإزاء الجبل المسمى كَبْكَبْ، بدون أن تتوقف الأمطار التي استمرت في التهاطل طيلة تلك الليلة.

الخميس 16 مارس : على الساعة السادسة صباحا تابعنا رحلتنا في جو ممطر، وفي الواحدة والنصف ظهرا وصلنا إلى نهر سبو. وحاولنا عبوره لكن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الأحمال الثقيلة، التي كانت تصحبنا، وبما أنه قيل لنا أن القارب، الموجود في أعلى النهر، مصاب بأعطاب، قررنا المبيت هناك، وإرجاء العبور إلى اليوم الموالي.

الجمعة 17 مارس : ارتفع مستوى الماء على حافة النهر، وعندما رأينا أننا لا نستطيع العبور خلال هذا اليوم كله، أرسلنا أحد الجنود لينظر الحالة التي يوجد عليها القارب، وحمل إلينا خبرا مفاده أن القارب محفوظ في مكانه، فقررنا الذهاب إليه في اليوم الموالي للعبور بواسطته، في حالة ما إذا

تعذر علينا عبوره من هذا المكان إلى غاية الغد.

بعد الظهر وصل أحد خدام السلطان ومعه حمولة من التمر هدية للقنصل. السبب الذي من أجله تبعنا ذلك الخادم، هو أن السلطان اعتقد أننا لازلنا لم نغادر المدينة، وحين أحيط علما بخروجنا، أمره بأن يلحق بنا بالهدية.

السبت *18* **مارس** : عندما رأينا أنه لا يمكننا عبور النهر من تلك الجهة، ذهبنا إلى المكان الذي قيل لنا أن القارب يوجد فيه، وفعلا وصلنا إلى هناك على الساعة الحادية عشرة صباحا، وبدأنا فورا في العبور، وبما أن القارب كان صغيرا، فإن عملية العبور لم تنته إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر. وتابعنا مباشرة رحلتنا، ووصلنا في الخامسة عشية إلى المكان المسمى عين جعبة، في قبيلة أولاد عيسى، حيث بتنا.

الأحد *19* **مارس** : تابعنا رحلتنا في جو جميل على الساعة السادسة صباحا، وفي العاشرة وصلنا إلى ورغة، وبدأنا حالا في العبور على متن زورق ضعيف، مدعم بقضبان حديدية، وأكملنا العبور في الساعة الثانية ظهرا، وتابعنا رحلتنا، وخيمنا على الساعة الخامسة عشية بجانب نهر واد حمد الله، بقبيلة بني مالك.

الاثنين *20* **مارس** : تساقطت الأمطار خلال الليلة الماضية كلها واستمرت في التهاطل طوال اليوم بدون انقطاع، لدرجة أن أي مجرى مائي صغير تحول إلى نهر كبير، والبغال كانت تسقط في كل وقت. وفي الأخير، وصلنا إلى درجة لم يعد البلل فيها مقتصرا على ملابسنا التي على ظهورنا، ولكنه تسرب إلى الصناديق أيضا. وقد كان هذا حالنا حين وصلنا في الرابعة عشية إلى مكان السوق المسمى سوق الأحد، حيث خيمنا. وأمضينا به ليلة حالكة، تتخللها الأمطار والرياح، لدرجة أن الماء بلل بعض الأثواب التي كانت في رحلنا.

الثلاثاء *21* **مارس** : بما أنه كانت لدينا عدة أنهار يمكن العبور منها، وتيقنا من أنها غير صالحة للعبور، قررنا الذهاب، إلى نقطة عميقة من نهر واد الطين[1]، يستلزم الذهاب إليها القيام بدورة، ووصلنا إليها في العاشرة صباحا، ومنها أخذنا نبحث عن معبر ممكن من النهر. وفي الرابعة عشية وصلنا إلى نهر صغير، لكنه مع ذلك كان مليئا، بالقرب من السوق المسمى أربعا عيسى بن

حسن، حيث خيمنا بقربه لتعذر العبور منه.

الأربعاء 22 **مارس** : خرجنا من هنا في الساعة السادسة والنصف صباحا، وفي الثانية والنصف ظهرا، وصلنا إلى نهر القصر. وانتهينا من عبوره في الخامسة عشية، وتوجهنا وسط الحدائق الجميلة التي تحيط بهذه المدينة. ودخلنا بعد ذلك إلى المدينة، التي كانت في الحقيقة جد متسخة، بحيث إن الأوحال في أزقتها كانت تصل إلى بطون البغال، وقد خيمنا في الجهة الثانية من المدينة، في المكان المسمى النزهة.

الخميس 23 **مارس** : في الصباح بدأت بكتابة رسالة إلى الأمير مولاي الطيب، ومعها بعثت إليه أمر جلالته حول الدولة البرتغالية. وفي منتصف النهار تابعنا رحلتنا، وفي الخامسة عشية وصلنا إلى نهر واد مخازن، الذي يطلق اسمه على المعركة التي مات فيها الملك الدون سبستيان.

الجمعة 24 **مارس** : ركبنا في جو جميل في الخامسة صباحا، وخرجنا مرفوقين فقط بجندي واحد، وهدفنا الوصول في نفس اليوم إلى طنجة، وهو ما تم فعلا، لكن بالكثير من العناء والتعب، لأننا واصلنا السفر بدون توقف إلى الساعة السابعة مساء.

السبت 25 **مارس** : وصل أخيرا الوفد المرافق لنا إلى طنجة على الساعة السادسة مساء.

الثلاثاء 28 **مارس** : وصل جواب الأمير مولاي الطيب على الرسالة التي كتبتها له من القصر، ومعها جوابه على رسالة سمو الأمير سيدنا، وقد أجبنا عنها فورا طالبين منه أن يسلمنا الشهادة التي سلمها له قنصل الدانمارك، حول السفينة التي كانت متجهة إلى آسفي، وبها أحد عشر ألفا وخمسمائة [دورو].

الأربعاء 12 **أبريل** : بعد الظهر أبحرت على متن السفينة الملكية (Oserbe) ، ووصلت سالما إلى لشبونة يوم 21 من نفس الشهر.

هوامش المقدمة

(1) Fr. Joze de Santo Antonio Moura

(2) هو راهب فرانسيسكاني برتغالي، عاش ما بين 1770 ، 1840 . سبقت له زيارة المغرب قبل هذه السفارة، وشغل عدة وظائف، فقد كان وزيرا، وموظفا بالخارجية البرتغالية، ومترجما رسميا، وأستاذا للغة العربية، وعضوا بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونة. وترجم عدة كتب من العربية إلى البرتغالية، من بينها : تاريخ الملوك المسلمين للدول الأربع الأولى وقسم من الدولة الخامسة، الذين حكموا بموريطانيا، الذي ألفه أبو محمد السابع، الغرناطي الأصل ونشر سنة 1828 . كما ترجم رحلة ابن بطوطة، وصدرت في جزئين، الأول سنة 1840 ، والثاني بعد وفاته سنة 1855 . ولازالت العديد من أعماله مخطوطة بأكاديمية العلوم بلشبونة. توجد ترجمته في: Grande Enciclopedia Portuguesa e Braseleira (XVI) p. 19

(3) جورج بدرو كولاصو : خلف أباه في منصب القنصلية سنة 1783 ، ثم عين قنصلا عاما مباشرة بعد هذه السفارة، وظل في منصبه إلى سنة 1816 .

(4) سبق للبرتغال أن أرسلت سفارات إلى المغرب ومعها هدايا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سنوات 73 ، 74 ، 77 ، 1780 ، وإلى مولاي اليزيد سنة 1790 .

(5) نجد تفاصيل هذه الهدية عند الفشتالي في مناهل الصفا ، صفحة 50 ، وعند اليفراني في نزهة الحادي صفحة 82 .

(6) تقرير خاص إلى وزارة الخارجية البرتغالية، موجود في ملف مستقل، مكتبة طوري دي طومبو، تحت رقم : MNE. CX : 301

(7) إذا نظرنا إلى الحجم مثلا، نجد أن عدد الصناديق في هذه الهدية وصل إلى 55 صندوقا. وبالمقارنة مع الهدايا السابقة، التي يتحدث عنها التقرير في الهامش أعلاه، نجد أن عدد صناديق الهدية المقدمة إلى مولاي اليزيد سنة 1790 بلغ 48 صندوقا. أما في عهد سيدي محمد بن عبد الله قبله، فإن عدد الصناديق في السفارات الأربع المذكورة في الهامش 4 ، تتراوح بين 10 و 19 صندوقا.

(8) وسق البرتغاليون سنة 1797 ، 500 فانيغا من القمح من مرسى العرائش وحده، وكذلك البغال واللحم المملح، حيث بلغ ما ذبح في سنة واحدة 400 بقرة. أما البرتغال فقد بعثت أزيد من 93 قنطارا من البارود إلى المغرب. انظر مراسلات القنصل البرتغالي بطنجة طوري دي طومبو، رقم MNE . CX 299

(9) التقرير المذكور في الهامش رقم 6 .

(10) يظهر أنهم جاؤوا بناء على طلب من السلطان المغربي، الذي طلب أيضا من القنصل استقدام بستاني من البرتغال لخدمته. ورغم أن التقرير يتحدث عن سفارة 1798 ، فإننا نرجع أن تركيبته لا تختلف كثيرا عن تركيبة الوفد الذي قدم سنة 1797 .

(11) عن الراهب دي كونتريراس أنظر :
Robert Ricard, Les deux voyages du P. Contreras ..., Hesperis, 1934, pp. 39 - 44.
وانظر أيضا: Le Tourneau (R), Notes sur les lettres latines ..., Hesperis, 1934,: pp. 45 - 63.

(12) راهب برتغالي بعثته دولته للتعمق في دراسة اللغة العربية، ومكث بطنجة مدة طويلة وعاصر حادثة الهجوم الفرنسي على طنجة سنة 1844.

هوامش النص

(1) الملكة البرتغالية المقصودة هي ماريا الأولى، ولدت سنة 1734، وتولت سنة 1777، بعد وفاة الدون جوزي، وتوفيت سنة 1816.

(2) يستعمل صاحب اليوميات كلمة الامبراطور التي ارتأينا تعريبها بلفظ السلطان.

(3) تعريب لكلمة Fregate

(4) Luis da Mota Feo

(5) Fr, Manoel da Silva Rebelo

(6) توجد المراسلات بنصها العربي، ثم مترجمة إلى اللغة البرتغالية، وبخط يد المترجم.

(7) تعريب لكلمة Corte وتعني الحكومة أو البلاط.

(8) البرينسيبي : الأمير، والمقصود هنا هو الأمير دون جواو الذي أمسك بزمام الحكم سنة 1792، وخلع الدونا ماريا الأولى سنة 1799.

(9) الفرايلي : الراهب.

(10) يقصد ربع ساعة.

(11) José Anselmo de Macedo

(12) قد يكون حد كورت.

(13) القراسين : السفن الحربية. والفريشك : ما يقدم كمؤونة للسفن.

(14) القطونية : القطاني والخضر، والبجماط : البيسكوت، والصاكة : ما يدفع من رسوم على الصادرات.

(15) يقصد عن كل بغل.

(16) أي ينهي الموضوع تماما.

هولندا والمعاهدة البريطانية المغربية لسنة 1856

محمد أمزيان

تمهيد

نجحت بريطانيا العظمى في جر المغرب إلى عقد معاهدة «الصداقة والتجارة» (*9 ديسمبر 1856*)، بعد مفاوضات عسيرة دامت خمس سنوات، عرفت أطوارها فصولا من المحاباة والترغيب والترهيب. وجند السير جون دراموند هاي (Sir John Drummond Hay) [1] خبرته الدبلوماسية ونفوذه السياسي من أجل التأثير في مسار المفاوضات، والوصول إلى نتائج تحقق على المدى القريب طموحات التجار الإنجليز، وعلى المدى البعيد أهداف الاستراتيجية البريطانية وطيلة سير المفاوضات التي انطلقت من طنجة مع النائب السلطاني محمد الخطيب[2] ودارت بعض أشواطها الإضافية في مراكش مباشرة مع السلطان مولاي عبد الرحمن (*1822 ـ 1859*)، لم تغب عن ذهن دراموند هاي صعوبة اجتياز العقبات التي تثيرها تحفظات السلطان بتأثير من بعض وزرائه. وفي ذات الوقت لم يكن ينظر بعين الرضى إلى توسع نطاق التبادل التجاري بين المغرب وفرنسا عن طريق الجزائر.

كانت الإجراءات المخزنية في ميدان التعامل التجاري مع باقي الأمم، تعتبر في نظر التجار الأوروبيين مستفزة ومقيدة لانسيابية التصدير والاستيراد. وكثيرا ما احتجوا على لسان قناصلة دولهم لدى السلطان. كانت الاحتجاجات تثمر في بعض الأحيان؛ فيأمر السلطان بـ «وسق» أصناف من المنتوج الفلاحي لمدد محدودة من الموانئ المغربية الأطلسية، سرعان ما تعود الأمور إلى سابق عهدها. ولم يكن هناك بديل عن مواصلة الضغط لوضع صيغة أخرى للتعامل التجاري مع المغرب.

في هذا الإطار التقريبي يمكن حصر ظروف عقد المعاهدة البريطانية المغربية. وقد سبق للدكتور جون لوي مييج (Jean Louis MIEGE) أن درس بتفصيل حيثياتها وملابساتها، واستعرض بنودها ورصد ردود فعل فرنسا

وإسبانيا تجاهها[3]، وكذا أهدافها وانعكاساتها على الحياة السياسية المغربية[4]. وقدم خالد بن الصغير حول نفس الموضوع دراسة جادة أراد لها أن تتباين عن مييج في التحليل وتتقارب معه في النتائج[5]. كما أشار إليها المؤرخ الهولندي فسلين (H. Wesseling) ضمن كتاب له عن التوسع الاستعماري، ويرى أن المعاهدة منحت للإنجليز إيجابيات جمة. فقد كرست تفوقهم التجاري من جهة، ومن جهة أخرى خرقت بشكل فادح سيادة المغرب بإقرارها لبعض حقوق الحماية[6]. أما الناصري فيتناول المعاهدة في هذه الفقرة : «وفي هذه السنة [1273هـ] انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهي قسمان : قسم في أمور التجارة، وبيان الصاكة والأعشار، وأن لا تعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر عن طيب نفسه وهي خمسة عشر شرطا. وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعيتي الجانبين في أي موضع كانوا، وهي ثمانية وثلاثون شرطا، وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله محمد الخطيب التطواني بطنجة»[7].

يقدم مييج دراموند هاي كمدافع عن استقلال المغرب[8]، في حين يشكك خالد بن الصغير في نية هذا الدبلوماسي الإنجليزي. أما مصطفى بوشعراء فيرى أن هاي «كانت له عواطف طيبة نحو المغرب وصداقة متينة مع سلاطينه»[9]. ومهما اختلفت الآراء حول هذا الرجل، فإن نفوذه السياسي داخل المغرب، وصداقاته الشخصية مع تجار المغرب النافذين ووجهائه وكذا مع أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي بطنجة، جعلت منه شخصية قوية طبعت بأسلوبها وجه الدبلوماسية في المغرب طيلة نصف قرن تقريبا.

دراموند هاي قنصلا عاما للمملكة الهولندية.

قبل تقاعده نصح فرسنيه (A.J.A. FRAISSINET)[10] الحكومة الهولندية بالاستعانة بخبرة دراموند هاي لرعاية المصالح الهولندية في المغرب. وعلل فرسنيه اختياره قائلا : «وإذا اقترحت السيد جون هاي (...) فليقيني بأنه سيقوم بمهمته بكل ما أوتي من حماسة (...) وليقيني كذلك بأن لا أحد غيره يستطيع القيام بهذا العمل بطريقة مرضية. إن السيد هاي يتمتع في هذا البلد بنفوذ عظيم[11]. تسعة شهور مضت قبل جواب الحكومة الهولندية بالإيجاب على توصية فرسنيه[12]، بصدور قرار الملك في 3 مايو 1855، تحت رقم 79 والقاضي بتعيين دراموند هاي قنصلا عاما لهولندة بطنجة[13].

صادف دخول دراموند هاي في خدمة المملكة الهولندية، شروعه في سلسلة المباحثات الثنائية مع محمد الخطيب. وكان من المنتظر أن يتلقى الدعم المعنوي المطلوب من طرف الحكومة الهولندية. وتحوي أرشيفات الدولة بلاهاي على مراسلات في هذا المعنى.

ومعلوم أن المخزن لم ير في الاستعجال ضرورة لإيجاد مخرج للمفاوضات العالقة مع الإنجليز. فتعسرت الأوضاع مع بداية سنة 1856؛ الأمر الذي دفع هاي لاستدعاء محمد الخطيب يوم 2 يناير 1856 ليبلغه احتجاجه «ضد السلطان وحكومته لعدم الوفاء بالتزاماته التي وعدني بها أثناء مهمتي الرسمية إلى البلاط»[14]. ولعل ضغوط دراموند هاي ولجوءه إلى أسلوب التهديد أزالا تردد السلطان ودفعاه إلى تفويض نائبه في طنجة لاستكمال المفاوضات؛ إذ منحه «كامل الصلاحيات للتفاوض معي حول المعاهدة العامة والاتفاقية التجارية»[15]. وحينما أوشكت جهوده أن تثمر أطلع الحكومة الهولندية على التطور الجديد. وبدا في غاية التفاؤل[16]، معربا عن اعتقاده بأن تطبيق بنود المعاهدة الجديدة من شأنه الإسهام ليس فقط في تنامي التبادل التجاري بين المغرب والأمم الأوروبية، بل سيؤدي إلى ازدهار المغرب ورفاهية سكانه. «إن تاريخ التبادل التجاري - يضيف هاي - هو بمثابة تاريخ الحضارة. وعليه يتوجب وضع الخطوات في الاتجاه الصحيح من أجل إعادة المغاربة إلى المكانة المرموقة التي كانوا يتمتعون بها في العصور القديمة ضمن دائرة العالم المتحضر»[17].

لا يفصح دراموند هاي عن الأسباب الحقيقية وراء سعادته. ويكتفي بإبراز الفوائد الجمة التي تنتظر المغرب والمغاربة بمجرد دخول بنود المعاهدة حيز التنفيذ! والواقع أن هذا الأسلوب مألوف ومتبع في ميدان العمل الدبلوماسي : التمويه والمناورة لإخفاء الهدف المقصود. ذلك أن دراموند هاي لو كان حقا منشغلا بما آلت إليه تجارة المغرب، وقلقا على الأوضاع المزرية المحيطة بالمغاربة لما التجأ إلى استعراض القوة داخل المياه الإقليمية المغربية. وفي هذا ما يدعم شكوك بعض الدارسين في حسن نيته تجاه المغرب.

المغرب وهولندة.

باستعراض مراسلات جون دراموند هاي مع وزارة الخارجية الهولندية، وردود هذه الأخيرة عنها، يظهر أنه حاول إقناع الحكومة الهولندية بضرورة عقد معاهدة مع المغرب مماثلة لمعاهدة 1856.

1 ـ الأرشيف الهولندي.

ليس في نيتي إعطاء صورة متكاملة عن محتويات الأرشيف الهولندي المتعلقة بالمغرب، فذلك يتطلب جردا منظما ووقتا كافيا. ولكن أريد فقط الإشارة إلى الوثائق المرتبطة بالمعاهدة البريطانية المغربية، واهتمام أو عدم اهتمام الهولنديين بها.

توجد هذه الوثائق مجتمعة في ملف واحد[18]. وهي عبارة عن مراسلات موقعة من طرف دراموند هاي بلغة إنجليزية يصعب فك خطوطها في بعض الأحيان. أما أجوبة الوزارة الهولندية فتتم باللغة الفرنسية مع خط يسهل التعامل معه بسرعة. أغلبية المراسلات ليست أصلية، والبعض منها مسودات. كما أنها ليست متكاملة. ومما لاشك فيه أن القسم المتكامل منها موجود تحت رقم آخر. والجانب الثاني من هذه المجموعة عبارة عن مراسلات بين وزارة الخارجية الهولندية ووزارة المستعمرات ووزارة المالية، وهي مكتوبة باللغة الهولندية. وتضم المجموعة كذلك نصا مطبوعا للمعاهدة البريطانية المغربية[19].

2 ـ قضية محاربة التهريب.

في إطار بنود المعاهدة البريطانية المغربية، عمد المخزن إلى القيام بإجراءات إدارية وقانونية تهدف إلى :

- تنمية وازدهار التبادل التجاري بين المغرب وباقي الدول.
- العمل على محاربة تجارة التهريب.

ولتوضيح هذه السياسة الجديدة. عمم محمد الخطيب تبليغا في الموضوع على ممثلي الدول الأجنبية في طنجة[20]. من هذه الإجراءات :

- صدور الأمر السلطاني بتخفيض الرسوم الجمركية على أنواع كثيرة من المواد المعدة للتصدير، «من أجل تشجيع وتنمية التجارة بين هذه الإيالة وسائر الأمم»[21].

- تحديد الرسوم التي ستدفعها البواخر الراسية في الموانئ المغربية، حسب حمولتها.

- والجانب الأهم الذي ركز عليه محمد الخطيب يتعلق بالتهريب. وقد خاطب هاي قائلا : «فأنتم تعلمون ولا ريب أن تجارة التهريب قد ازدهرت كثيرا في السنوات الأخيرة داخل مراسينا، وأن الذين يقومون بها أصبحوا لا يهابون؛ لأنهم لا يخشون عقابا غير مصادرة ما بحوزتهم»[22].

وفي أفق القضاء على هذه التجارة غير المشروعة والمضرة بـ«الخزينة الشريفة»، زود السلطان عماله وأمناء المراسي بتعليمات صارمة تجبر قباطنة السفن الراسية في الموانئ المغربية على تقديم بيانات وافية عن محتويات حمولتهم. وفي حالة اكتشاف مخالفة ما، فإن صاحبها «يعاقب حسب قوانينكم»، بعد مصادرة سلعته.

هذه الإجراءات الجديدة اعتبرتها معظم الدول الأوروبية منطقية، فزودت ممثليها في طنجة بإعطاء رد إيجابي لمحمد الخطيب[23]. وانتظر دراموند هاي جواب الحكومة الهولندية الذي لم يأت. فاتخذ المبادرة - دون وصول التعليمات الرسمية للكتابة لمحمد الخطيب قبل دخول الإجراءات الجديدة حيز التطبيق، من أجل تهدئة الخواطر. وأكد في جوابه أن «رعايا الدول الهولندية سيتمتعون بصورة تامة بكامل الامتيازات الممنوحة لرعايا بريطانيا العظمى والأمم الأخرى»[24]. وانتهت مدة التمديد الثاني (*40* يوما) دون وصول أية تعليمات، فوجد دراموند هاي نفسه في موقف حرج.

سبب تصرف دراموند هاي في بعض الالتباس من جهة المخزن. ففي بادئ الأمر اعتبر المخزن جواب دراموند هاي باسم الحكومة التي يمثلها كافيا، فاعتقد أن هولندة تخضع بصورة تلقائية لأحكام وبنود معاهدة *1856*. وكان الأمر السلطاني قد صدر بتعميم الامتيازات الممنوحة لرعايا الدول الأجنبية على الرعايا الهولنديين؛ لهم ما لهم من حقوق وامتيازات وعليهم ما عليهم من واجبات.

بيد أن السلطات المغربية فوجئت عندما لاحظت أن وكلاء القنصل الهولندي يرفضون الخضوع للقوانين الجديدة ويمانعون في تنفيذ الإجراءات المتخذة لمحاربة تجارة التهريب[25]. ومنح له الخطيب أربعين يوما إضافية حتى «يراجع الحكومة الهولندية»[26]، علما أن الحكومة التي «أنتم قنصلها هي الوحيدة المعارضة»[27]. وفي حالة امتناع الحكومة الهولندية عن الإجابة، فإن السلطان «سيقرر العمل بما يضمن حماية موارده»[28]. وفي رسالة جوابية أكد هاي للنائب السلطاني قيامه بواجب إبلاغ حكومته والسبب في تأخر وصول الجواب راجع في نظره، إما إلى «عدم انتظام البريد، أو أن الحكومة الهولندية لم تر الوقت مناسبا للبت في الموضوع»[29]. ولبيان حسن نية هولندة، أشار إلى أن الحكومة الهولندية «تبادل السلطان وحكومته نفس الشعور بالمودة»، وأنها «لن تعارض أبدا أي قانون اعتمده السلطان من أجل حماية موارده، والقضاء على

تجارة التهريب (...) إذا كانت هذه القوانين مطابقة لما يجري العمل به في البلدان الأخرى»[30]. ويبرر عدم خضوع الوكلاء الهولنديين للقوانين الجديدة بكونهم «لم يتلقوا مني أية تعليمات بهذا الشأن». وعلى العموم «فلن أنتظر انقضاء الأربعين يوما (...) وسأرسل التعليمات إلى الوكلاء الهولنديين في كل الموانئ (...) للعمل وفق القوانين الجديدة كما تعمل بها بريطانيا وباقي الأمم»[31].

لم تستعجل الحكومة الهولندية في الرد على مراسلات دراموند هاي. فقد كان لابد من إخضاعها لدراسة متأنية بين الوزارات المعنية[32] للنظر في إمكانية اتباع الخطوات البريطانية أو العمل فقط بمقتضيات المعاهدة البريطانية المغربية. ومما لاشك فيه أن عامل الربح والخسارة دخل جادا في الحساب؛ لاسيما أن مصالح هولندة التجارية في المغرب إبان هذه الحقبة كانت جد زهيدة[33] وبالتالي فلا داعي للاستعجال[34]. ولذلك تركت لدراموند هاي حرية التعامل المناسب مع الحكومة المغربية[35].

3 ـ المباحثات الهولندية المغربية.

يبدو أن دراموند هاي نجح في إخماد انزعاج المخزن الذي رحب بانضمام هولندة إلى مقررات المعاهدة البريطانية المغربية بخصوص التجارة ومحاربة التهريب. وقد صبت التطمينات التي وصلت من الخارجية الهولندية في يونيو في هذا الاتجاه؛ إذ أثنت على جهود هاي وعلى الطريقة التي عالج بها «الأزمة» المغربية الهولندية. إلا أن تأويل مضمون الخطابات المتبادلة بين هاي والخطيب ليس موحدا. فالمخزن اعتقد، بناءا على رسالة من هاي إلى الخطيب[36] أن هولندة تخضع الآن لأحكام الاتفاقية البريطانية المغربية، في حين أن الحكومة الهولندية لم تر في وعود هاي أي التزام أو تعهد[37].

إن الحكومة الهولندية وإن «أقرت سلوك» دراموند هاي في معالجة أسباب قلق المخزن، فإن هذا لم يعن «الانضمام بلا قيد ولا شرط» للتنازلات المقدمة من قبل بريطانيا العظمى[38]، وبخاصة قبول اجراءات عقاب المخالفين والمهربين المنصوص عليها في البند الثالث عشر. وعللت الحكومة الهولندية تحفظها بغياب أي تشريع يخول لوكلاء القنصل «سلطة سجن المتهمين بالتهريب، حسب ماهو مبين في البند 13 المذكور»[39]. وفي المقابل فإن هولندة

على استعداد لأن «تسهم بكل وسائلها»[40] في الجهود المبذولة من أجل محاربة تجارة التهريب.

وعلى العموم فإن الحكومة الهولندية استقبلت بارتياح كبير قرار المخزن بتخفيض رسوم الدخول والخروج المفروضة على بواخر المملكة الهولندية، وتقدر توجهاته «الليبرالية» التي سادت روح الاتفاقية المبرمة مع بريطانيا.

سوء الفهم هذا تطلب من دراموند هاي تقديم الاعتذار لما بدا «انحرافا عن المحتوى المحدد للتعليمات الموجهة إلي في رسالتكم بتاريخ 25 يونيو»[41]. وفي انتظار عودة محمد الخطيب من إجازته، بعث هاي بتعليمات جديدة إلى وكلائه تدعوهم إلى التريث والتزام الحذر و«عدم إلقاء القبض على أي أحد من رعايا هولندة يكون متهما بالتهريب»[42].

والواقع أن عدم تخويل وكلاء القنصل بمعاقبة رعايا دولتهم المخالفين وفق ما هو منصوص عليه في معاهدة 1856، يلقي المسؤولية مباشرة على السلطات المحلية لـ «إيقاف أو سجن الرعايا الهولنديين»[43]. وأبدى دراموند هاي تخوفه من «الحرج البالغ» الذي سيقع فيه في حالة هروب أحد الرعايا الهولنديين المتهمين، من العدالة المغربية دون عقاب؛ كنتيجة لغياب التشريعات أو التعليمات الخاصة لمعالجة مثل هذه الحالات.

شكل البند الثالث عشر من الاتفاقية البريطانية المغربية محورا رئيسيا في مراسلات دراموند هاي مع الخارجية الهولندية. ويدور مضمونه حول معاقبة المخالفين لبنود الاتفاقية التجارية بين البلدين. وقد قبلت بريطانيا هذا البند لأنه لا يشكل أي تهديد لرعاياها أو رعايا الدول المسيحية الأخرى ماداموا سيعاقبون وفق قوانين بلدانهم. وعلى عكس هولندة، لم تبد الأمم الأخرى تحفظات أو اعتراضات. ويظهر من المراسلات أن دراموند هاي انزعج بعض الشيء من سياسة هولندة المتحفظة. وفي المقابل تفهم إلحاح الحكومة المغربية على تسوية مسألة التهريب وملابساتها القانونية. ومن أجل إيجاد مخرج لـ«سوء التفاهم» القائم بين البلدين، واصل هاي سياسة تهدئة الخواطر. وقد نجح في الأخير[44]. وكان دراموند هاي قد خول[45] أن يسلم لمحمد الخطيب جواب الحكومة الهولندية محددا في هذه الصيغة :

«إن جلالة سلطان المغرب وفاس إذ اقترح على حكومة صاحب الجلالة ملك هولندة، مؤازرته في الإجراءات التي اتخذها جلالته من أجل محاربة

التهريب في الموانئ المغربية. وإن جلالة ملك هولندة إذ قبل هذا الاقتراح، فإن الموقع أسفله دراموند هاي، القائم بأعمال القنصلية العامة الهولندية، مخول بهذه المناسبة ليعلن أن الحكومة الهولندية أمرت وكلاءها القنصليين في المغرب للعمل من أجل تنفيذ الإجراءات المذكورة، بجميع الوسائل. على أن يعملوا مع ذلك في إطار مهامهم القنصلية»[46].

ولكي يتمكن القناصلة الهولنديون من معالجة الحالات التي قد تنجم عن مخالفات يرتكبها الرعايا الهولنديون «خارج العالم المسيحي»، أبلغت الخارجية الهولندية قنصلها العام في طنجة بأن هناك مشروع قانون «يتم إعداده حاليا» في الموضوع.

4 ـ الإعلان الهولندي المغربي المشترك.

إلى جانب المباحثات المتعلقة بمحاربة التهريب في الموانئ المغربية، تفاوض دراموند هاي باسم الحكومة الهولندية مع المخزن بخصوص إمكانية عقد اتفاقية تجارية بين المغرب وهولندة على غرار الاتفاقية البريطانية المغربية. وظهر في البداية أن هولندة فكرت فعلا في مثل هذا الاحتمال[47]. إلا أنه بعد دراسة الأمر، وبالنظر إلى قلة التبادل التجاري بينها وبين المغرب، فضلت هولندة الاكتفاء بإصدار بيان مشترك ينص على دوام العلاقات القائمة بينهما[48].

كان واقع التجارة الهولندية مع الموانئ المغربية، كافيا لإقناع دراموند هاي بعدم الإلحاح على الحكومة الهولندية. واستحسن فكرة الاكتفاء بإصدار بيان مشترك. وحتي يسهل المأمورية على هاي ألحق وزير الخارجية الهولندية رسالته المؤرخة في 18 ديسمبر 1857، بصيغة للبيان المشترك المزمع إعلانه بين المغرب وهولندة[49] حتى يعتمدها كأساس لأي اتفاق رسمي بين البلدين[50].

فوضت الحكومة الهولندية دراموند هاي للتوقيع على البيان المشترك. واعتبرت ذلك كافيا. غير أن هاي نبه إلى ضرورة مصادقة عاهلي البلدين على الوثيقة حتى يتم تبادلها رسميا ويكون منطوقها قابلا للتنفيذ. «في المغرب ـ يقول هاي ـ كل وثيقة وقعها الوزير أو السلطة المحلية الأخرى، تعد عديمة الجدوى في حالة استبدال الوزير أو السلطة المحلية، إلا إذا كان ختم السلطان على الوثيقة»[51]. واقترح هاي أن يحرر نص البيان باللغتين الفرنسية والعربية، على أن يشار إلى العاهل المغربي باسم «الملك» في النسخة الفرنسية وباسم «السلطان» في النص العربي.

إذا كان السلطان في المغرب يختم أية وثيقة كيفما كانت أهميتها، فإن الملك الهولندي يحيل الأمر على الوزير المسؤول، إلا إذا كانت الوثيقة من الأهمية بمكان. وفي الحالة القائمة بين المغرب وهولندة فإن «أهمية» البيان المشترك لا تستوجب في نظر الحكومة الهولندية وضع ختم الملك عليها. وفي المغرب لن يقبل السلطان وضع ختمه على الوثيقة إلا إذا كان ختم الملك عليها!

هذه الجزئية ـ مع أهميتها ـ لم تعرها الحكومة الهولندية كبير اهتمام؛ لأنها «بهذه المناسبة، تريد إرضاء رغبة الحكومة المغربية بقدر الإمكان»[52]، على أن يكون النصان موقعان أولا من طرف محمد الخطيب ودراموند هاي[53].

أفلح دراموند هاي أخيرا في تقريب وجهات النظر المغربية الهولندية. ففي 16 يوليوز 1858، بعث إليه وزير الخارجية الهولندية برسالة يهنئه فيها باسم الحكومة والملك على المجهودات القيمة التي بذلها لما يقارب السنتين، من أجل استمرارية العلاقات المغربية الهولندية. وأرفق الرسالة بالوثيقتين الأصليتين للاتفاق ممهورتين بختم الملك.

استنتاجات.

حصلت هولندة سنة 1858 من المغرب على نفس الحقوق والامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا. وجاء هذا بعد سلسلة من المفاوضات بين البلدين، قادها من الجانب الهولندي دراموند هاي ومن الجانب المغربي محمد الخطيب. هذه المفاوضات لم تعرف الحدة نفسها التي عرفتها مفاوضات بريطانيا العظمى مع المغرب. والسبب راجع بالدرجة الأساس إلى اختلاف حجم المصالح الاقتصادية والاستراتيجية لكلا البلدين. فبريطانيا كانت تسعى إلى تكريس تفوقها التجاري بين الموانئ المغربية على باقي الأمم الأوروبية، وبخاصة فرنسا التي شرعت في غزو المغرب تجاريا انطلاقا من حدوده الشرقية. في حين كانت هولندة بحسها التجاري قد وجهت اهتمامها إلى مناطق أخرى من العالم. فهي لم تكن تريد الدخول في منافسات عنيفة مع بريطانيا القوية بأسطولها التجاري والحربي، وبين فرنسا المتواجدة في المنطقة بحكم تحكمها في الجزائر.

لكن هذا لا يعني أن هولندة أدارت بظهرها نهائيا للمغرب. بل حرصت على ديمومة العلاقات التجارية ـ رغم ضحالتها ـ والدبلوماسية بينهما. وإذا كانت لم تسارع إلى العمل بمقتضى بنود المعاهدة البريطانية المغربية، فلأنها أرادت الابتعاد بسياستها عن سياسة بريطانيا القائمة على المصلحة والندية تجاه

فرنسا. ولم تر بالتالي ضرورة في إلزام رعاياها بما يلزم رعايا بريطانيا. وبحثت عن صيغة أخرى لتنظيم علاقاتها بالمغرب. ولعلها بهذا أرادت إرساء معالم سياستها الخاصة تجاه المغرب : سياسة لا تزن التطورات الجارية على الساحة المغربية بميزان المصالح. وبهذا التوجه تميزت هولندة بالحياد طيلة معظم فترات الصراع الدولي على المغرب.

بالنسبة للمغرب، وبعد أن فرضت عليه بريطانيا توقيع معاهدة 9 ديسمبر 1856، عمل جاهدا على إلزام رعايا جميع الأمم الأوروبية بأحكام المعاهدة؛ ذلك أنه لم يكن من الحكمة ترك الحبل على الغارب. فالمهربون والمتعاملون معهم كانوا يوجهون ضربات موجعة لموارد الخزينة. وكان انعدام القوانين المنظمة للتجارة يساعد هؤلاء على أنشطتهم غير المشروعة بلا خوف من مطاردة أو خشية من عقاب. ومن هنا نفهم قلق السلطان وإصراره على ضرورة إيجاد حل سريع للمشكلة.

هوامش

(1) خلف والده في منصب القنصل العام لبريطانيا في طنجة (1844 ـ 1886). عن حياته وشخصيته راجع مذكراته المنشورة : : A memoir of Sir John Drummund Hay . Sometime Minister : at the Court of Morocco. London, 1896 وكذلك أطروحة الدكتور J.L. Miège, le Maroc et l'Europe (1830 - 1894), Tome II, Eds. La Porte, Rabat, 1989 - pp 271 - 275. وأطروحة خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا في القرن التاسع عشر (1856 ـ 1886)، منشورات ولادة، الدار البيضاء، 1990، ص.ص. 52 ـ 56.

(2) نائب السلطان في دار النيابة الشريفة بطنجة (1851 ـ 1864). راجع نبذة من حياته في : مصطفى بو شعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب 1280 ـ 1311 (1863 ـ 1864). ج. 1، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ص.ص. 391 ـ 392.

(3) ساندت جميع الدول الممثلة في طنجة جهود دراموند هاي في مفاوضاته مع المخزن. ولو أن فرنسا احتفظت بحقها في إمكانية إجراء مباحثات ثنائية مع المغرب.

(4) J.L. Miège, op.cit, pp. 261-347.

(5) خالد بن الصغير، المرجع السابق، ص.ص. 59 ـ 114.

(6) H.L. Wessling, Indïe veloren, Rampspeod geboren, Eds. Bert Bakker, Amsterdam, 1988, p. 227.

(7) أحمد الناصري، كتاب الاستقصا، الدولة العلوية، القسم الثالث، ج. 9، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص.ص. 70 ـ 71.

(8) J.L. Miège, op.cit, p. 274

(9) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، ج.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص. 513.

(10) شغل منصب قنصل عام هولندة ابتداءا من 1827، تقاعد عن العمل الديبلوماسي سنة 1855.

(11) رسالة من فرسنيه (القنصل العام) إلى وزير خارجية هولندة فان هال (Van Hall) بتاريخ 15 سبتمبر 1854 في Algemeen Rijksarchief (ARA), N. d'accès 2.05.01, Affaires Etrangères, 1813-1870, N0 3053.

(12) رسالة من فان هال إلى دراموند هاي بتاريخ 18 مايو 1855، يبلغه فيها بقرار حكومة بلاده، مع بيان المبلغ السنوي (1500 خلدة) المخصص لتصريف الأمور اليومية، ابتداءا من فاتح يناير 1855.

(13) استمر هاي في خدمة هولندة حتى 1886. كان يشغل في الوقت ذاته منصب القنصل العام للدنمارك (ابتداءا من 1849) والقائم بأعمال النمسا والمجر (ابتداءا من 1855) قبل أن يصبح وزيرا مطلق الصلاحية لبلده الأصلي سنة 1872.

(14) رسالة من هاي إلى فان هال بتاريخ 6 يناير 1856، في ARA, N. 3151. كل الرسائل التي سأشير إليها لاحقا تضمها هذه المجموعة.

(15) رسالة من هاي إلى فان هال، بتاريخ 10 مارس 1856.

(16) «أنا سعيد بإبلاغ سيادتكم أن لدي كل أسباب الاعتقاد في إمكانية الوصول قريبا إلى نتيجة مرضية» من رسالة وجهها هاي إلى فان هال بتاريخ 28 أبريل 1856.

(17) رسالة من هاي إلى فان هال (28 أبريل 1856) مشار إليها.

(18) تحت عنوان: Algemeen Rijksarchief, 's-Gravenhage (La Haye), Tweede Afdeling, Ministerie Van Buitenlandse Zaken [Ministère des A.E], Nummertoegang [N. d'accès], 2.05.01, inv. nr; 3151.

(19) تحوي أرشيفات الدولة بلاهاي مجموعات وثائقية خاصة بالمغرب في غاية الأهمية. بيد أن جهود فرد واحد، مهما حاول، للتعرف عليها والاستفادة منها لن تفي بالغرض.

(20) لم أعثر على النص العربي. وأعتمد هنا على ترجمة إنجليزية أرفقها دراموند هاي برسالة له إلى وزير خارجية هولندة للاطلاع والرد.

(21) تبليغ من محمد الخطيب إلى قنصل عام هولندة، بتاريخ 9 مارس 1857.

(22) المصدر نفسه.

(23) رسالة من دراموند هاي إلى وزير خارجية هولندة، بتاريخ 6 يونيو 1857، في المصدر السابق.

(24) المصدر نفسه، رسالة مشار إليها (1857.6.6).

(25) «لقد كاتبني السلطان ليعبر عن عظيم دهشته حينما وصل إلى علمه أن وكلاء القنصل (الهولندي) عارضوا تنفيذ قوانين الحد من تجارة التهريب». من رسالة محمد الخطيب إلى هاي(ترجمة انجليزية)، بتاريخ 4 يونيو 1857.

(26) المصدر نفسه.

(27) المصدر نفسه.

(28) المصدر نفسه.

(29) رسالة من هاي إلى محمد الخطيب (ترجمة انجليزية)، بتاريخ 6 يونيو 1857.

(30) رسالة هاي إلى محمد الخطيب (6 يوينو 1857)، مشار إليها.

(31) المصدر نفسه.

(32) «رسالتك المؤرخة في 9 مارس والوثائق الملحقة بها يتم دراستها في وزارتي المالية والمستعمرات، وأتمنى أن أتمكن قريبا من إعطاء الجواب النهائي حول ما إذا كان من الأنسب لهولندة عقد اتفاقية تجارية مع المغرب». مسودة رسالة غير موقعة (من وزير الخارجية؟) إلى القنصلية العامة الهولندية في طنجة، بتاريخ 25 يونيو 1857.

(33) عرفت العلاقات التجارية بين هولندة والمغرب فترات مشرقة. وكانت المبادلات بين أمستردام مثلا وبين موغادور ومازاغان (الصويرة والجديدة) نشيطة. كان هذا قبل أن تبدي فرنسا وبريطانيا اهتمامهما الجدي بالمغرب.

(34) تجدر الإشارة إلى أن هولندة كانت أول دولة أوربية - بعد القرون الوسطى - تبرم مع المغرب معاهدة السلم والصداقة (1610). وكان الحافز إلى هذه المعاهدة هو وجود عدو مشترك للبلدين. فـ«جمهورية الأقاليم السبعة المتحدة» كانت في حرب تحررية ضد الهيمنة الإسبانية. وكان المغرب بدوره يواجه المطامع الإسبانية على ثغوره. راجع :
Henry de Castries Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Première série : Dynastie Saadienne, archives et bibl. des Pays-Bas, Tome I, Paris & La Haye, 1906, Introduction.

(35) «يسرني ، سيدي، إبلاغكم بالموافقة على الخط الذي انتهجتموه، وعلى الجواب الملائم الذي أعطيتموه للحكومة المغربية (...) وأرجو أن تبلغوا الحكومة المغربية أن جواب الحكومة الهولندية لم يتأخر إلا لأسباب طارئة، وأنها تود بصدق تطور العلاقات الخالصة القائمة لحسن الحظ بين البلدين». رسالة غير موقعة من الخارجية الهولندية إلى هاي (25 يونيو 1857)، مشار إليها.

(36) ورد مضمون الرسالة في رسالة أخرى من Frédéric Cartensen القائم بأعمال القنصلية الهولندية خلفا لهاي الذي قرر قضاء ستة أسابيع في بريطانيا، إلى Chevalier Gevers d'Engeest وزير خارجية هولندة، بتاريخ 25 يوليوز 1857؛ بحيث أكد هاي «انضمام الحكومة الهولندية وقبولها للقوانين المتخذة من طرف سلطان المغرب بهدف الحد

من أعمال التهريب داخل أراضيه». في المصدر السابق.

(37) «تعتقد الحكومة المغربية أن الحكومة الهولندية انضمت لأحكام الاتفاقية التجارية (...) بين بريطانيا العظمى والمغرب» مسودة رسالة (من وزير خارجية هولندة؟) إلى القنصلية العامة بطنجة بتاريخ 28 سبتمبر 1857.

(38) المصدر نفسه.

(39) المصدر نفسه.

(40) المصدر نفسه.

(41) رسالة من دراموند هاي إلى خيفرس دينخيست (Gevers d'Engeest) وزير خارجية هولندة، بتاريخ 14 أكتوبر 1857.

(42) المصدر نفسه. «وعلى العموم - يقول هاي - لا يزور موانئ المغرب أكثر من باخرة هولندية أو باخرتين في السنة. ولا أتذكر وقوع حادث استوجب تدخل وكيل القنصل لاتخاذ اللازم».

(43) المصدر نفسه.

(44) «إن الطريقة التي أنهيتم بها المفاوضات مع الحكومة المغربية، حو ل التجارة ومحاربة التهريب، حصلت على الثقة التامة من الملك ومن حكومته. وأشكركم جزيل الشكر على خدماتكم التي أسديتموها بهذه المناسبة». رسالة من وزير خارجية هولندة البارون فان كولشتاين (Baron J.C. Van Golstein) إلى دراموند هاي بتاريخ 16 يوليوز 1858.

(45) في حالة إلحاح المخزن عل ضرورة أن تلتزم الحكومة الهولندية كتابيا على قبول الإجراءات المتعلقة بمحاربة التهريب.

(46) رسالة من الخارجية الهولندية إلى دراموند هاي بتاريخ 18 ديسمبر 1857

(47) مسودة رسالة من الخارجية الهولندية إلى القنصلية العامة بطنجة، مشار إليها، بتاريخ 25 يونيو 1857.

(48) جاء في مسودة رسالة من الخارجية الهولندية إلى القنصلية العامة بطنجة، بتاريخ 28 سبتمبر 1857 (مشار إليها)، ما يلي : «وفي ما يتعلق بمسألة معرفة ما إذا كان مناسبا لهولندة عقد اتفاقيات مشابهة مع المغرب، يشرفني أن أبلغكم بأن الملك لا يرى أهميتها (...) وعليه يكون من الأفضل عدم صياغة عقود بمثل هذا الحجم، ولكن يتم الاقتصار على تبادل تصريحات تنص على أن رعايا البلدين يتمتعون بقانون الأمة ذات الأولوية، سواء ما تعلق بذواتهم أو بتجارتهم. ويظهر أن مثل هذا التصريح كافي، لاسيما إذا اعتبرنا أن البند الثالث من معاهدة 27 نوفمبر 1791، المجددة لاتفاقيات السلم والتجارة المعقودة بين المغرب وجمهورية الأقاليم السبعة، تحوي شرطا من هذا القبيل».

(49) لم أعثر على النص الكامل لمشروع البيان المشترك. واعتمدت على مسودة الفقرة الأولى منه.

(50) جاء في الفقرة الأولى من البيان : «إن جلالة ملك الأراضي المنخفضة وجلالة سلطان

المغرب وفاس، إذ يرغبون في توسيع علاقاتهم التجارية والبحرية القائمة بين بلديهما ورعاياهما، فإن الموقعين أسفله بأمر من حكومتيهما، يعلنان أن قناصل ورعايا البلدين يتمتعون في كلا البلدين سواء بالنسبة لذواتهم وممتلكاتهم أو بكل ما يتعلق بالتجارة والملاحة، بنفس الحماية والامتيازات الممنوحة أو التي ستمنح للدولة ذات الأفضلية».

(51) رسالة من هاي إلى Gevers d'Engeest وزير خارجية هولندة، بتاريخ 22 مارس 1858.

(52) رسالة من الخارجية الهولندية إلى القنصلية العامة بطنجة، بتاريخ 7 أبريل 1858 (1857 في النص مع أنها جواب عن الرسالة السابقة).

(53) مسألة توقيع الوثائق بدت شيئا ما معقدة من الجانب المغربي. فالسلطان يوقع جميع الوثائق قبل أن يوقعها أي مسؤول مخزني آخر. وأي مسؤول مهما كانت أهميته لا يتجرأ بوضع ختمه قبل ختم السلطان. وهكذا بعد أن رأت الحكومة الهولندية أن توقيع المسؤولين المباشرين عن المفاوضات كافي لملكها، رفض محمد الخطيب التوقيع قبل السلطان. وفي الأخير اقترح هاي أن يوقع هو فقط على الوثيقتين ثم يرسلهما إلى الحكومة الهولندية لتقديمها للملك.

مفاهيم وقضايا نظرية

- خطاب «الفوضى المغربية» وتنوعاته في بداية القرن العشرين
- الأنتروبولوجيا التاريخية

خطاب «الفوضى المغربية» وتنوعاته في بداية القرن العشرين

Daniel Rivet
ترجمة محمد المؤيد

بدأت أوائل القرن العشرين صورة مغرب منشق إلى قسمين، بواسطة فلق سياسي (تعارض بين بلاد المخزن، وبلاد السيبة)، وفي نفس الوقت عرقي (انقسام بين العرب والبربر)، تشكل نظاما مرجعيا مشتركا، لدى جل المهتمين بالمغرب، لكن هذه الصورة بقيت مفتوحة للنقاش، ولم تحظ بالإجماع، إنها صورة مرنة وغير قارة، يمكنها استيعاب معاني مختلفة، وتوليد سياسة متعددة الاتجاهات[1].

أول عنصر مكون لهذه المرجعية يتجلى في أن المغرب ليس أمة منظمة، وإنما عبارة عن امبراطورية تنهار وتتصدع نتيجة انقسام، يتعذر التغلب عليه بسبب تعارض طرفي النزاع : بلاد المخزن الخاضعة للسلطة، وبلاد السيبة، الغارقة في الفوضى. فبلاد المخزن تشمل ثلث الامبراطورية، وفيها يحكم السلطان ـ الإمبراطور، بصفة فردية أو أوتوقراطية واستبدادية بمساعدة الباشوات، والقواد، والمليشيات المحاربة (الكيش)، إضافة إلى جيش بدأ ينظم على الطريقة الأوربية، والقبائل التي تؤدي واجبات الجباية، والتجييش (النايبة)، بينما بلاد السيبة تشكل المجال المحيط ببلاد المخزن، والمهدد لها باستمرار، عن طريق الرفض الكبير، والمسلح لسلطة السلطان، وممثليه الإداريين (قياد وحاميات عسكرية)، وكذا لممثليه الجبائيين (رغم الحركات، والحملات العسكرية، التي كان المخزن يقوم بها قصد ابتزاز وسلب السكان). ولا يتمتع السلطان في بلاد السيبة سوى بنفوذ ديني ضئيل. وهكذا فالإمبراطورية الشريفة على المستوى النظري تعيش تحت رحمة حكم ديني (ثيوقراطي)، بينما على مستوى الواقع تشكل نظاما استبداديا، معدل أو مخفف من أسفل بواسطة

السيبة، ومتوازنة من أعلى، عن طريق لوم أو انتقادات النخبة. وباختصار إن هذه الامبراطورية الشريفة [بهذا الشكل]، ليست سوى وهم نسجته المخيلة الأوربية :

«على هذا الركام الفوضوي، من القبائل، وعلى هذا المجتمع الإقطاعي، الذي يسوده حكم ديني. رسم الديبلوماسيون الأوربيون، وعلى رأسهم دبلوماسيونا، واجهة صورية، لدولة مركزية، وبلد موحد»[2].

أما المكون الثاني فيتجلى في اعتبار المغرب بلد ناقص أو غير مكتمل، والأكثر من ذلك بلد عاجز عن التوحد، وذلك راجع أساسا للتعارض العريق بين سكان السهول المستعربين، أو المنحدرين من أصل عربي، وبين القبائل البربرية الجد متعلقة بترابها، وبشكل حكمها وبممارساتها المخالفة للإسلام، والمتمسكة بهويتها العرقية.

لقد تجمدت هذه الرؤية تدريجيا من بداية القرن إلى حوالي *1912*، ثم تأدلجت وتصلبت، إثر التلاشي المتزايد الذي ظهر به المغرب أثناء الأزمة وفي نهاية المد الأمبريالي، الذي زاد في تفككه، صار المغرب يبدو وكأنه عبارة جغرافية ليس إلا. كتب صيكونزاك R. Segonzac، في تعليقه عن غياب المقاومة، ضد حملة الجنرال موانيي Moinier على فاس في ماي *1911*، يقول : «إن المغرب بلد شاسع، لاشكل له، وسكانه عبارة عن غبار إنساني لا يكاد يشكل مجموعات بسيطة، إنها قبائل مختلفة ومتنوعة، مستقلة أو شبيهة بذلك، تعترف بسلط السلطان، ولا تعترف بنفوذه الزمني»، واستنتج من ذلك «إن المغاربة غير قادرين على اتباع سياسة متماسكة، لكونهم لم يرقوا بعد إلى فكرة الأمة، ولا على تماسك ديني، نتيجة المنافسة الحادة بين الزوايا الإسلامية المتعارضة، التي أدت إلى تلاشي الوحدة الإسلامية»[3].

ويعطي ميشو بيلير Michaux Bellaire، لهذه اللوحة، نوعا من البعد التاريخي[4] ومظهرا نظريا براقا. فالمخزن بالنسبة له عبارة عن نقابة المنتصرين المنحدرين من الفتوحات العربية، إنه المركز ونقطة تلاقي الكتلة المتكونة من عناصر الفاتحين، التي تستمد قوتها الوحيدة من وحدتها، ومن تجانسها، ومن تنظيمها، وسط بلاد يسودها الانشاق وانعدام التنظيم، فتتحرك داخلها، وتعيش فيها من أجل استغلالها أكثر ما يمكن دون الاعتناء بتنظيمها[5].

وبالرغم من أن هذه الكتلة تلعب دور الطفيلي فقط، فإنها استمرت من عهد

يعقوب المنصور، وغزو بني هلال، وذلك بتوظيف الغطاء الديني، وهذا راجع لكون الإسلام تحول في المغرب إلى خرافة، مقارنة مع الإسلام الأصلي[6]، فأصبح بذلك أفيون البسطاء، «المستغلين، بدعوى أنهم لا يفهمون الإسلام، من طرف أقلية، لا تستوعبه هي الأخرى، وإذا فهمته فإن ذلك لا يرقى لديها إلى مستوى العقيدة، لأنها في كل الأحوال لا ترى فيه أكثر من وسيلة لاستمرار ممارساتها الاستغلالية، أطول مدة ممكنة»[7].

وبما أن المخزن جسدا أجنبيا ـ عربيا ـ فقد نصب نفسه خدعة، على ركام بربري عاص ومتمرد. إنه «المغرب الرسمي، مغرب الدبلوماسية الذي تم التعامل معه، وإليه تمنح القروض، ومنه تؤخذ التعويضات، وبإيجاز إنه مغرب السيادة، المعترف به في مؤتمر الجزيرة الخضراء»[8]. وتحت هذه القشرة الرهيفة للاحتلال، العربي، استمر مغرب الجذور في حياته ومقاومته، «إنه الجسم البربري»، المتميز بتمسكه الشديد باستقلاليته، وهذا أساس «نوع من الحس بالاستقلال الوطني لديه»[9] وهو حس مستمد من تقديس البربر لبعض الأولياء الذين عارضوا الشرفاء العرب. لكنه إذا كان لبربر المغرب شغف بالاستقلال، فإنه لم يكن لديهم وعي بمفهوم الدولة، الأمر الذي نتجت عليه مفارقة دائمة ذات جذور عرقية وجغرافية، بين الدولة والأمة في المغرب إذ أن تاريخ المغرب بأكمله عبارة عن حبكة نسجت نتيجة صراع «الجسم البربري» ضد الدولة اللامشروعة، الدخيلة، الآتية من مكان آخر : «إن وضعية المخزن إزاء هذا الجسم الوطني تشبه إلى حد ما، وضعية الغزاة، الفنيقيون والرومان، فالمخزن مثلهم عاجز على استكمال الغزو وتنظيمه، وغير مؤهل لامتصاص الحيوية البربرية، واستيعابها لصالحه، وكل ما استطاع فعله هو مقاومة البربر ...»[10]. من أين أتت هذه الصورة التي أنجبت مغربا متحجرا بفعل الثباتية التاريخية، والحتمية الإثنية؟ وأية سياسة استعمارية وظفت بشكل ضمني ؟

لهذه الثنائية جذور عريقة. وهي التي تحكمت في تكوين صورة المغرب لدى الأوربيين، ولو بشكل غير واضح، منذ عهد السلطان مولاي الحسن[11] وقد ساهم رائدان للتوغل «العلمي»، في ترسيخ هذه الصورة : فوكو Foucauld الذي كان يقرأ وكأن كتاباته عبارة عن قاموس، دون التساؤل عن عمل كتاب : «استكشاف المغرب La Reconnaissance du Maroc » ولا طريقة استعماله[12]. أما الرائد الثاني فهو لوشاتوليي Le Chatelier من خلال قراءة خالية من

الافتراضات، لفوكو نستخلص صورة متناقضة لمغرب ما قبل الاستعمار، فالفرق بين العرب والبربر، عنده، ليس له أي أساس عرقي، بل يرتكز على معيار لسني فقط، فهنا يتم التحدث بالعربية وحدها، وهناك يقع التواصل بلهجة من اللهجات البربرية[13]. وفي مناطق أخرى يستعملان معا، حسب نسبة مئوية متزنة، سواء على مستوى الجنس أو المكانة داخل المجتمع[14]، فالثنائية المتعارضة، المخزن/السيبة، ليست شديدة الوضوح، إذ لا يوجد خط فاصل بين العالمين، بقدر ما يوجد نوع من التناوب المعقد (تادلة، سوس، حاحة) أو الانتقالية (القبائل الخاضعة للمخزن عن طريق النزالة أو بالولاية أو السيادة الجبائية ذات النزعة الوراثية)، أو الوساطة (تأثير الزوايا والأولياء).

بدون شك إن فوكو أصدر حكما إجماليا، جد قاتم وسلبي، في حق بلاد المخزن[15] لكن إجرائه النظري للمخزن عادل، تحت ضغط الواقع الذي يستنتج من إقاماته المتوالية، في المناطق التي تقع تحت السلطة المباشرة للسلطان، فبعكس ما كان يجري في مناطق السيبة، حيث كان التنقل رغم «الزطاط»، أو المخاطرة بنوع الحماية المسماة «العناية»، أمر عسير، وغير مضمون، ففي بلاد المخزن «يتمتع المسافر بالأمن»[16].

إن بلاد السيبة لم تكن تشكل عالما غير متميز، بل عالما يتأرجح بين الديمقراطية الحقة، وهي ما يرادف الفوضى في رأي أرسطقراطي مثل فوكو، وبين النظام الاستبدادي، فغياتة «دون إلاه ولا سلطان ... كل فرد يعتمد على نفسه بواسطة بندقيته» يرمزون للدولة الديمقراطية. والولاية عن طريق الجباية الوراثية، التي تشكل مزكيطا بدرعة العليا أحسن أمثلتها، تشخص النظام الاستبدادي. إن التعارض الدقيق حسب وجود وضعيات الوسطاء (القيادة الاختيارية والتناوبية للشيوخ والعم) تأخذ طابع الجهوية. وبصفة إجمالية تعيش بلاد السيبة شمال الأطلس الكبير تحت نظام ديمقراطية مطلقة، تتميز باستمرار القبيلة ـ الأمة، المتجزئة إلى ما لا نهاية، وخير دليل على ذلك محدودية «العناية». فانطلاقا من الأطلس الكبير ينفرد مغرب الجنوب بنظام مختلط، إذ نجد تارة ديمقراطية القبيلة، وتارة أخرى نظاما استبداديا، تولد عن «العناية»، أي الحماية الفردية، والمؤقتة، والتي تحولت إلى دبيحة، أي حماية جماعية ودائمة. لكن فوكو لا يعطي لهذا النظام الاستبدادي، ألوان القرون الوسطى الغربية، «فالدبيحة» تحتفظ بمعاني مختلفة ومتعددة : علاقة التابع

بالإقطاعي، علاقة الزبون بالشفيع، علاقة قبلية ؟ وفوكو في كل هذا يتسائل دون أن يجيب[17].

اعتمادا على هذا الكتاب الذي لم يكن هدفه متواطئا[18]، قام المثقفون الاستعماريون بقراءات وتأويلات مختزلة[19] فتعاملوا مع «استكشاف المغرب» كأنه «مصلحة حرة»، للاستشهادات، وجدوا فيها ما كانوا بصدد البحث عنه : أي صورة مغرب، ما قبل الاستعمار، تسوده السيبة، وتبطل فاعلية الدولة. كان الأمر حيث تمكنوا من عزل المقاطع عن نسقها، وتجميعها جنبا إلى جنب، وتقويلها ما كانوا يريدون، وتهم تلك المقاطع قبائل غياتة (ص. 32 ـ 34) وقبائل زايان (ص. 47)، التي «كان قائدها وحده يشك أنه قائد، ويعرف أن هناك سلطان»، والزاوية الشرقاوية (ص. 52) و«هنا لا سلطان ولا مخزن، لا شيء سوى الله وسيدي بن داود»، وقبيلة زناگة (ص. 113 ـ 114)، حيث يعتبر السلطان «كرئيس قبيلة بعيدة، لا تربطها به إلا علاقات سيئة»، وفي النظام القايدي الوراثي لمزگيطة (ص. 288)، لا يعترف بالسلطان سوى كزعيم روحي، أمام إشعاع الشيخ محمد العربي الدرقاوي على تافيلالت (ص. 532) ... الخ.

أما لوشاتوليي فيذهب بعيدا في كل ما يتعلق بالخطاب حول «الفوضى المغربية»، فيعتمد في تحليله طريقة التشريح، وتحت مبضعه تفك وتفصل الأغشية المكونة للنسيج الاجتماعي المغربي. وبعد عملية التشريح يخرج المجتمع مبتور الأعضاء، مجردا من عظامه، ومتفجرا ليس إلا. إنه مجتمع مجزأ إلى ذرات بدعوى تنوعه العرقي (ثنائية عرب / بربر، ومقابلها القانوني، الشرع / العرف)، والبيئي (تعارض الرحل / والمستقرين بأوجه الجهوية المختلفة)، والديني (إسلام الكتب، إسلام المدن والعلماء / وإسلام الورع، إسلام أولياء الزوايا المتصوفة والمجاهدة) والسياسي (من القبيلة الأمة، إلى القبيلة الممخزنة، وسلطة الأمراء الروحيين المنحدرين من سلالات شريفة، أو إمارات زوايا ودويلات قايدية في تراب المخزن)، والتاريخي (الخصوصيات المحلية، المترسبة عن التشكيلات العرقية ـ السياسية، البائدة : كمملكة العرب الأدارسة، وامبراطوريات لمتونة المرابطية، ومصمودة الموحدية ...). ويرفض لوشاتوليي تجميع هذه الأجزاء المبعثرة، المكونة للواقع المغربي، وإعطاء رؤية شمولية. إن ميزة «الجسم» المغربي، تظهر، حسب قوله، في أنه «تكدس

عشائري مفكك، دو مؤسسات تجمع بين المتناقضات، وتقاليد تشوبها الفوضى واللامسؤولية»[20]. ورغم سيادة هذه النظرة، فإنها لم تحقق حولها الإجماع. وهناك مقاربتان، جانبيتان دقتا، ونوعتا هذا التصور الذي كان بصدد التبلور : الأولى لأوجين أوبان (E. Aubin) ، والثانية لإدموند دوتي (E. Doutte). فأوجين أوبان، الملحق بمفوضية طنجة، تميزت بنظرة دقيقة وعميقة، لكونه لم يمكث في المغرب كثيرا[21]، فكتابه[22] جاء كدراسة تاريخية فورية رصدت راهنية أحداث المغرب، وليس جوهر مغرب أبدي. ومثل معاصريه كان أوبان مدركا الحاجز بين بلاد المخزن وبلاد السيبة، واعتبره ذا أصل عرقي : «في الواقع هناك حائط بين البربر والعرب»[23].

إلا أنه وبفضل حدسه تخطى هذا الفاصل وأقر بوجود نظام مغربي، معتبرا السيبة إحدى مكوناته، فالفوضى إذن ليست نتيجة ثنائية عرقية، ولا ثمن قطيعة بين الدولة والأمة، إنها من بعض الوجوه ضرورية للنظام، ووحدة أساسية في جوهره : «ليست [السيبة] إذن ثورة تنفجر، ولا حربا أهلية تندلع، إنها تطور طبيعي لسياسة المغرب الداخلية، فشأنه شأن الجمهوريات الصغيرة في أمريكا الجنوبية، التي تعتبر ثوراتها ظاهرة ملازمة وضرورية، للحياة البرلمانية»[24]. أدرك أوبان أصالة هذا النظام، وانسجامه، ومشروعيته[25]، لكونه الملاحظ الأوربي الوحيد في زمنه الذي استشف من خلال المظاهر، الحضور التاريخي للسلطان والمخزن عبر الجسد الاجتماعي المغربي. فالسلطان يتسم ببعد ثلاثي، فهو أمير المؤمنين، والإمام، وشريف البركة[26]. إنه المركز (مركز الثقل)، الذي تلتقي فيه كل القوى المتعارضة المكونة للمجتمع، إنه الموفق أو المدبر كما يعبر عن ذلك جيلنير Gellner، والذي من خلال وظيفته التحكيمية المستمدة من الدبلوماسية وليس الحرب، تحتفظ للنظام بتوازنه، واستمراريته. لقد نقل السعديون المخزن عن نموذج الدولة العثمانية، وعن الطبقة الحاكمة والسائدة على باقي طبقات المجتمع ككل، بطريقة عيشه، وتصرفه، ومظاهره. فهناك لباس مخزني، ولغة مخزنية، وطقوس ورموز مخزنية خاصة مقننة، تنتقل، وتتوارث بواسطة «القاعدة» أي التقليد. وبالممارسة اليومية للحكم - المخزنية -، شاعت في المجتمع طريقة خاصة في التفكير وفي الإحساس والتعامل مع الأحداث، وتولد عن هذا رأي عام مغربي[27]. لذا فالمغرب ليس فقط ملكية دينية، أو تيوقراطية، فبين الأجزاء المتعارضة المكونة

للقبائل والمدن نشأت علاقة سياسية «نتيجة التطور التاريخي للمخزن، الذي نضد السلطة المركزية على تشتت وتفرقة المجموعات المحلية»[28].

وخلاصة القول، إن النظام المغربي، فوضى منظمة، نظرا لضابطين اثنين : العلاقة الدينية بين السلطان ورعيته، والعلاقة السياسية بين المخزن وخدام السلطان.

إن تركيبة النظام المغربي، ليست جامدة، فالمغرب وهو على أبواب القرن العشرين، يترقب المستقبل. في العمق سجل أوبان نمو التوتر المناوئ للأوربيين، والذي يتمثل في حركة وقائية ضد إدخال الإصلاحات المفروضة من طرف الأجانب، وليس نتيجة إنجازاتهم كما كان الشأن بمصر، أما على الواجهة فيعرض أوبان على الأنظار التحولات الداخلية للمخزن عقب الضغوطات التي مارستها أوربا على الامبراطورية. أما الصعود القوي لهيئة كتاب الديوان وتقنيي الأموال العمومية (أي الأمناء) المنحدرون من البرجوازية التجارية، فقد أدى إلى تقهقر الارسطقراطية العسكرية، ذات الأصل القروي. إذ بعد أن كانت الحكومة ذات طابع عسكري، متأثرة بالوجهاء القرويين، أصبحت بين يد العلماء والتجار :

«السلطة تعود إلى العقل، ويشهد المغرب فجر حكومة مثقفين»[29].

أما فيما يتعلق بالأسس القروية في المغرب، أو الدين عند الشعب[30]، فأوبان يلتزم الصمت، لكونه دبلوماسي معجب بآليات الدولة المغربية، ورجل مضطرب ومتخوف في علاقته مع الشعب. مقابل أوبان، يوجد دوتي Doutté، لكونه ينطلق من أسفل من البنيات العائلية، من كلمات وأشياء القبيلة، من الأذوات الدهنية التي يتوفر عليها الناس البسطاء تمكن دوتي من تغطية الزوايا التي استعصت على أوبان في فحصه الدقيق، لكن بحثه [مع ذلك] يبقى صعب التحديد، وعصي التأويل، إن مصطلحاته الأساسية تسبح في الغموض، وتتأرجح بين البدائية المترتبة عن النهج الفرازيري Frazerien [31]، وبين التطور عند دوركايم[32] فهو يجرب كل المناهج في كتابه دون أن يصل إلى خلاصة. فأتت محاولته أقرب إلى يوميات مسافر مستشرق مغرم بعلم النبات، تلهمه الطبيعة، مثلما كان الحال بالنسبة لروسو[33]، كما أتت شبيهة بتقرير سري أو مذكرات رسمية موجهة لأصحاب القرار[34] أو استقراء مونوغرافي ميداني[35] أو جمع لمادة خام من أجل نظرية بإمكانها استيعاب المغرب تاريخيا، وبصفة

شموليةً[36]. ولكون دوتي Doutté إثنولوجيا، ولسانيا، وفنانا، وعالم نبات، فقد جاء مؤلفه غزيرا بالمعلومات والأدوار دون أن يتحمل أي دور منها. ولكل هذا جاء المؤلف غير مكتمل.

يختلف دوتي عن أمثاله من المتمغربين (المهتمين بالمغرب)، بكونه يدحض كل الأفكار الجاهزة التي ظهرت عن مغرب ما قبل الاستعمار، إنه يبرهن عن غباوة أو حماقة التقسيم العرقي بين العرب والبربر : «إن هناك فوارق شتى بين السوسي والمزابي، والشاوي (من الأوراس)، والكرومير Kroumir ، لدرجة استحالة إطلاق نعت (عرق Race)على هذه المجموعات، دون المساس بمعنى هذه التسمية»[37]. كما يدحض بكيفية حادة وصائبة (أكثر من أوبان)، المفارقة مخزن / سيبة[38]، ويتمثل مبكرا) نظرية إيفانس ـ بريتشار عن الانقسامية، حينما يتناول تحليل الفوضى المغربية، في إطار صراعات وتوازنات، ووضع جامد، والكل منظم بقانون خاص : «إن الفوضى الظاهرية (المزعومة) التي تسود، وصراعات الرحل والمستقرين، وصراعات الكونفدراليات، وصراعات الفخدات داخل القبائل وبين اللفوف الصغرى Les petits coffs لهذه الفخدات، وتواجد اللفوف الكبرى Les grands coffs التي تمر عبر كل هذه المجموعات. كل هذا الاضطراب والبلبلة عبارة عن نظم في حد ذاته. وفي هذا العماء (le chaos) الظاهري، تجد كل القوى الحية توازنها : فكل المكونات، طبقات أو أحزاب كانت، فإنها تنتهي إلى خلق نوع من الاستقرار الاجتماعي، وبالتالي إلى وضع دائم (ثابت) ... »[39].

لكن دوتي، يصاب بالوهن، أو بالأحرى يظهر وكأنه تخلى عن حدسه الأول. ودون شك أنه قاوم التيار الذي أراد أن يعطي للمغرب طابعا وحشيا، وذلك من *1905* وخاصة *1908* [40] ويلاحظ أن وعي دوتي كان متأرجحا بين النسبية الثقافية والمركزية الأوربية : «من الصعب على المسيحي أن يصدر حكما على المسلم، فأفكارنا الغربية المسبقة تغشي أبصارنا، رغم مقاومتنا لها : إنها تجعل تقواه تبدو تزمتا، وزهده كسلا، وحدره لامبالاة، واستسلامه قضاء وقدرا، وتعاضده عصبية»[41].

كما أن تحيزه للبربر، وآرائه الجاهزة تجعله متجاوزا يغض الطرف عن الطريق التي رسمها، إذ نجده يعتبر عادة حضارية بربرية هي الزواج بامرأة واحدة[42] عند قبائل حاحا، رفضا لتعدد الزوجات، كما نجده لا يخفي حقده

على فخدة تاكنة المستقرة بالحوز : «في ظرف ربع ساعة انتقلنا من مغرب بربري مثابر (في العمل) إلى صحراء عقيمة (غير منتجة)، ومتزمتة من بلد سكانه مستقرون إلى بلد الرحل».

فتارة نجده يتحامل على حفدة المرابطين، ويلقبهم ب «مخربي الحضارة، غير القادرين عل إنشاء أي شيء يتسم بالاستمرارية»[43]، وتارة أخرى نجده عكس ذلك، متيقنا من أن «للحضارة الاسلامية بالمغرب، رغم مظاهرها الوحشية، جوانب في منتهى الرقة» وبإمكان فرنسا أن تقتبس بعض السمات من هذه الثقافة.

إنه متأثر على الخصوص ببساطة حضارة الفلاحين، وجمالها، ونبلها، تلك الحضارة الأبوية الفضة[44]، ويقول هذا بطريقة شيئا ما مبالغ فيها، لكنها صادقة، مصحوبة برقة شعبية شبيهة بنزعة هوغو في هذا الباب، وبنبرة دقيقة، وحقيقية كمعلم متأثر بالكانطية الجديدة[45] إنه يجد في المجتمع المغربي الصورة الأصلية للجزائر، لكنها صورة متلاشية ومشوهة بسبب الاستعمار الفرنسي، بل أكثر من ذلك يجد في هذا المجتمع، الإنسان في حالته الأولى الطبيعية بعيدا عن سراب المجتمع الصناعي[46] لكن انثروبولوجيته السياسية، لا تعادل غوصه في أعماق العالم القروي المغاربي. لقد أنشأ نظرية لبقة حول المغرب ـ الأمة، وهو في طور التشكيل، منزلقا تحت التأثير الأوربي، من مفهوم السيادة في الإسلام التي تحدد بالعلاقة الدينية والتضامنية، إلى مفهوم أوربي قوامه الانتساب إلى الأرض و le jus soli [47] فمن نسق ديني وبيولوجي يراد للمغرب أن ينصهر في نظام دنيوي وطبوغرافي. إذن من سلطة امبراطورية إلى مواطنة داخل أمة، وهذا التطور يحتاج إلى «إصلاح فرنسي ـ إسلامي» مقتبس عن سالفه في تونس[48]، أي نظام الحماية.

من جهة أخرى يجب التساؤل حول الغموض والنقصان اللذان يشوبان بحث دوتي، إنهما لم يأتيا نتيجة الظروف فحسب : التهميش (النسبي) لمدرسة الجزائر، والحفيظية التي عتمت في نظر الملاحظين الأوربيين، الواقع المغربي، وكذا تناقضات الاثنولوجية الاستعمارية المتأرجحة بين هدفها الذي يكمن في إبراز حقيقة علمية عن الإنسان «الأهلي» وعزمها على تمهيد الغزو، بل يجد النقصان والغموض تفسيره أيضا في كون دوتي ـ رغم كونه أحسن خبير فيما يتعلق بمغرب ما قبل الاستعمار ـ لا يموضع المغرب على أسس تاريخية فإذا دحض

ـ وهو على حق ـ مقارنة الامبراطورية الشريفة، مع عصر الانحطاط الأوربي، فأنه أرجع المقارنة إلى حقبة ما قبل التاريخ، في فضاء يفتقد البعد التاريخي، وفي زمن جامد متكرر، بمعنى أنه يلغي تاريخيته[49].

ما هو في النهاية تأثير هذه المعرفة على دائرة أصحاب القرار المحدودة، والمتكونة من الدبلوماسيين والممولين العاملين على تمهيد غزو المغرب ؟

إلى حدود سنة 1905 شكلت هذه المعرفة الإطار المرجعي الذي تستمد منه الدلائل، سواء من طرف أنصار فكرة التعامل مع المخزن أو أولئك الذين يحبذون التعامل مع القبائل انطلاقا من مقولة جوريس «سياسة الوفاق المباشر والودي». إنه الاختيار الصعب بين سياسة المخزن أو سياسة القبائل. في الواقع إن هذين الخياران ليسا سوى خدعة يستهزئ من خلالها مؤيدوا «استعمار المغرب من القمة» بفرقائهم المتحفظون إزاء هذا الحل[50]. وفي الحقيقة لا يوجد أي طامع في استغلال المغرب من «القاعدة» يستبعد التعامل مع المخزن. فكل المهتمين بالمغرب يتفقون على ضرورة نهج سياسة ذات تركيب مزدوج : نصف مخزني ونصف قبلي، ولكن النشاز ينتج بين الفرقاء بسبب كيفية المزج بين هذين المكونين[51].

لكن هذا التأثير الذي مارسه العارفون بالمغرب، بدأ يضمحل عندما دوّلت «المسألة المغربية» بكيفية درامية، فعندئد اضطرت فرنسا إلى التعامل مع المخزن ليس كوصي، بل كمستشار ومرشد متميز. ولأغراض وحسابات استراتيجية، بدأ الدبلوماسيون والممولون يحجبون الحقيقة السوسيولوجية بسيناريو جديد مطمئن وخادع، «يظهر المغرب كبلد هادئ وساكن» على حد التعبير الساخر لألفريد لوشاتوليي. إن هذه الصورة الوهمية «تغيض المهتمين بالمغرب» ـ لكونها تلفق حقيقة البلاد ـ الذين واجهوا الصعاب عل أرض الواقع، كسخط وغضب الشعب، والعداء المستتر والفاعل من طرف الطبقة الحاكمة. فحصلت آنذاك القطيعة بين «مخططي السياسة المغربية، سواء في باريس أو برلين أو لندن، وحتى في طنجة، وبين أوساط العارفين (بقضايا المغرب) المستشارون المغضوب عليهم الشبه مهمشين[52]، فصار هؤلاء بمعية الجيش، وتحت ضغط الأحداث يشوهون الصورة التي كانت لديهم عن المخزن، فأثناء تدخل القائد (العسكري) فيري Ferry أمام مجلس المغرب قال : «إن المخزن عبارة عن جماعات من اللصوص المرتشين المخلين بالواجب»[53] وبهذا يتناقض

مع الدبلوماسيين الفرنسيين الذين أتوا إلى الجزيرة الخضراء قصد الحفاظ على دولة ذات سيادة، وذلك بغية استعمار دواليبها الأساسية بلطف. وحينما انتقد الجنرال موانيي Moinier بشدة الحكومة واصفا إياها «بالحكومة الفاسدة، وغير القابلة لأي تطور» اصطدم برونيو Regnault الذي كان يحبذ التوغل عبر الدبلوماسية التي ستؤدي لا محالة إلى الحماية، وعندما أكد لوشاتوليي «إن كل ما هو سليم، حاذق ومحمود في سياستنا المغربية، تم إنجازه بعيدا عن المخزن، في معزل عنه، وضد إرادته، بيننا وبين المغاربة»[55]. إن رؤية لوشاتوليي تنسجم مع رؤية العسكريين[56] مختلفا في ذلك مع الأوساط الدبلوماسية والمالية.

هذه التضاربات، وهذا الغياب في التزامن بين «المختصين» و«أصحاب القرار» يوضح أن التوغل «العلمي» لم يكن سابق، ولا موجها ولا مبرمجا للسياسة المغربية لفرنسا، تلك السياسة المدينة لتحولات السياسة الأوربية.

وعلى الأقل وجد «المهتمون بالمغرب» الكلمات الصائبة، وابتكروا الشعارات وبلوروا الصور التي مكنت رجال السياسة، والصحفيين ومدعمي «فرنسا الكبرى» من التصرف، والتكلم، والحلم بالمغرب. وبهذا تمكنوا من اختلاق الأداة الذهنية التي فرضت الحماية. وهذا هو المهم على المدى الطويل.

هوامش

(1) E. Burke «The image of the Moroccan state in french ethnological litterature : new look at the origin of Lyautey's Berber policy», in E. Gellner and Ch Micaud, Arabs and Berbers : from tribe to nation in North Africa, Londres, Duckworth, 1973, pp. 175-199.

(2) R. Pinon : «Le Maroc et les puissances européennes», revue des deux mondes, 15 février 1902, P; 787.

(3) R. de Segonzac, «L'expédtion de Fez» in Afrique française, Juillet 1911, p. 241.

(4) اعتمادا على قراءة سطحية لمثقفي المخزن، وخصوصا الناصري.

(5) H. Gaillard et E. Michaux-Bellaire, «L'administration au Maroc. Le maghzen étendue et limites de son pouvoir», in B.S.G.A. 1909, pp. 433-470.

(6) لم يكن الإسلام في المغرب سوى ركاما من الخرافات والخزعبلات الفضة والوثنية والسحر، تمت المحافظة عليه بعناية لعرقلة بزوغ الفكر.

انظر : «L'Islam et l'Etat Marocain» in R.M.M. 1909. p. 331

(7) المرجع نفسه، ص. 341.

(8) E. MIchaux-Bellaire, «L'organisme marocain», R.M.M, 9, 1909, p 42

(9) المرجع نفسه، ص. 1.

(10) نفسه، ص. 43.

(11) أدت سياسة الابتزاز، وتجاوزات الحكومة إلى تقسيم المغرب إلى قسمين : قبائل بربرية متمردة تعيش في الجبال وتدير شؤونها بنفسها، لا تؤدي الضرائب، ولا تعترف بسلطة السلطان، وقبائل عربية خاضعة تعيش في السهول، مغلوبة على أمرها، حقيرة، قتل الرعب فيها روح المقاومة. انظر : L. de Campon, Un empire qui croule. «Le Maroc contemporain, Plon, 1888, P. 25.

(12) انظر التحليل الذي خصصه له J. Freneaux و D. Nordnan في : Sciences de l'homme et conquête coloniale. Constitution et usages des sciences humaines en Afrique (XIXe) XX siècles), Presse de l'ENS en particulier p. 79 et pp. 99-100.

(13) C'est le cas limite des Zenaga de l'Anti Atlas (Foucauld, ouvr. déjà cité, pp. 113-114.

(14) لدى قبائل زايان، وحدهم «أفراد الطبقة السفلى» يجهلون التحدث باللغة العربية (ص. 48) وفي جنوب بلاد گلاوة، رجل بين كل خمسة رجال، وامرأة بين كل عشرين امرأة، يتحدثون العربية (ص. 92).

(15) C.F. les pages 40-41, passées au premier plan dans l'anthologie coloniale de la littérature noire consacrée au makhzen.

(16) Idem, p. 75, Foucauld fait ressortir cette impression de sécurité a trois reprises : entre Tanger et Fes, dans le dir à la hauteur de Demnat, de Tizi Telrent à Qsabi ech Chorfa.

(17) نفسه، ص. 132-134.

(18) A l'origine de la reconnaissance, il n'y a pas d'équivoque : le tracé de l'itinéraire à la charrière de la Siba et du bilad el Makhzen et la minutie des relevés topographiques démontrent l'objectif de reconnaitre les chemins d'une expédition militaire. Mais à partir du séjour dans le sud, à Tikirt, on observe un déplacement souterrain du centre d'intérêt de l'ouvrage. Foucauld saisi, comme le soulignera Massignon, par une sorte de rage laïque à comprendre l'intérieur du Maroc, recherche d'ou vient cette violence qui «ensauvage» le bilad de siba, quelles institutions le canalisent quels pouvoirs la récupèrent. Du coup la Reconnaissance devient insensiblement une œuvre ethnologique cherchant à expliquer le passage de l'état sauvage à l'Etat de droit.

(19) A dire vrai, cette démarche réductrice est contemporaine de l'œuvre. Duveryrier, dans son avant propos (IX) à la Reconnaissance, assimile à des barons de la monarchie féodale ceux qu'il nomme - par un transfert sémantique absent chez Foucauld - les «sires» de Tikirt, etc.

(20) A. Le Chatelier, Sud Oranais et Maroc ... cité par R. Messal, La génèse de notre victoire marocaine, p. 221.

(21) إن إقامته القصيرة في المغرب (1902 ـ 1903)، لم تكن سوى فترة استراحة داخل رحلة قادته من الهند إلى الكراييب.

(22) Le Maroc d'aujoud'hui, A. Colin, 1904

(23) المرجع نفسه، ص. 52.

(24) نفسه، ص. 110، لكن يظهر أن أوبان يفتقد هذا الحدس كلما تقدم في استطلاعه، إنه يضعفه بالتنازلات التي يقدمها أمام النظرة السائدة للفوضى، وأثناء تعرضه للسيبة التي اندلعت باندلاع الحركة الروگية، استنتج «إنها هيجان du Faustrecht الذي عرفه العصر الوسيط الجرماني، والمغاربة يتعاملون معه بكل ابتهاج»، ص. 404.

(25) إن المغرب «فريد من نوعه مقارنة مع باقي الدول الإسلامية»، ص. IV من المقدمة.

(26) من الأحسن، طبعا، أن يكون السلطان قائدا عسكريا كبيرا أو رجل دولة محنك، لكن قبل هذا كله، من الواجب أن يظهر كقديس كبير، اختير من أجل إغداق البركة الشريفة على شعبه، وتنبع منه تلك البركة بكيفية لاشعورية. نفسه ص. 134.

(27) نفسه، ص. 227 ـ 234.

(28) نفسه، ص. 239.

(29) نفسه، ص. 191.

(30) ويرى هذا السيد السامي في عيساوة والحمادشة، زوايا تتقزز منها الأنفس، تحول «الفئة السفلى من الشعب أوباشا مدهولة»، نفسه، ص. 431.

(31) عندما يتفحص طقوس التطهير ونزع القداسة عن الزواج عند قبائل حاحة، أو يحلل مفهوم العار كمؤسسة قربانية.

(32) ومن هنا تأتي نظرته الغائية Finaliste، والتواكلية Providentialiste للمخزن، الذي يقتلع الشخص من قبضة القبيلة المستبدة. إن المخزن يمثل بالنسبة للقبيلة ما كانت تمثله المدينة بالنسبة لجينوس Genos في اليونان القديمة، أي أداة تحرر الشخص.

(33) Cf. Marrackech, P. Genthner, 1905, et surtout, Missions au Maroc en tribu, P. Genthner 1914.

(34) «Rapport sur la situation politique de Haouz», 1 janvier 1907, A.A.E., pp. 129-163 et «Note sur la réalisation du Protectorat marocain» 15 janvier 1912, pp. 1-14.

(35) «Les h'a ha» in R.C., n° 1, 1905, pp. 1-16

(36) Comptes rendus de mission dans l'Afr. Fr. et le «Le Sultanat Marocain», in Revue Politique et parlementaire, septembre 1909.

(37) Cf. «Une mission d'études au Maroc» R.C. 1901, N° 8. p. 166

(38) وبهذا المعنى فإن مفهوم بلاد المخزن/بلاد السيبة ليس صحيحا، لأن المغرب برمته، وبكل أشكاله المختلفة، وإلى حدود متفاوتة، يخضع لتأثير المخزن ..»، نفسه ص. 171

(39) نفسه، ص. 172.

(40) «ليس المغرب ركاما من القبائل، كما أن الحكومة المغربية ليست شرذمة من اللصوص، إن المغرب بلد بصدد التطلع إلى الحضارة، وهو يمر حاليا بمرحلة وحشية عرفناها نحن كذلك» وكان هنا يرد على أولائك الذين يروجون خرافات قائمة حول المغرب.

C.f. note du 15 janvier 1912 sur la réalisation du protectorat, AEE ns 289

(41) En tribu, p. 436

(42) «Les H'aha» déjà cité, p. 7

(43) En tribu, pp. 337 et 344

(44) عندما تحدث عن الضعيف (المسكين) الذي يطلب الحماية من كبير ما، عن طريق مؤسسة العار، دون أن يعتبر ذلك مسا بكرامته، يقارنه ب «le déclassé» الجزائري الذي يحرر شكايته عند كاتب عمومي، لكنه يعترف بما يلي : «أجل لقد استأصلنا مجموعة من الرذائل من المجتمع الأهلي، لكننا في نفس الآن منعنا عادات كثيرة كان بالإمكان استحسان نيلها»، نفسه، ص. 225.

(45) انظر وصفه للحصاد في بلاد متوكة، حيث يتحول عرق وتعب الرجال بحضور المقدس، المرجع نفسه، ص. 266.

(46) انظر كذلك فحصه للوعي في بلاد گندافة، نفسه، ص. 50.

(47) Article déjà cité sur «Le Sultana marocain»

(48) «La réforme franco-musulmane du Maroc», in Afr, Fr, dec. 1903, p. 358

(49) «... بينما يشكل الإقطاع la féodalité حالة اجتماعية جد معقدة تولدت عن حطام حضارات سالفة متعددة، فالوضع الاجتماعي بالمغرب، بخلاف سابقه وضع بسيط نتج عن مؤسسات أكثر بدائية من المؤسسات الجرمانية والگالورومانية in Marrakech, p. 400

(50) يرى دوكيكس R. de Caix أن هناك تعارضا بين المستعمرين الذين يحبذون «حل المسألة المغربية عن طريق مخزن موجه من طرف فرنسا بعد أن أخضع للإصلاحات، ومن أطلق عليهم اسم «الجزائريون» الذين يفضلون الغزو عن طريق القوة عبر منطقة وهران
in «La France et le Maroc» Afr Fr, oct. 1903, pp. 306-311.

(51) Comme le souligne avec condescendance H. de Peyrinhoff, secrétaire de l'"Union des mines marocaines", : Les vues d'Amade répondent à une des deux doctrines qui se partagent avec une intransigeance et une simplicité médiévale les marocainisants : politique maghzen, politique des tribus. C'est pour ces spécialistes une sorte de querelle des universeaux» (lettres à Darcy, 12 août 1909, cité par J.C. Allaim, in J. Caillaux et la crise d'Agadir, p. 1778, fonds Mission Scientifiques).

(52) هذا ما يتضح من المراسلة بين ميشو بيلير وج گيو (أرشيف الرباط).

(53) Cf. R.C. n 12 bis, 1905, p. 521

(54) Lettres de Moinier à R. de Billy, Casablanca 19 janvier 1912, AAENS 219.

(55) in R.M.M. 14, 1911, p. 331

(56) يعترف ليوطي نفسه بهذا فيما يخص الحدود الجزائرية المغربية : «فعلا توجد عند أعداء المخزن كل العناصر السانحة للنظام والأمن وبالتالي تمكننا هذه العناصر من بسط نفوذنا، وبعكس ذلك فالسلطة الشريفة والقبائل المخزنية تمثل كل ما يجب أن نحاربه».
Lettres de Rabat (octobre 1907), in Revue de deux Mondes, 15 juillet 1921, p. 275.

الأنثربولوجيا التاريخية*

أندري بورغيير

ترجمة : محمد حبيدة

«إن المؤرخ، وهو مجبر، بحكم الأحداث الكبرى التي يجب عليه سردها، للاستماع إلى كل ما يمثل بالنسبة إليه أهمية معينة، لا يقبل على الساحة سوى الملوك، الوزراء، جنرالات الجيوش وكل هذه الطبقة المشهورة من الرجال التي عملت كفاءاتهم أو أخطاؤهم، أدوارهم أو دسائسهم على صنع شقاء أو رفاهية الدولة. لكن البورجوازي في **مدينته**، **الفلاح** في كوخه، النبيل في حصنه، وأخيرا الفرنسي في أشغاله وملذاته، وسط عائلته ومع أطفاله، كل هذه القضايا ليس بإمكانه أن يقدمها لنا». لا يتعلق الأمر هنا بتعبير للوسيان **فيفر** حول قصور المؤرخ، بل للوغران دوسي Le Grand D'Aussy، أحد المعاصرين لعصر الأنوار في مدخل لكتاب له تحت عنوان «تاريخ الحياة الخاصة للفرنسيين» (*3* مجلدات)، المنشور سنة *1782*. هذه السطور القليلة تشير بما فيه الكفاية إلى الحقل المهمل من طرف التاريخ الحدثي، ذلك الحقل الذي احتواه مؤخرا البحث التاريخي. إننا نلمس، وبالتأكيد، في قيام مدرسة **الحوليات** بعثا لتاريخ أنثربولوجي.

تاريخ مفهوم

في هذا الإطار يكون مشروع لوغران دوسي ذو دلالة واضحة : فمن كل هذا العمل المرتبط بالتاريخ **الاجتماعي** لطبائع الفرنسيين - وهو ما تعبر عنه تلك السطور - توفق بالخصوص في الجزء الأول «تاريخ **التغذية**»، وهو بحث موثق على نحو جيد وعصري في روحه. إنه في نفس الوقت تاريخ للمواد،

* André BURGUIERE, «L'Anthropologie historique», in La Nouvelle Histoire, sous la direction de Jacques LE GOFF, Paris, 1978, Nouvelle édition, Bruxelles, 1988, pp. 137-164.

للتقنيات وللسلوكات الغذائية. لقد اتبع فيه المؤلف تصميما حسب المواضيع، مشيرا بذلك إلى مقاربة **بنيوية** أكثر منها حدثية. إن تاريخ الطبائع بالنسبة إليه لا يتضح من خلال سلسلة من الظواهر المثيرة ومن الابتكارات، بل عبر مزيج ثابت من السلوكات الموروثة (أي الثوابت) ومن ظواهر التكيف والإبداع.

* **الرواد.**

في زمن لوغران دوسي كان هذا النمط من المواضيع قد أخذ يختفي من الحقل التاريخي أو على الأقل يمر إلى المؤخرة. فمنذ نهاية القرن *17*، أصبح التنقيب العلمي الذي كان يقوم به أساسا بعض رجال الدين[1]، يتخلى عن التعليق على النصوص المقدسة لنشر المصادر العمومية. ثم ذلك ضمن عمل الإدارة الملكية على تشجيع وتسهيل نمو البحث العلمي حول تاريخ الدولة. إنه اتحاد مستديم : الدولة أسست رصيدا من المصادر العمومية التي تقدم للمؤرخين إمكانيات بحث وضعي (يستند على المصادر)؛ والمؤرخون ركزوا انتباههم على الأحداث ودواليب الحياة العامة. ثم إن الحركة الفلسفية، في غالبيتها العظمى، كونت تصورا مثاليا وسياسيا للمجتمع : فالإنسان حيوان اجتماعي تتحكم في قراراته الحاجة إلى الحرية والإنصاف والعقلنة. تاريخ المجتمعات كان عليه أن ينحصر في تاريخ للحياة العامة (تاريخ سياسي، تاريخ الدولة، تاريخ مختلف المؤسسات) وللتشكيلات الثقافية (فن وأدب)، وذلك طبقا للتصور الذي يرى أن الإنسان لا يكتسب بعدا اجتماعيا إلا داخل الحياة العامة.

إنها الرؤية التي ألهمت، وعلى نفس النحو، «روح القوانين»، «خطاب حول عظمة وانحطاط الرومان»، «قرن لويس *14*»، أعمال «الموسوعة»، أو في وقت متأخر إنتاج ما بلي[2] أو كوندورسي[3]. أما روسو فشكل حالة خاصة. فإذا كان أساس تبصره التاريخي - وهو الذي يتضح في «العقد الاجتماعي» - ينطبق على المحيط السياسي، فإنه يعتبر المجتمع نتاجا شقيا للتاريخ وليس جوهرا للتاريخ. كذلك، وهو يفترض تاريخا أصيلا، ما قبل - اجتماعيا، للإنسانية، تصور إمكانية تاريخ أنثربولوجي. لكن، وكما هو الشأن بالنسبة لبوفون ظل الكشف عن هذا التاريخ الأنثربولوجي مرتبطا بالشعوب التي تفتقد للتاريخ، أي المتوحشين.

وإذا كانت الشعوب التي لا تتوفر على كتابة وعلى «مآثر» (العبارة هنا تشير في القرن *18* إلى كل ما يشهد على الماضي) لها تاريخ، وإذا كان

بإمكان هذا التاريخ أن يمنح لحضارتهم دلالة ما، فإنه يجب العثور عليه في أساليب اللباس والتغذية، في تنظيم حياتهم العائلية، في العلاقات بين الجنسين، في معتقداتهم وطقوسهم. إن الطبائع هنا تحمل في طياتها التاريخ، لأنها تعوض المؤسسات.

في ظل الأنوار حمل بعض الرحالة والأطباء المنقبين أو الإداريين، في أواخر القرن 18، نظرة اثنولوجية حول المجتمعات التاريخية وبالخصوص حول مجتمعهم بالذات. وينتمي لوغران دوسي إلى هذا الوسط. لقد تفتح هذا التيار في عهد الثورة والامبراطورية ضمن مشروع مكتب إحصائيات شابطال وفرانسوا دو نوشاطو، الذي حاول وضع قائمة لأنماط الحياة بفرنسا. لكن، وبفعل عمل الأكاديمية السلتية على دفعها نحو دراسة المخلفات والمكتوم أزالت لها كل الحظوظ لتغيير اتجاه البحث التاريخي.

داخل هذا التيار، فضالة الأنوار، صمد، على الرغم من ذلك، تقليد قديم جدا، مثلته في القرن 18 مجموعة من المؤلفات تعنونت بـ«لوحة تاريخية» أو «التاريخ الطبيعي» لإقليم معين أو لأمة معينة، وهو التقليد الذي هدف، من خلال تحديد هوية المجتمع أو المنطقة، إلى إعادة بناء تاريخ عاداته وطرق عيشه.

هذا الهم قديم قدم الروح التاريخية. لقد نسينا كثيرا أن **هيرودوت**، أب التاريخ، كان يريد، في الاستقصاء الذي قام به «لكي لا يمحي الزمن أعمال الرجال»، وصف، وبدقة، عادات الليديين، الفرس، المساجيتيين أو المصريين لتفسير الصراع بين الإغريق والبرابرة. إن ما يحتفظ به المؤرخ من الماضي يستجيب، على نحو وثيق، مع ما يريد فهمه أو تبريره في المجتمع الذي يحيط به. لقد شكلت دراسة أصناف الحياة اليومية جزءا من الفكر التاريخي منذ أن كان الاهتمام الأساسي لهذا الأخير منصبا على رواية سير الحضارة وتقدمها. ثم أصبحت زائدة لما قامت الدول القومية، المكونة حديثا، بتسجيل **الذاكرة الجماعية** لتبرر بالماضي هيمنتها على تراب معين وطريقة تنظيمها للمجتمع.

* الوضعية وتاريخ الحدث.

في الواقع تعايشت في فرنسا إلى حدود بداية الجمهورية الثالثة مدرستان تاريخيتان : الأولى أكثر سردية، قريبة من النخب المسيرة، من النقاش السياسي، وريثة الإخباريين، متنبهة لإعادة بناء أصل المؤسسات أو

الصراعات؛ الثانية أكثر تحليلية، وريثة فلسفة الأنوار، متنبهة لوصف الطبائع والسلوكات الاجتماعية. وإذا كانت المدرسة الأولى، عشية *1914*، قد أجبرت الأخرى لاتباع مسالك الاجتهاد الخاص والبث الهاوي، فلأنها تمكنت أحسن من منافستها أن تمنح لنفسها قاعدة علمية. ثم إن تطور علوم اجتماعية شابة مثل **السوسيولوجيا**، دفع التاريخ لإعادة تحديد هويته انطلاقا من مجال جد محدد : أي أن ينكمش حول دائرة الدولة والسياسة. فالمثل الأعلى العلموي الذي سيطر على الأوساط الثقافية جعله يتبنى منهاجا متينا على غرار العلوم التجريبية : والحالة هذه كان العنصر الأساسي للواقع الملاحظ بالنسبة للتاريخ، والمعادل للخلية عند البيولوجي أو الذرة عند الفيزيائي، هو الواقعة التاريخية، أي **الحدث** الذي يقع في الحياة العامة.

لكن هذا الميل **الوضعي** لم يكن مستقلا كليا عن الضغط السياسي الذي مورس آنذاك على المعرفة التاريخية. لقد مجدت الوضعية العمل حول المصادر، وهو أمر نظر إليه كمجابهة ضرورية مع المعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية، لاسيما وأن الدولة بذلت مجهودا كبيرا لجمع وتنظيم رصيد الأرشيفات العمومية. وللامتثال لمقاييس النهج العلموي الذي أخذه البحث التاريخي على عاتقه، نزع هذا الأخير إلى خلط الذاكرة الاجتماعية بالذاكرة الوطنية والذاكرة الوطنية بذاكرة الدولة. فكل ظاهرة لا تبدو على الساحة العامة كان يتجاهلها المؤرخ ليس فقط لأنها لا تستجيب لفعل واعي وإرادي، بل لأنها خارجة عن الحركة التاريخية.

* نموذج ميشلي في القرن *19*

يجب الاهتمام بالمسار الاسطغرافي للقرن *19*، والانتباه بالخصوص للإلهام الرومانسي الممتد إلى أكبر المشاريع التاريخية، والذي تألق في عمل ميشلي Michelet. فمشروعه لـ «بعث شامل للماضي» دفعه إلى أن يصف، فضلا عن أشكال وتقلبات ممارسة السلطة، الشروط الواقعية للمسكوت عنه. فهو عندما يبين تأثيرات عادة غذائية، كاستهلاك القهوة، على إحساس وسلوك النخب في المجتمع الفرنسي خلال القرن *18*، أو عندما يصف الجو الدرامي لقرن لويس *14* المتميز بالأزمات الغذائية والبؤس الاجتماعي فإنه يكون قد عالج الواقع التاريخي، وبالأساس على نحو إيثنولوجي غير مباشر.

فهل نستغرب من التهميش الذي مارسه عليه التاريخ الوضعي، وفي

المقابل، التقدير الذي كنه له لوسيان فيفر، بإعلانه أستاذا لتاريخ الإحساس **والذهنيات** ؟ إن الأهمية التي أعطاها لحدسه (لأن المصادر لا تقدم سوى إرهاصات لإعادة بناء الواقع) ولقوته في الكشف عن خبايا الغير لرصد تصورات وإحساسات فترة من التاريخ ـ وهو الأسلوب الذي سينهجه الايثنولوجي ـ لم يكن لها أن تروق ذلك التيار الذي يرغب في بناء المعرفة التاريخية على أساس معالجة موضوعية وعلمية للواقع. لكن إذا كانت شعبيته شبه الروحية ومنحه للحركات الجماعية الكبرى غير الواعية جزئيا، دورا أساسيا في التاريخ، وميله إلى التقليل من قيمة الرجال الكبار والمؤسسات، قد جعلته مرفوضا لدى المدرسة الوضعية فإنها جذبت في المقابل مؤسسي الحوليات.

* مدرسة «الحوليات».

إن حصر الحقل التاريخي في مجال الحياة العامة يعبر بالتأكيد عن تصور ضيق وممركز ليس فقط للصيرورة التاريخية، بل للمجتمع في حد ذاته. ضد هذا التصور قامت مدرسة **الحوليات**. فكما هو الشأن بالنسبة للانطباعيين الذين نادوا بالتخلي عن ورشاتهم لاعتناق الهواء الطلق والذهاب لرسم الطبيعة «على نحو مباشر»، حرض مؤسسو الحوليات المؤرخين على الخروج من الدواوين الوزارية والمجالس البرلمانية من أجل ملاحظة «مباشرة» للفرق الاجتماعية، للبنيات الاقتصادية، باختصار لدراسة كل المجتمع في عمقه الأكبر.

لقد استجاب لهذا النداء مؤرخو الفترات الأكثر بعدا. أما تكتم المختصين في التاريخ المعاصر فلا يمكن إرجاعه، بالمعنى الصحيح للكلمة، إلى المحافظة السياسية : ذلك أن العديد منهم (بدءا بسينيوبوس[4]، الخصم الرسمي للحوليات) أظهروا أفكارا يسارية ومالوا في كتابتهم التاريخية إلى تقويم الحركات الثورية. لكنه (أي هذا التكتم) أخفى وراءه تصورا تراتبيا للصيرورة التاريخية جسدها بالضرورة المسيرون ـ رجال الحكومة أو الزعماء الثوريون ـ وأيضا المؤسسات (جهاز الدولة، البرلمان، الأحزاب السياسية، الخ) هذا التصور لم يمنح بعدا تاريخيا إلا لمن يبرر عن قرب أو عن بعد، الحائزين على السلطة ورؤيتهم للمجتمع.

ومن جهته، حمل موقف الحوليات شعبية معينة : يجب إعطاء حق المواطنة لتاريخ المستضعفين إلى جانب تاريخ الأقوياء. فالفلاح المغمور الذي يحسن تقنية الاجتثاث[5] داخل نسق من الرموز الموروثة ومشهد ثابت هو

فاعل تاريخي يساوي في أهميته ذلك الجنرال الذي ينتصر في معركة ما. لكن، وعلى نحو أكثر عمقا، قام هذا الموقف على أساس رؤية متعددة الأبعاد للواقع الاجتماعي. فكل بعد أو بالأحرى كل مستوى ينزع إلى رسم تاريخه الخاص، ويرغب في الوقت ذاته في إيجاد أسلوب تواصل مع المستويات الأخرى لصناعة حركة المجتمع. فبالنسبة لمؤسسي الحوليات لم يكن تاريخ الحياة اليومية إلا طريقة لمعالجة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. فهل بمجرد الرغبة في عصرنة شعارها تجدد اليوم اسمها ليصير الأنثروبولوجيا التاريخية ؟ إذا حاولنا تعريفها بمجالها، أي كدراسة للمألوف، في مقابل ماهو استثنائي أو حدثي، قد نجازف فنجد أنفسنا في نفس النقطة. وإذا صممت هذه الدراسة كوصف لإطار حياة فترة ما فسنعود إلى تاريخ الحياة اليومية بصورته الأكثر تقليدية. فمن المؤلف الهائل لفرانكلان[6] «تاريخ الحياة الخاصة : أخلاق، أساليب وعادات البارزيين من ق. 12 إلى ق. 18 » المنشور في أواخر القرن الماضي، إلى بعض مجلدات آخر سلسلة «تاريخ الحياة اليومية»، استمر نفس النمط من التنقيب الباسم والبسيط، الذي يرى أشكال الحياة اليومية كديكور للتاريخ الكبير، التاريخ الذي يصنع عبر صراع الإدارات المسيرة والمؤسسات.

* مجال التاريخ الانثربولوجي.

إذا كانت دراسة المألوف تتضمن تحليلا للتوازنات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي تقوم عليها القرارات أو الصراعات السياسية، فإنها ليست سوى تاريخا اقتصاديا واجتماعيا. ثم إن تعريفا عبر نوع المصادر المستعملة في هذا القطاع من التاريخ لن يكون أكثر إشعاعا. فتاريخ الحياة اليومية لا يصير انثروبولوجيا بالمرور من المصادر السردية والخارجية إلى المصادر **السريالية**. إنه ينفذ فقط إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. ذلك ما أراده مؤسسو الحوليات بالمناداة إلى الاعتماد على جداول **الأسعار** أو على الجبايات الفلاحية لدراسة تذبذبات الإنتاج الزراعي، على الأرشيفات العدلية للتعرف على قوائم الثروات وتطور المواريث العائلية، على السجلات الخورية (أسلاف الحالة المدنية الحديثة) لإعادة بناء الحركة **الديموغرافية**.لكن في الوقت الذي تدون فيه هذه المصادر معطيات خام، دون أي وجهة نظر، أي صورة مبنية للواقع، فإنها تدعو المؤرخ إلى إعادة بناء المجموعات، مثلا بواسطة معالجة **إحصائية**، والتي (أي المجموعات) تكشف عن اتجاه ومنطق التطور.

هذه الإجرائية يمكن أن تؤدي إلى تبصر أنثربولوجي. فكما أن الإثنولوجي يستعمل المسافة التي يراها ضرورية بين ثقافته الخاصة وثقافة حقل ملاحظته للتخلص من مقولاته الخاصة وإعادة بناء النسق المنطقي للمجتمع الذي يدرسه، فإن المؤرخ يمكنه أن يستفيد من الطابع المجزء وغير المشيد للمصادر الخام، من أجل العثور، فيما وراء الواقع الظاهر على الآلية والمنطق اللذين من شأنهما تفسير ظرفية ما ـ ما نسميه بالفترة ـ أو تطور ما. ويمكن تطبيق نفس الإجراء على المصادر النوعية والأدبية في سياق يؤدي إلى اهتمام منسق بما تخفيه أو تهمشه الخطابات المهيمنة للمجتمع. لقد كتب مارك **بلوك** في مقدمته لـ «الملوك مُدَّعُو المعجزات» قائلا : «أخشى أن يعتبرني الأشخاص الذين منحتهم إرادتي مجرد ضحية فضول غريب وتافه» ... «إنها فضولية طريقكم الملتوية»[7] هكذا نعت أحد الأصدقاء الانجليز مشروعه. وإذا كان هذا الكتاب قد ظل نموذجا للانثروبولوجيا التاريخية[8]، فلأن ذلك يعود، ليس فقط إلى المشكل المدروس، ولكن بالأساس إلى الطريقة التي عالج بها مارك بلوك هذا المشكل، إلى فنية المسلك غير المباشر الذي نهجه للوصول مباشرة إلى نسق التصورات المكتوم.

* السلطة لا توجد في موقع قيامها.

إن أكثر الدراسات كلاسيكية وتكرارا هي تلك التي عمت المؤسسة الملكية الفرنسية والانجليزية. لكن المختصين في هذا المضمار، بما فيهم أولئك الذين اهتموا بنظرية الحكم المطلق، بملكية القانون الإلهي،تركوا جانبا الطقوس الاحتفالية ـ عموما عند التتويج ـ التي يمارس الملك خلالها سلطة شفائية : إنها بقايا شعائرية لم تليها الشهادات المتأخرة نفسها إلا قيمة حكائية ذات طابع فولكلوري إلى حد ما. والحال أن هذا الأمر الشاذ الذي ظل مرتبطا من الوجهة العملية بطقوس الملكيات الفرنسية والانجليزية، إلى حدود العصر الصناعي، لا يميزها فقط عن باقي الملكيات الأوربية، بل يكشف عن بعد سحري لصورة الملكية، على النحو الذي استمرت به داخل التمثلات الجماعية. «إن هذا الفولكلور، يقول مارك بلوك، يحمل من الدلالات أكثر مما يمنحه أي تأليف مذهبي» هكذا شُقت الطريق المؤدية من دراسة الفولكلور إلى انثربولوجيا تاريخية حقيقية. إن الفولكلور الذي ظل زمنا طويلا بيد هواة الأشياء الجذابة والخفية يحمل دلالات للمؤرخ، وبالضبط بسبب **هامشيته**. فتفاهته الظاهرية

داخل المجتمع تعد إشارة إلى أن دلالة مهمة استثمرت فيه وبقيت ضمنه. إن خاصية السلطة هي عدم وجودها في موقع قيامها؛ لذلك غالبا ما يعطي تاريخ المؤسسات الانطباع بتجميع المواعيد الفاشلة. طبعا لم تكن الوظيفة الأساسية لملك فرنسا أو لملك انجلترا هي الشفاء ـ الشعوذة، لكن التذكير العنيد بهذه الوظيفة الأصيلة أو الاسطورية في الطقوس الاحتفالية يدل على أنها استمرت في حملها معنى معينا في الأزمنة الحديثة : إنها تشكل، من الوجهتين الرمزية والجسدية في نفس الوقت، أساس الطابع المقدس (الشرعية) للسلطة الملكية التي اكتفت المؤسسات ورجال القانون بتأكيدها.

كل شيء يمر وكأن كل مجتمع، وهو يجري من أجل البقاء، يجد نفسه في حاجة لأن يمحو شفافيته، لأن يشوش المسالك على نفسه وعلى العالم الخارجي. إن الانثربولوجي معتاد منذ زمن طويل على التعامل مع مبدأ العتامة الذي يميز كل واقع اجتماعي. فهو يعرف أن عملية فهم المجتمع تمر دائما عبر الالتفاف حول ما يعلنه هذا الأخير عن نفسه. أما المؤرخون فيجدون صعوبة في الانسلاخ عن الميتولوجيا الرسمية التي غالبا ما ساهموا في إنشاءها وتبليغها. إن دراسة تاريخ الشعائر المرتبطة بالمؤسسة الملكية، دراسة تاريخ تقنية زراعية كالمحراث أو ممارسة استراحة الأرض، تتبع تطور استهلاك اللحوم أو استعمال هذه المادة المطبخية أو تلك، البحث عن تأريخ وتفسير ظهور طرق منع الحمل في فرنسا قبل ثورة *1789* : كل هذه القطاعات، سواء تعلق الأمر بتاريخ المؤسسات، بتاريخ التقنيات، بتاريخ الاقتصاد أو تاريخ الديموغرافيا، تصب في الانثربولوجيا التاريخية. فهي إذن لا تتوفر على مجال خاص. إنها تستجيب لإجرائية تربط دائما التطور بالصدى الاجتماعي وبالسلوكات الناتجة عنه أو المتغيرة بفعله.

إجرائية الانثربولوجيا التاريخية.

إن المؤلف القديم لفرانكلان «تاريخ الحياة الخاصة» وكتاب فيرناند بروديل «الحياة المادية والرأسمالية»[9] يعالجان نفس المواضيع : السكن، اللباس، التغذية، الخ، في فرنسا (بالنسبة للأول)، في العالم ما قبل الصناعي (بالنسبة للثاني). فرانكلان لا يقدم لنا إلا نوعا من الفهرسة للحياة اليومية، أما فيرناند بروديل فقد ألف كتابا في الأنثربولوجيا التاريخية. إنه لم يكتف بإحصاء الأشياء التي تغمر الكون اليومي، بل بيّن كيف عملت التوازنات

الاقتصادية الكبرى وحلقات التبادل على صنع وتحويل نسيج الحياة البيولوجية والاجتماعية؛ كيف عملت السلوكات على دمج الذوق والرموز المتكررة مع مادة غذائية معينة مستوردة منذ وقت قريب، من قارة أخرى ... أو من طبقة اجتماعية أخرى، محولة بذلك التجديد إلى تقليد.

ولتجديد التسمية القديمة «تاريخ الأخلاق» يمكننا تعريف الانثربولوجيا التاريخية كتاريخ للعادات : عادات فيزيائية، سلوكية، غذائية، عاطفية، عادات ذهنية. لكن هل هنالك من عادة ليست ذهنية ؟ يقول مارك أوجي[10] في محاولة حول إثنولوجية السلطة «يمكننا أن نعين للتاريخ وللإقتصاد دراسة موازين القوة»، «وللأنثربولوجيا دراسة موازين السلطة». إن خاصية الأنثربولوجيا قد تتمثل في دراسة الظواهر التي من خلالها يشار إلى مجتمع ما أو ثقافة ما، ظواهر ليست ذات دلالة ـ كي نستعمل لغة العصر ـ بل مدلولة، أي مهضومة ومستبطنة من طرف المجتمع.

ولنحترس من قفل هذا التعريف. الأنثربولوجيا ربما تستجيب أكثر إلى ظرفية منها إلى قطاع من البحث التاريخي. إنها تجذب إليها اليوم المناهج الجديدة والإشكاليات الجديدة، كما كان عليه الأمر في الخمسينات بالنسبة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. فإذا أخذنا بعين الاعتبار تطور محتويات مجلة الحوليات في الثلاثين سنة الأخيرة، نجدها تعكس وبدقة متميزة هذا الانتقال النظري. وعوض أن نرسم لوحة للأعمال المنجزة مؤخرا في ميدان الانثربولوجيا التاريخية، والتي قد لا تكون تامة، ولو اقتصرنا على أبحاث المؤرخين الفرنسيين، نأمل أن نشير إلى بعض نقاط التمركز النموذجية للأبحاث وللنقاش الاسطغرافي.

* تاريخ التغذية.

الأبحاث الأولى المنشورة تحت هذا الاسم في مجلة الحوليات عند نهاية الخمسينات، والتي جمعها مؤخرا هيمار دينكار تحت عنوان «من أجل تاريخ للتغذية»[11]، كان الهدف الرئيسي منها إعادة بناء تاريخ الاستهلاك : حصص الطعام الممنوحة لرجال السفن، لأعضاء جماعة دينية معينة أو لزبناء الفنادق، وذلك بفضل الوثائق المشيرة في نفس الوقت إلى كميات وطبيعة المواد الغذائية، وعقود الأجر (كتلك التي تمكن إيمانويل لوروا لادوري من دراستها فيما يخص منطقة لونغ دوك[12]) المحددة للنصيب العيني التي يلتزم المشغل بمنحها للمياوم

أو للرفيق في شكل حصة غذائية. هذه الوثائق ترسم في المدى الطويل منحنا متباينا للاستهلاك الشعبي، يعتبر انعكاسا غير مباشر للتذبذبات الاقتصادية والديموغرافية : ارتفاع حصة اللحم في القرن 15 وإلى حدود بداية القرن 16، في فترة «الإنسان الناذر» والمرعى الوافر، ثم التقلص التدريجي إلى حد الاختفاء التقريبي لنصيب اللحم من النظام الغذائي لدى الطبقات الشعبية من أواسط القرن 16 إلى أواسط القرن 18. إن الضغط الديموغرافي وثبات مردودية الإنتاج الزراعي أديا إلى حرث شامل للأراضي. كانت النتيجة : اتساع حقول القمح بشكل كبير وانتقاص المواشي. فانهيار الأجور ودخل المزارعين الصغار من جهة. وإفقار النظام الغذائي للغالبية العظمى من السكان من جهة أخرى، سارا على نفس النحو.

* التغذية، ظاهرة ثقافية واقتصادية.

كلنا نعرف ذلك الميكانيزم البسيط الذي يخضع النظام الغذائي لـ«القفزات المالتوسية» أي التقلبات المعكوسة للشحنة الديموغرافية والموارد المتوفرة. لكن، عبر التطور الذي يتحكم فيه، وبشكل مباشر، تذبذب التوازنات الاقتصادية والاجتماعية، تظهر مقاومات أو مسالك ضالة : هكذا نلمس المسلك الغريب للذرة المستوردة من أمريكا، منذ أول الرحلات، والتي استقبلت بصمت من طرف المستهلك الإسباني. وبينما لم تظهر إلا على نحو ضيق في فرنسا انتشرت بشكل واسع في البلقان. ثم رجعت إلينا تحت اسم «القمح التركي» بعد قرن من الزمن لتندمج في النسق الزراعي لجنوب غرب فرنسا وتنقذ السكان من المجاعات الدورية. نفس الشيء يلاحظ فيما يخص شجرة الزيتون التي صعدت في القرن 16 نحو الشمال وعمرت منطقتي لونغ دوك وبروفانسيا، حاملة للتغذية الشعبية بديلا ثمينا للذهنيات الحيوانية التي كانت تفتقدها مائدة الفقير. إنها مفارقة غريبة للكرونولوجيا والتبادلات الثقافية : ففي الوقت الذي طرد فيه الإسبان الماران والموريسكوس، أو طاردوا فيه الكونفيرسوس تبنوا، وعلى نحو واسع، زيت الزيتون كمادة طبخ أساسية، علما أنها كانت تعتبر منذ زمن طويل زراعة محرمة. «إجمالا، يقول مارك بلوك، في مقال له بـ«الموسوعة الفرنسية»،تاريخ التغذية كالآلة المسجلة، تدون فيها، مع تأخيرات ناجمة عن مقاومات سيكولوجية، كل تقلبات الإقتصاد»[13].

لكن التجديد الغذائي، لا يتجذر، عند ضغط النقص أو المجاعة، إلاإذا

استجاب لمقاييس ذوق المنطقة. فزراعة البطاطس مثلا لم تقم في بداية الأمر بالمناطق الفرنسية ذات التربة الملائمة، وإنما في تلك (ليموزان وأوفيرنيا) التي أعطت بديلا لقوت أساسي وتقليدي، هو القسطلة. من هنا نلاحظ الاستمرارية الغريبة للذوق والفواصل الإقليمية في العادات الغذائية لفرنسا المعاصرة والتي كشفت عنها خريطة الذهنيات ومواد الطبخ الأساسية المرسومة بواسطة تنقيب للوسيان فيڤر : اختيارات نعثر فيها على أثر الهجرات النباتية كصعود شجرة الزيتون نحو الشمال، على الانساق الفلاحية القديمة كالمحافظة على استعمال صهارة الخنزير في بعض مناطق الغرب التي صارت غنية بالكلأ ومنتجة للحليب، أو الحدود الثقافية كالخط الفاصل بين جنوب الجورا المستهلك للزيت والشمال المستهلك للزبد.

فهل يمكن تفسير التفرقة والاستمرارية في العادات الغذائية، وبرودتها النسبية إزاء التحولات الطارئة على الوسط الاقتصادي، بآلية الإخلاص للقواعد المعروفة فقط ؟ إن الاختيارات الغذائية تشكل إحدى الدعائم المهمة للهوية الثقافية. لكنها أيضا نتاج للتفرقة الاجتماعية. فما يميز الأبحاث الأخيرة حول تاريخ التغذية، وبالخصوص تلك التي ارتبطت بالتنقيب في الحياة المادية، والتي عملت الحوليات على انطلاقها، تكمن في أنها لم تستعمل سوى المصادر ذات المحيط الاجتماعي المتميز : فدخول القهوة والتبغ أو كحول القُطارة لا يمنح دلالة معينة إلا إذا توفر المؤرخ على إمكانيات تحديد الأثر الحاسم لهذه المواد الجديدة وتنقلها الاجتماعي.

* التغذية إشارة قوية على مستوى العيش.

الموارد الغذائية المتوفرة عند حالة معينة من الإنتاج الفلاحي والمبادلات تتميز ليس فقط بتوزيع غير عادل كما هو الشأن بالنسبة للموارد الأخرى، طبقا للانشقاقات الاجتماعية، بل أيضا، وإلى حدود بداية العصر الصناعي الأول واعتبارا من أن التغذية إشارة قوية على مستوى العيش، باستنادها على الذوق الدال، من الوجهة الافتخارية على فوارق المجتمع، وذلك إما عبر الإفراط (رمز للهيمنة)، وإما عبر الامتناع عن بعض المواد (رمز للتبعية) : هكذا فإن الميل إلى الصلصة والأطباق المُتَبّلَة جدا شكلت، إلى حدود القرن *18*، نموذج الذواقة الأرستقراطية. هكذا أيضا، وعلى العكس من ذلك، يمكن النظر إلى مكانة الزبد في الحياة الفلاحية البروطونية إلى حدود بداية القرن *20*. فقد مثل المورد

الرئيسي وأحيانا الوحيد لحصول الفلاحين الصغار على النقد؛ إلا أنه كان يباع بأكمله ويبعد من استهلاكهم الخاص. إن الفلكلور، خصوصا عبر الأساطير المرتبطة بالساحرات السارقات للزبد، يشهد على هذا الإقصاء.

إن التفرقة والمواجهة الاجتماعية تجدان تعبيرا لهما في العادات الغذائية كما يشهد على ذلك تاريخ الخبز.

في فرنسا، قبل الثورة،كل شريحة اجتماعية كانت تستهلك نوعا خاصا من الخبز، لدرجة أن أوليفي دي سيريس أرجع هذه الأنواع المختلفة إلى الرتب الثلاث في المجتمع. ومن جهته أعلن مالوان سنة *1766* : «ترك الخبز الأسود للشعب لكي لا يتعود على الوفرة». بالفعل كانت الطبقات الشعبية تستهلك إما «الخبز الأسمر» (pain bis) أو الخبز المعروف بـ (pain de brode) المصنوع من الغليث (خليط القمح والسلت) وهو في نفس الوقت الخبز الأكثر سوادا والأكثر غذائية. أما الطبقات الراقية فكانت تستهلك إما الخبز الخالص (pain de chapi-tre)، ذو البياض الناصع والمعجون من دقيق الخرطال المغربل بدقة (المعادل لخبز اللب الحالي)، وإما الخبز المسمى (pain de gonesse) المصنوع من الخرطال الجيد (المعادل للخبز المألوف الاستهلاك).

إن الجواب الاستفزازي والمزيف لماري أنطوانيت «إذا لم يجدوا خبزا فليأكلوا الفطيرة» يجسد جيدا الرمز الاجتماعي المرتبط باستهلاك الخبز قبل ثورة *1789* ؛ إنه يتضمن علاوة على ذلك خاصية تنبؤية، لأن الثورة أعلنت الفطيرة للجميع. وبالضبط، فرضت الثورة قواعد صارمة بخصوص تركيبة الخبز ووجهت شعب الحواضر نحو استهلاك الخبز الأبيض ؛ إنه في الوقت ذاته توسع اجتماعي وتراجع غذائي، لأن هذا الخبز الصافي ولكن المفتقر للحراريات والذي كان يمثل غذاء اصطحاب بالنسبة للأغنياء، أصبح يشكل المادة الغذائية الأساسية للاستهلاك الشعبي داخل المدن الكبرى. أما البطاطس فسارت في اتجاه مخالف : فبعدما كانت، وإلى حدود الثورة الفرنسية، محتقرة من طرف الأرستقراطية، عرفت خلال القرن *19*، حسب تعبير مارك بلوك «ارتقاءا اجتماعيا» حقيقيا.

لقد استطاع جون بول آرون، عبر عدة مؤلفات حول الإحساس الغذائي في القرن *19*، أن يبين كيف أصبح في المائدة موقع استثمار مفضل للثقافة البورجوازية[15]. فبعد أن اكتسبت الذواقة الفرنسية تقاليد الموائد

الأرستقراطية، وخضعت للتأثير المعقلن للذوق الإيطالي الذي يُلزم في توالي الأطباق تقدما معلوما من المالح إلى الحلو، حلت، تحت الثورة، بمطاعم فاخرة فتحها قدماء العارفين بالمطابخ الأميرية. إنها أصبحت في القرن 19 مناسبة للمخالطة بين الناس وظفت فيها البورجوازية حاجتها في المتعة والاستهلاك التفاخري. ففي مقابل الفقر الغذائي للبروليتاريا الحضرية، أكدت البورجوازية موقعها عبر التفنن والإفراط. هكذا إذن يلتقي، في تطور السلوكات الغذائية، التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأنساق الثقافية. إن المهمة الدقيقة للأنثربولوجيا التاريخية تكمن في الانتباه إلى هذه الملتقيات.

* تاريخ الجسم.

إلى عهد قريب جدا، كانت الأنثربولوجيا في فرنسا تدل على دراسة المميزات الفيزيائية للأنواع البشرية وتطورها (وهو المعنى الذي ساد في القرن 18). وبتأثير من المدلول الأنجلو - ساكسوني أصبحت تضم اليوم مجال الإثنولوجيا. لكن، وبروح المعاكسة التي يتسم بها المؤرخون، ركز هؤلاء على المجال الأول، وإن كان هذا التركيز قد استغرق زمنا طويلا. لقد أعاق أبحاثهم تساؤل مسبق : هل الجسم موضوع للتاريخ ؟ هل يمكن الكشف، بين تطور النوع والدورة البيولوجية، عن أشكال تغير أكثر تعقيدا، مدينة للوسط التاريخي كما للوسط الثقافي ؟

هل يمكن اعتبار التحولات الطارئة على المظهر الفيزيائي للبشر شكلا من أشكال التغير الاجتماعي ؟ لقد بينت الأبحاث التي قام بها الدكتور سوطير Sutter انطلاقا من مقاسات مرشحي المدرسة التقنية منذ أواسط القرن 19، وتلك المنشورة مؤخرا من طرف لوروا لادوري ومجموعة من الباحثين التابعين لمركز الأبحاث التاريخية انطلاقا من ملفات القياسة الإناسية للمجندين، نموا منتظما لمتوسط قامة الفرنسيين منذ قرن[16]. هذا الارتفاع المحصل عليه بالخصوص بواسطة تراجع عدد الأشخاص ذوي القامات القصيرة يبدو مرتبطا بالتقدم الاقتصادي وبتحسن شروط العيش : فمنذ القرن 19، أصبح متوسط القامة عند الرجال، وبشكل واضح، أكثر ارتفاعا في فرنسا الشمالية والشرقية، أي في فرنسا الأكثر نموا. إنها ترتفع مع المستوى الاجتماعي مثلما ترتفع مع مستوى التربية.

إن النظام الغذائي للمرحلة الأولى من الطفولة وللمراهقة، وأيضا

كل العناصر المرتبطة بنوعية العيش، التي يعرفها الفرد خلال سنوات النمو - بما في ذلك التربية - بامكانهم كبح أو تقوية نموه الفيزيائي فالعلائق الإحصائية تؤكد بسهولة التطور المترابط للقامة ورغد العيش. فهل ينسجم التوجه الحالي للبيولوجيا، الذي ينكر كل تأثير للوسط على انتقال الخصائص الوراثية، مع تفسيرات المؤرخ الذي يجعل من الوسط السوسيو - اقتصادي المسؤول عن كل التغيرات الحاصلة في المظهر الفيزيائي للبشر ؟

* علاقة تاريخ الأمراض بالأزمات السوسيو - اقتصادية.

الأعمال الأخيرة حول تاريخ الأمراض والأوبئة تدعو إلى الاحتراس من التأويلات البيولوجية المحضة والتأويلات السوسيو - اقتصادية الضيقة. بالنسبة «للوفيات» الكبرى التي عرفتها أوربها قبل الثورة الصناعية، تمكن المؤرخون الديموغرافيون (خصوصا موفري[17]، غوبير[18]، باريل[19]، هذا الأخير يقترح فضلا عن ذلك رأيا مخالفا) من إبراز العلاقة الوثيقة، في هذه الأزمات، بين انفجار أسعار الحبوب والارتفاع العنيف للوفايات. فالتقويم الزمني للوفايات والذي يعرف أولى هجماته خلال الشهرين أو الثلاث أشهر التي تسبق الحصاد، يشير إلى العلاقة السببية بين ارتفاع الأسعار الذي يلحق الحصاد الرديء والنفاذ السريع للمخزونات، الشيء الذي يرمي بالناس الأكثر فقرا إلى المجاعة في الشهور الأخيرة من «السنة - الحصاد» ويؤدي إلى ارتفاع نسبة الوفايات. وبحكم المجاعة، تستمر هذه النسبة في الصعود بسبب الأوبئة التي تجتاح السكان المنهكين، كما تشهد على ذلك الوثائق المتعددة (مثلا مراسلات الأمناء) وفي نفس الوقت منحنى الوفايات الذي غالبا ما يتصاعد نحو الأعلى خلال شهور الصيف.

إن الظواهر الوبائية التي تبدو - على الأقل بالنسبة للقرن 17 - وكأنها تنصهر بما فيه الكفاية في الوثيرة الدورية للأزمات الخرطالية، لم تعمل إذن إلا على تضخيم الكوارث الاجتماعية - الاقتصادية. فالوسط الجرثومي لا يصير هجوميا وفتاكا إلا في الوقت الذي يصبح فيه البشر، وقد أضعفهم سوء التغذية، عاجزين عن مقاومته. حقا إن «التحرك الأولي» (primum movens)لهذه الأزمات يعود إلى خطر المناخ، لكن المسؤولية التاريخية ترجع إلى المجتمع الذي ينسج مصيره البيولوجي الخاص عبر تناقضات ومآزق نظامه

الاقتصادي.

لقد بدا هذا التصور مطمئنا بالنسبة للمؤرخ الآخذ بمبدأ المركزية البشرية (anthropocentrisme) لدرجة أن العديد من الباحثين أرادوا توسيعه ليشمل كل أنواع الأوبئة. والحالة هذه، إذا كان فعلا طاعون *1348* قد اندلع - كانفجار نووي - في أوربا، وهي تعرف تضخما ديموغرافيا، أي ذات قابلية كبرى للانجراح البيولوجي ؛ وإذا كان فعلا أيضا أن الطاعون لم يغادر فرنسا نهائيا (آخر وباء هو ذاك الذي شهدته مارسيليا سنة *1720*) إلا بعد أن تحررت هذه الأخيرة من المجاعات الدورية الكبرى (آخرها هي تلك التي أعقبت الخريف الرهيب لسنة *1709*)، فكم من أوبئة انتشرت دون مساهمة الحصاد الرديء ؟ بخصوص فرنسا نستطيع أن نلاحظ، أنه في الوقت الذي بدت فيه وكأنها قد تغلبت على الطاعون، استمرت في مكابدة الهجومات الدورية للجدري، للرحضاء طيلة القرن *18*، والكوليرا في قلب القرن *19*.

* التاريخ الطبيعي للأمراض.

اقترح غرمك M. D. Grmec[20] مؤخرا تاريخا للأمراض المعدية على نحو مستقل، تاريخا بيولوجيا محضا. فمرض ما يكون فتاكا خلال فترة معينة من التاريخ قد يتراجع فيما بعد ليس لأن الناس توصلوا إلى القضاء عليه، بل لأن باكتيريا أخرى حلت محله. فمنذ القدم، لم تنتشر كل الأمراض الممكنة، وباستمرار، على مجموع الكرة الأرضية. وأوضح لوروا لادوري أن التوحد البيولوجي للعالم ظاهرة متأخرة، لاحقة على اكتشاف أمريكا[21]. في الواقع، لم تعمل مجتماعتنا على مواجهة كل التهديدات الباكتيريولوجية في نفس الوقت، بل تصدت لمجموعة من الأمراض، لأنظمة نوزولوجية تتطور طبقا لآلية التنافر. فالباكتيريا الجديدة لا يمكنها الاندماج في النظام إلا بطرد مرض آخر، مشكّلة بذلك ترياقا له (antidote). على هذا الأساس يوجد مثلا تنافر بين البرص والسل، الشيء الذي يفسر أن صعود المرض الثاني في الفترة المعاصرة يصادف في أوربا غياب المرض الأول. وحسب غرمك فإن تعارضا من نفس النمط قد يصح بين باكتيريا الطاعون وباكتيريا الانسلال المستر (Pseudo-tuberculose).

وبما أن هناك تاريخا طبيعيا للمناخ، يمكن الحديث عن إمكانية تاريخ طبيعي للأوبئة. فالطاعون الأعظم لسنة *1348*، نتج، على الأقل، عن تغير

في عدد الفئران، كما عن تغير في أعداد سكان أوربا : لقد منحت هجرة الفأر الأسود للطاعون ركيزة قامت، بالإضافة إلى كثافة السكانة البشرية، بدور الخزان والثوي الدائمين. لا يكفي إذن أن نضع الظواهر في سياق اجتماعي - اقتصادي لإعطائها بعدا تاريخيا. فإذا ظهر أنها تخضع لميكانيزمات فيزيائية لا تتحكم فيها المراقبة الاجتمية، فلا داعي لإخفاء هذه الاستقلالية.

إن إعادة بناء تاريخ ظاهرة وبائية هو أيضا تحليل للأسلوب الذي استوعب به التنظيم والقوانذ الثقافية للمجتمع ضغوط الوسط الطبيعي وطرق مواجهتها ؛ إنه كذلك استخراج للرهان الاجتماعي ولأشكال العلاقات المرتبطة بالجسم، التي تعبر عنها كى فترة عبر سلوكاتها البيولوجية. إن المهمة المتميزة للأنثربولوجيا التاريخية في هذا المضمار تتمثل في إبراز نقاط وميكانيزمات التمفصل بين الضغوط الطبيعية والقواعد السوسيو - ثقافية. لقد لوحظ مثلا أن السلوكات الهيستيرية، بالمعنى النفساني للمصطلح، والتي عالجها شاركو في بداية القرن بمصحة ساليتريار، سارت نحو الإندثار بفعل التأثير الصناعي لمجتماعتنا باستثناء ما بقي على هوامشها العتيقة، وذلك على نحو متآكل وشعائري جدا : إنها حالة «تارانتيو» منطقة بوي الإيطالية، الذين درسهم الإثنولوجي الإيطالي دومارتينو [22].

هذا الاختفاء يستجيب، من دون شك، لتحول في أنماط تعبير الوجدان،وخصوصا التعبير الجسماني. ففي نظام اقتصادي يقوم على أساس التنظيم والإدخار والانتاج، تنضبط السلوكات بقوة، أو بالأحرى تمارس اقتصاد الجسم على نحو أمثل، وتبحث عن الامتثالية والحياد من أجل الحفاظ على تجانس ومرونة النسيج الاجتماعي. أما قبل الثورة، فنجد في فرنسا، لدى الفلاحين والطبقات الشعبيةالحضرية الخاضعين للقالب الديني الزهدي والزجري، بقايا اللجوء إلى الخطاب البدني، إلى التعبير، عبر الجسم، عن غرائز جنسية مكبوتة عندما يتعلق الأمر بحل ألم نفسي أو حالة صراع. لقد حلل لورا لادوري هذه الظاهرة جيدا عند دراسته للكلفانيين معتمدا في ذلك على الكتابات الأولى لفرويد ؛ وبإمكان الباحث السعي إلى تطبيق نفس هذا النمط من الدراسة على ظواهر أخرى من الذعر، مثل »«مختلجو» مقبرة سان ميدار، وهو ما يمثل انمساخ الجَنْسينيةَ Jansénisme الشعبية البارزية.

*** سلوك وتنظيم المجتمع.**

اقترح نوربير إيلياس[23] في مؤلف نموذجي فرضية عامة حول تطور أنماط السلوكات، وبالخصوص علائق الجسم في الحضارة الأوربية[24]. فانطلاقا من القرن 16 قد يكون المسار الحضاري فرض في البداية على الطبقات المسيرة، ثم، وبالتدريج، على كل المجتمع، عن طريق القوالب التربوية (لاسيما المؤلفات العديدة حول «التهذيب الولداني»)أسلوبا من الحشمة والانضباط الذاتي إزاء الوظائف الفيزيولوجية، ومن الاحتراس اتجاه الملامسات الفيزيائية. ويمكن اعتبار الحجب وافتراق الأجسام، على مستوى السلوكات الفردية، ترجمة للضغط التنظيمي، أي العصراني، الذي مارسته الدول البيروقراطية الحديثة التكوين على المجتمع. إن الفصل بين مستويات السن، وتهميش المنحرفين، وسجن الفقراء والمجانين وانهيار التكافلات المحلية تنتمي كلها إلي نفس الحركة الشاملة، المتفشية واللاشعورية، لإعادة تطويع الجسم الاجتماعي.

إن مجموعة من الأبحاث (تمتد حتى إلى العصر الوسيط) تصب اليوم في هذا التاريخ المعقد لمشركة الجسم : لنأخذ مثلا شكلا من المحاذاة الفيزيائية المألوفة كالتفلية (تفلية القمل). فهي إحدى طقوس المخالطة التي انتشرت في كل الشرائح الاجتماعية في القرن 13 (كما يلاحظ ذلك في قرية مونطايو)، وأصبحت شعبية في بداية القرن 16. لكنها صارت فيما بعد وخصوصا في القرن 18، إحدى البقايا غير اللائقة والمحتقرة في الوسط القروي ؛ أو، على العكس من ذلك، تلك الإشارة الذراعية التي تعبر عن التنازل أو الشتم والتي تظهر بثبات مدهش من القرن 13 إلى 20 ضمن الفهرس السيميائي للجسم. إن البحث الذي يقوم به جاك لوغوف حول تاريخ **الإشارات** قد يُمَكِّن من استخراج، عبر تطور أساليب الصيانة وتقنيات الاستعمالات ولغة الجسم، ميكانيزمات الوضام والإنثناء، المنافسة، الصمود أو التقليد، التي تميز التاريخ الاجتماعي للجسم.

* تاريخ السلوكات الجنسية.

تاريخ السلوكات الجنسية يشكل أعظم مشكل في تحديد مجال وأدوات خاصة للانثروبولوجيا التاريخية، ورسم إمكانيات مقارباتها. كيف يمكن دمج **الجنس** في حقل المؤرخ ؟ كممارسة ؟ المصادر الديمغرافية أو العدلية تزودنا بعدد معين من العلامات التي نستطيع من خلالها إعادة بناء تطور الممارسات الجنسية : فالتسجيل المنسق **للولادات** في السجلات الخورية الفرنسية،

انطلاقا من أواسط القرن 17، يمكن من رصد، على مستوى خورية، منطقة مجهرية أو مدينة، منحنى الولادات غير الشرعية والحبولات ما قبل الزواجية، وذلك إلى حدود الثورة، ومن ثم تتبع تذبذبات الممارسة الجنسية الخارجة عن الزواج. في هذا السياق نورد إيضاحا نسبيا : أدلى جون لوي فلاندران[25] بفرضية، في حقيقة الأمر صعبة الفحص عبر شواهد أكثر مباشرة من التميز الحاذق لذميي (Les Casuistes) القرن 17، مفادها أن نمطين من السلوكات الجنسية تعايشا حتى في الأوقات الأكثر صرامة لفترة ما قبل الثورة : سلوك زواجي يحترم المحرمات التي تضرب ممارسات منع الحمل، وسلوك خارج عن الزواج (إما قبل أو خارج **الزواج**) يستعمل أساليب منع الحمل. إن تميز الذميين مثل سانشيز الذي يعتبر خطيئة أونان (أي ممارسات منع الحمل) من الفواحش الكبرى في حالة الاستعمال داخل الزواج، شجع ضمنيا هذه الإزدواجية. وحتى إذا وضعنا بين مزدوجتين إمكانية سلوك خاص بالممارسة الجنسية الخارجة عن مؤسسة الزواج. فمن الواضح أن تسجيل الولادات غير الشرعية لم يكن يتم أبدا على نحو منسق كما هو الشأن بالنسبة للولادات الشرعية، فالإجهاض وقتل الأطفال الحديثي الولادة، والتوليد السري بالخصوص والأبوة المخدوعة في حالة الزنى، تخفي كلها، في كل فترة كيفما كان تنبه العدالة أو الجماعة قسطا هاما من هذه الولادات. إن أبحاثا، مثل تلك التي قام بها دوبوف[26] حول مدينة نانت اعتمادا على سجل بيانات الحمل، تمكن من مقاربة دقيقة جدا للظاهرة وتسمح بتحليل أكثر وضوحا : فإذا لمسنا، في النص الثاني من القرن 18 ارتفاعا للممارسة الجنسية الخارجة من مؤسسة الزواج والتي تظهر في السجلات الخورية عبر تصاعد جلي لنسبة الولادات غير الشرعية، فإنه من الأليق التأكيد على النزعات الجديدة لهذه اللاشرعية، والتي تترجم مناخا وجدانيا وأخلاقيا جديدا : فهذه الولادات تعد، وعلى نحو متناقص، ثمرة علاقات غرامية خَدَمِيَة أو مغامرات على هامش التقاليد الاجتماعية، والتي لم تنجح في بلوغ الزواج. إنها تستجيب أكثر فأكثر لروابط بين أطراف تنتمي لأوساط اجتماعية متلائمة، روابط كان بإمكانها أن تختم بالزواج.

* تحول السلوكات الجنسية في نهاية القرن 18.

إن منحنياتنا الديموغرافية لها قيمة عظيمة .فإذا كانت الولادات غير الشرعية لا تقدم في حد ذاتها سوى إشارة ذات اتجاه غير أكيد، فإن تطورا

موازيا لنسبة اللاشرعية ولنسبة الحمل ما قبل الزواجي، يأخذ معنى بديهيا. والحالة هذه، فإن كل المنحنيات النابعة من مختلف المونوغرافيات الخاصة بالخوريات القروية أو الحضرية، التي نتوفر عليها الآن والتي تغطي مختلف أقاليم فرنسا ما قبل الثورة، تشير مع فوارق دقيقة، بين منطقة داخلية أو ساحل نورماندي مثلا المتميزان بنوع من الإباحة، والحوض الباريزي المطبوع بالامتثالية، إلى نسب ضعيفة جدا بخصوص الولادات غير الشرعية والحبولات ما قبل الزواجية في النصف الثاني من القرن 17 وبداية القرن 18 ؛ وعلى العكس من ذلك، فإنها تسجل، كلها تقريبا، ابتداءا من أواسط القرن 18، ارتفاعا متوازيا للاشرعية وللحبولات ما قبل الزواجية. إنها دلالة على التحول الأكيد للسلوكات والأخلاقية الجنسية.

لكن كيف يمكن تفسير هذا التطور ؟ هل هو ناتج عن بروز أخلاقية جنسية جديدة وإحساس جديد، أم عن مجرد فتور للضغوط بعد التطبيع الزهدي الذي أراده وحققه الإصلاح الكاثوليكي ؟ إن ثغرات السجلات الخورية للقرن 16 وللنصف الأول من القرن 17 تمنعنا من تمديد المنحنيات نحو زمن أكثر بعدا. على أن هناك مصادر أخرى، قابلة إلى حد ما للتكميم، مثل النصوص القضائية (الملكية، الدينية أو البلدية) أو الشواهد، تمكننا من ضبط المناخ الأخلاقي ونمط السلوكات. فأبحاث جاك روسيو[27] حول الجنوحية الجنسية في مدن جنوب شرق فرنسا، خلال القرنين 15 و 16 بالخصوص، تقدم صورة عن مجتمع يبيح الممارسة الجنسية المراهقة والرجالية : فالعهارة المنتشرة بكثرة لم تكن عارا، بل الأكثر من ذلك غالبا ما كانت تستقر في مؤسسات رسمية، كمراكز عليا للمخالطة الرجالية، تُسَيِّرُها، أو على الأقل تراقبها السلطات البلدية. أما عمليات الغصب فكانت كثيرة الوقوع وخفيفة العقاب.

وأخيرا يجب التنبه إلي اللهجة الجريئة التي عبرت بها نصوص تلك الفترة عن أمور الحب. لقد كانت النُغُولة من أمور الفساد المألوفة والمنتشرة. كل شيء يشير أن نوعا من حرية الأخلاق ساد في مجموع المجتمع. أما النصف الثاني من القرن 16 فقد شهد إغلاقا تدريجيا لبيوت البغاء وظهور تشريع أكثر صرامة اتجاه الولادات غير الشرعية، وهما يشكلان، من بين إجراءات أخرى، دلالات حول التصلب الأخلاقي والانكماش القهري للجنس داخل الحياة الزوجية. وفي الواقع لا تكتسب الممارسات معنى معينا إلا بالعلاقة مع الدليل

الذي يلهمها. ولكن إلى أي حد كانت هذه الأخيرة تابعة للأدب اللاهوتي الغزير الذي كانت له وظيفة تحديد الأخلاقية الزوجية وتعيين الممارسات الجنسية المسموحة والممنوعة ؟

أبان ميشيل فوكو مؤخرا، في محاولة براقة جدا حول تاريخ الجنس، إلى أي حد عملت الحضارة الغربية علي سجن وامتصاص الجنس داخل خطاب لامتناه[28]. معنى ذلك أنها لم تقم فقط بإخفاء الممارسات تحت مجموعة من التعاليق الدينية، القضائية، الطبية، السياسية، بل جعلت من الحاجة إلى التكلم فيه، أي في نفس الوقت تكتم واعتراف بالجنس، شكلا من المتعة وأسلوبا لممارسة الجنس. وهو أمر لا يعني أن كل الأنماط الخطابية كانت تتواصل فيما بينها حول هذا الموضوع. فلاشيء يدل مثلا أن الجدالات بين اللاهوتيين الذميين والمتشددين، في القرن *17* أو حتى الأوليات الدينية للزواج التي كانت تلقن للأكليروس العامي، قد حظيت بأدنى اهتمام من طرف عامة الناس غير المثقفين.

* منع الحمل ممارسة قديمة.

من غير المعقول طبعا أن نفسر كل تحول في السلوكات الجنسية بالتحول الطارئ على الذهنيات الدينية. لنأخذ مثلا ظهور السلوكات المالتوسية : لقد كان فيليب أرباس أول من أوضح، في مؤلفه «تاريخ سكان فرنسا ومواقفهم إزاء الحياة»، هذه النقلة الهامة في السلوكات الديموغرافية، والتي موضعها عند نهاية القرن *18*[29]. إن ما أسفرت عنه الدراسات الدقيقة الأولى حول تطور الخصوبة الشرعية، والتي أشارت إلى قطيعة في حوالي الثورة الفرنسية، جعلت بعض المؤرخين لا يترددون في أن يروا في «مراقبة النسل» (birth control) الفرنسي نتاجا للثورة. فالضعف العام للشعور الديني في أواخر القرن *18* أدى بالأزواج إلى اختراق المحرمات المعلن عنها من طرف الكنيسة بخصوص ممارسات منع الحمل. إن الثورة الفرنسية، وخصوصا التجنيد، بانتزاعهما الشبان من نطاقاتهم المحلية، ساهما، على نحو واسع، في نشر تقنيات غير سحرية لمنع الحمل، مثل العزل (coïtus interruptus) الذي أدانه اللاهوتيون بشكل خاص.

نمو الأبحاث في **الديموغرافيا التاريخية** يجبرنا اليوم على التنقيب بعيدا في الزمن عن انتشار ممارسات منع الحمل. ففي الحوض الباريزي ظهرت هذه الأخيرة عند الفلاحين في العقدين الأخيرين من القرن *18*، لكن، ومن دون

شك، منذ أواسط القرن عند سكان المدن. واعتقد لويس هنري أن بعض شرائح الطبقات المسيرة لعبت دورا طلائعيا في هذا المجال : فالأرستقراطية[30] (كما تؤكد ذلك، بشكل واضح، بعض الرسائل التي بعثتها سيدة سيفينيا لابنتها) أو بورجوازية مدينة جنيف، حددتا النسل منذ النصف الثاني من القرن 17 [31]. على أن الدراسة التي قام بها مؤخرا بيرنود[32] أبانت بخصوص المدينة المذكورة، أن هذه الظاهرة مست، منذ هذه الفترة، كل المجتمع. وأخيرا فإن نسب الخصوبة الشرعية التي نحصل عليها بخصوص بعض الخوريات القروية لجنوب غرب فرنسا تشير إلى حد ما أن منع الحمل مورس على نطاق واسع منذ القرن 17.

لقد طرح فيليب أرياس فكرة مفادها أن المحرمات الدينية جعلت ولزمن طويل، منع الحمل ممارسة «غير معقولة». وباستبطانهم لهذه المحرمات نسي الناس التقنيات الفظة التي كانت معروفة ومستعملة في العصر القديم. ظهور هذه الممارسات من جديد يمثل إذن نقلة ثقافية حاسمة. هذه الفرضية نفسها تشكل موضوع نقاش. فمن نهاية العصر الوسيط إلى بداية القرن 17 ألمحت مجموعة من المؤلفات الدينية، وهي تقوم بإدانتها، إلى وجود، بل إلى انتشار كبير، لهذه الممارسات. وعلى هذا الأساس، يجوز التفكير، كما تدعونا إلى ذلك بعض المنحنيات الديموغرافية (بخصوص إيطاليا، انجلترا) أن تحديد النسل قد غاب مؤقتا في نهاية القرن 17 في بعض المناطق تحت ضغط الدعاية والقمع الدينيين، لينبعث في النصف الثاني من القرن 18، في وقت استرخت فيه قبضة الكنيسة.

لكن هل لعبت الكنيسة نفسها دورا حاسما في تحول السلوكات ؟ تفيد وثيقة هامة، وإن كانت متأخرة، وهي رسالة بعثها بوفيي، أسقف مانس، سنة 1849 إلى المتابة المقدسة لتوضيح موقف الكنيسة إزاء تحديد النسل، أن سكان الأسقفية، الذين صاروا في معظمهم مالتوسيين، يعبرون عن سخطهم اتجاه ما تقوم به الكنيسة من استنطاقات عند الاعتراف بممارساتهم لمنع الحمل. فليست عملية الخروج عن المسيحية هي التي سهلت انتشار منع الحمل. بل على العكس من ذلك، تبني السلوك المالتوسي هو الذي خلق، في حالات كثيرة، مسألة وعي وأبعد الكنيسة عن بعض الشرائح الاجتماعية.

* المحرمات الدينية لا تمنع كليا انتشار منع الحمل.

أوضحت العديد من الأبحاث المنجزة من طرف الديموغرافيين

والسوسيولوجيين حول دخول «مراقبة النسل» إلى بعض بلدان العالم الثالث أن المحرمات الدينية كان لها تأثير أقل من مفعول البنية العائلية أو العلاقات العاطفية والتواصل عند الزوجين. فالسكان السود المُمَسَّحِين في بورتو ريكو مثلا تبنوا «مراقبة النسل» على نحو أسهل جدا مما هو عليه الأمر لدى سكان الهند حيث لا تمنع الإيديولوجية الدينية بتاتا ممارسات منع الحمل. أما بالنسبة لأوربا، وخصوصا فرنسا، فقد تم التركيز على تفسير ظهور منع الحمل بالمواقف الدينية وليس بما فيه الكفاية بالمواقف العائلية. فقبل هذه المالتوسية المرتبطة بالجنس، عرف المجتمع قبل ثورة *1789* مالتوسية عل مستوى نسبة الزيجات : فالزواج المتأخر، لاسيما لدى الفتيات، عمل منذ القرن *16* على تحديد فترة خصوبة الزوجين. إن تأخر الزواجات وبقاء نسبة هامة من العزوبة، والرجوع إلى ممارسة منع الحمل وبروز تصور جديد حول الطفولة وإحساس زواجي جديد، كل هذه العناصر تشكل نسقا ثقافيا انتقاليا، عمل التنظيم الإقتصادي (عبر روح الادخار) والاجتماعي (عبر تقوية الأسرة النووية) على تنميته وتمديده[33].

* تاريخ الخلية العائلية.

إن الاهتمام الذي أولي، منذ خمسة عشر سنة، لتاريخ البنية والإحساس العائليتين، يترجم نفس الحاجة إلى تحليل شامل للسلوكات البيولوجية، للتشكيلات الاجتماعية وللتصورات الذهنية التي توحي بها. فعالم القرابة، وهو قطب متميز للأنثروبولوجيا التاريخية يشكل بالتحديد، مستوى تمفصل التناسل البيولوجي والتكاثر الاجتماعي. لقد أوضح جورج دوبي[34] بخصوص منطقة ماكونيا خلال العصر الوسيط الأعلى وإيمانويل لوروا لادوري[35] بخصوص منطقة لانغ دوك في القرن *15*، كيف أن انهيار الدولة وانحلال النسيج الاجتماعي عملا على تجديد فعالية عُرى القرابة وتقويتها : تكون الانساب ذوي النفوذ في أرستقراطية ماكونيا، تجمُّع في شكل عائلات كبيرة وممتدة(les frérêches) ، بل أحيانا خلق موثق لعائلات منتحلة كما هو الشأن في لانغ دوك. لقد لعبت الصلة العائلية، على ما يبدو، في فرنسا، خلال العصر الوسيط وبشكل أعم في مجتمع ما قبل الثورة حيث قام تنظيم الدولة، وعلى نطاق واسع على انحتات كل أشكال التكافل المحلية أو تحت - اجتماعية، دور مؤسسة غوث. فبمجرد ما يعمل الانهيار الديموغرافي على تجميع المواريث وتصير الدولة عاجزة عن منح حماية كافية، تسترجع الأسرة حقوقها، تصبح من

جديد عبارة عن قلعة ويمتص عالم القرابة الحياة الاجتماعية.

* استمرارية بنيات القرابة في المجتمعات التاريخية.

مؤسسة غوث أو تنظيم تحتي ؟ كم هي رائعة تلك الصفحات التي خصصها مارك **بلوك** في مؤلفه «المجتمع الفيودالي» لـ«صلات القرابة»، والتي أبان فيها كيف قنن النظام الفيودالي العلاقات الاجتماعية وانتقال السلطة على نمط الصلة الجسدية[36]. وفي مونطايو، في أواخر القرن 13، بعيدا عن جهاز الدولة، وقريبا نوعا ما من الجهاز الديني، لم يكن بإمكان فلاحي لانغ دوك تصور صلة اجتماعية دون أن تكون منسوبة شرعا ومجسمة عبر صلة جسدية. لقد انتموا لبيت يعد، إن صح القول، الهيئة الدائمة للسلالة وبذلوا جهدا لتوسيع الجماعة العائلية[37] عن طريق الزواج أو القرابة. إن مجموعة من الأبحاث المنجزة اليوم حول العائلة من طرف الرائدين، نوربير إيلياس[38] و فيليب أرياس[39] تكشف عن الواقع التالي : إذا كانت الدولة في فرنسا قد أخذت تعوض العائلة منذ القرن 16 وبالتدريج، في كل وظائفها القضائية والاجتماعية، فإنها تمكنت، عبر التجمع العائلي أن تؤثر خلال مرحلة ما قبل الثورة، في السلوكات الاقتصادية، العاطفية، الأخلاقية والدينية.

يمكن أن نتساءل إذن بخصوص فرنسا ما قبل الثورة، حول ما إذا كانت «البنيات الأولية للقرابة» قد استمرت، من وراء المؤسسات الرسمية، في تنظيم المجتمع، كما هو الشأن في «المجتمعات المفتقدة للدولة». فبالنسبة للزواجات، كانت القواعد الوحيدة والجلية هي المحرمات الكنسية : فدراسة الأدب والممارسات القضائية للكنيسة انطلاقا من وثائق المحاكم الأسقفية (وهو ما يعمل في إطاره منذ بضع سنوات جون ماري غويس[40] بخصوص نورمانديا، وأنا أيضا[41] بخصوص مركز الحوض الباريزي، وآخرون) تكشف عن نمط تصنيفي له علاقة مع ما بَيَّنه كلود ليفي ستراوس في أبحاثه حول بعض المجتمعات البدائية. وتحليل أشكال المصاهرة، كما قمت بذلك مثلا حول خورية بالمنطقة الباريزية في القرن 18 حيث بقيت نسبة الاتحاد الدموي مرتفعة جدا، يوضح، هو أيضا، بغض النظر عن الاستراتيجيات العائلية الهادفة إلى المحافظة علي الميراث وإلى صيانة المقام أو حتى إلي تحسينه، إجراءات «التحالفات التسلسلية». نفس النتائج نلمسها في الدراستين اللتين قامتا بهما مارتين سيغالين[42] وفرانسواز زونابيند[43]، حول الجماعات القروية لفرنسا المعاصرة.

فبعد أن ساد الاعتقاد، ولزمن طويل، بخصوص مجتمعاتنا المعقدة، التاريخية، أن التنظيم الاجتماعي يحدد المصاهرة، نكتشف اليوم، وانطلاقا من مونوغرافيات دقيقة أن بعض مفاهيم الانثروبولوجيا البنيوية المتعلقة بالقرابة قابلة لأن تطبق عليها.

آفاق الأنثربولوجيا التاريخية.

في دراسة الفضاء الذهني تتابع الأنثربولوجيا التاريخية اليوم الأبحاث الأكثر عطاءا. فمفهوم الذهنية الذي زود به لوسيان فيڤر[44] رصيد المؤرخين، كان، بما فيه الكفاية، متغيرا ومفتوحا لهضم حصة العلوم الأخرى. أما الخطر فقد يأتي من تضييقه إما في إطار سيكولوجي خالص ينطوي بسرعة كبيرة على مغالطة تاريخية، وإما في تاريخ الأفكار الذي غالبا ما يستنبط، وعلى نحو فوري، الميكانيزمات الذهنية لمرحلة معينة، من المذاهب والأنساق الثقافية الكبرى الناتجة عنه.

هنا أيضا غزت الانثروبولوجيا حقل التاريخ من تحت، أي عن طريق العبارات الأكثر عبثا والأقل صياغة في الحياة الثقافية : المعتقدات الشعبية، الطقوس التي تسود الحياة اليومية أو التي تلازم الحياة الدينية، الثقافات الأقلية أو السرية. باختصار الفولكلور. عند تعليقه على مؤلف أندري فارانياك الذي يعرف الفولكلور كمجموع المعتقدات الجماعية المفتقدة للمذهب والممارسات الجماعية المفتقدة للنظرية، يتساءل لوسيان فيڤر : «هل من السهل رسم حد بين "المستنبط" و"المسلم به كما هو" دون حذف ؟ »، ويتابع قائلا « ألا يضع موضع شك أصل تصوراتنا العلمية، العلاقات التاريخية للسحر وللرياضيات، التطور التدريجي للحصيلات المنطقية والكمية على حساب التأثيرات النوعية واللاعقلانية ؟ » إن السلوكات الأقل برهنة في المجتمع مثل علاجات الجسم، طرق اللباس، تنظيم العمل وبرنامج الأنشطة اليومية، تعكس نسقا من تَمَثُّلِ العالم، يربطها، على نحو عميق، بالتشكيلات الثقافية الأكثر بَلْوَرَة مثل القانون، الرؤى الدينية، الفكر الفلسفي أو العلمي.

إن العثور على هذه العلاقة عبر جرد للدلالات ووصف للأنماط المنظمة للخطاب الأسطوري، وتحديد رمزية الإشارات شكلا الحقلان الأساسيان اللذان طبقت عليهما الأبحاث الرائدة لجاك لوغوف بخصو ص المجتمع الوسيطي، حول تصورات الزمن،[45] العمل[46]، والفولكلور الديني[47]، أو التحليلات التي قام

بها جورج دوبي[48] حول دلالة الهبة والمصاريف التفاخرية في مجتمع العصر الوسيط الأعلى. نذكر أيضا كتاب إيف كاستان «الشرف والعلاقات الاجتماعية في لانغ دوك»[49] المنجز انطلاقا من الأرشيفات القضائية التي تتجلى أهميتها الأنثربولوجية في إبراز فكرة مفادها أنْ رسوخ مفهوم الشرف لم يستمر كقيمة للتبادل والتواصل في فرنسا الجنوبية خلال القرن 18 إن محاولات التحليل البنيوي التي قام بها جاك لوغوف وإيمانويل لوروا لادوري بخصوص اللبادة (Mélusine)[50] أو تلك التي أنجزها لوغوف وفيدال ناكيت حول «Le guerrier en forêt»[51] تبين أنه بالإمكان، عبر تحليل أنساق التصور، ليس فقط إعادة الربط بين مختلف مستويات التعبير لفترة ما وتحديد نمطها، بل العثور، ضمن «محابس الأمد الطويل» هاته، على مسار الزمن والنقلة البطيئة للأصناف اللذين يدفعان حركة التاريخ.

قريبا منا، على أبواب المجتمع الصناعي، نكتشف عالما غريبا : فرنسا ما قبل الثورة. هذه الغرابة تظهر لنا عندما يحاول المؤرخون اليوم، عوض أن يفسروا كيف انهارت تلك الفترة أو كيف تهيأ المستقبل، فهم الإشكالية التالية: كيف استمرت هذه الفترة، كيف أعادت إنتاج نفسها وكيف ظلت حية في مسام المجتمع الحالي. إن أعمال موريس أغيلون[52] حول اندماج الثقافة السياسية في المجتمع بجنوب فرنسا تشكل في هذا الصدد مجهودا عظيما لأنثربلجة التحليل السياسي ووصفا مغايرا لتكون فرنسا المعاصرة، بعيدا عن المصطلحات المألوفة مثل تسلم السلطة أو النقلة الذاتية. **فالسياسة** ليست ذلك الخزان الخالص للأفكار المبرمجة، المنتجة من طرف «النخب الواعية»، الأحزاب النابعة من داخل الأزمة الثورية، والذي انتشر تدريجيا في مجموع الجسم الاجتماعي عبر قدرته الخاصة على الإقناع والتعبئة. فلكي تسود في كل الحياة الاجتماعية، كان على السياسة أن تصير شيئا آخر مغايرا لجوهرها - وقد نقول أنها تجاوزت ذلك -، ليس فقط مشروعا لتنظيم السلطة، بل أسلوبا للتواصل مع الآخرين ولفهم العالم. كان عليها أن تعتنق الأشكال التقليدية للعلاقات الاجتماعية، وبالخصوص هذه «الاجتماعية» التي تتأكد من خلالها، كما يبين ذلك أغيلون، الاقليمية الثقافية لفرنسا الجنوبية. فمن «الأرليزية» إلى «الماجوريت» رسم تحليلا لـ«الظواهر الشكلية للحياة وللميكانيزمات السياسية».

سارا على نفس النهج، مؤخرا، مونا أوزوف[53] وميشيل ڤوڤيل[54] في

دراستهما للأعياد الثورية. لقد تنبها إلي الأشكال الرمزية والممارسات الشعائرية التي كان على الخطاب الإيديولوجي أن يأوي بها ليصنع السلوكات السياسية لفرنسا الحالية. وعلى نحو أوسع تقدم عملية بناء تحقيق إحصائي منتظم ابتداءا من الثورة الفرنسية، إمكانية للمؤرخين للنزول ببطء نحو الوقت الحاضر، بتتبع مقاومات وتنقلات كل المكونات الانثربولوجية لفرنسا. فالدراسة التي أنجزها فرانسوا فوري وجاك أوزوف[55] حول «أَلْفَبَة فرنسا المعاصرة» والبحث الذي هما الآن بصدد القيام به حول «ظاهرة الأحمر والأبيض»، أي ذلك النسق الثنائي الذي يقود الجغرافية الانتخابية لفرنسا، يهدفان إلى استخراج بقايا الأنماط الثقافية القديمة المُحَوْجَزَة (عبر المناطق والطبقات الاجتماعية) تحت الانسجام الظاهري لوحدتنا الوطنية. إنهما يحاولان، قبل كل شيء، الإشارة، ليس إلى التطور في حد ذاته ضمن بداهته الخطية، بل إلى ميكانيزمات التطور، إلى الاشكال التي على التغيير اعتناقها ليصير مقبولا.

إننا ننتمي لروح العصر. فمن فرط ما نلاحظ حركة التاريخ يحصل لنا أن ننسى أننا بذواتنا نشكل جزءا منه. فكما يوجد تاريخ للظرفية توجد ظرفية للمعرفة التاريخية. إن التاريخ، وهو علم قليل التنظير ومطبق في مبدئه على تحليل التغيير، يكون محكوما عليه، ربما أكثر من العلوم الاجتماعية الأخرى، أن يخضع للتغيير. فإذا كانت الانثربولوجيا تمارس اليوم هذا التأثير على مؤرخي المجتمعات الأوربية، وإذا كانوا ميالين إلى الطعن في كل تصور خطي للنمو التاريخي، فلأن فترات الإنسداد والتوازن وحتى التراجع، التي حدَّدُوها في مجتمع ما قبل الثورة، تطرح إعادة النظر في مفهوم التقدم ؛ بل أيضا لأن مفهوم التقدم ومجازية النمو يعاد فيهما النظر من حولنا، عن طريق المجتمع الذي نستنطق الماضي من أجله. فقد تكون إذن الانثربولوجيا بالنسبة للمؤرخ داءا عابرا. إنها تستجيب بالنسبة إلينا إلى الحاجة للعثور على مختلف قنوات التغيير لفهرسته، لفهم آلياته ولتأكيد تعدداياته.

الهوامش

(1) Il s'agit des Bénédictins de Saint-Maur et des Bollandistes. Ces derniers qui étaient membres d'une société, pour la plupart jésuites, travaillaient, depuis le XVII siècle, au recueil des vies des saints dénommé Acta sanctorum.

(2) Gabriel Bonnot de Mably (1709-1785).

(3) M.J. DE CARITAT, marquis de Condorcet (1743-1794).

(4) Ch. SEIGNOBOS, historien positiviste, auteur d'ouvrages de méthode : Méthode historique appliquée aux sciences sociales, Paris, 1901, et avec, C.V. LANGLOIS, **Introduction aux études historiques**, Paris, 1898.

(5) Essartage : défrichement, s'emploie surtout à propos des grands défrichements des XII° et XIII siècles.

(6) A. FRANKLIN, **La Vie privée autrefois**, 12 vol. (1890).

(7) «**This curious by - path of yours**» - by-parth : chemin détourné.

(8) M.BLOCH, **Les Rois Thaumaturges**, Paris, A. Colin, 1961.

(9) F. BRAUDEL, **Vie matérielle et Capitalisme**, Paris, A. Colin, 1967.

(10) M. AUGE, **Pouvoirs de vie, pouvoirs de mort**, Paris Flammarion, 1977.

(11) J. J.HEMARDINQUER, "**Pour une histoire de l'alimentation**», in Cahier des Annales, n° 28 (1970).

(12) E. LE ROY LADURIE, **Paysans du Languedoc**, Paric, Flammarion, 1969.

(13) M. BLOCH, «**L'alimentation de l'ancienne France**», in l'Encyclopédie française.

(14) Méteil : mélange de seigle et de froment.

(15) J.P. ARON, «Essai sur la sensibilité alimentaire à Paris au XIX siècle», in Cahier des Annales, n° 25, et le Mangeur du XIX siècle, Paris, Denoël, 1974.

(16) E. LE ROY LADURIE, J. - P. ARON et al. , **L'Anthropologie du conscrit français,** Paris-La Haye, Mouton, 1972.

(17) J. MEUVRET, «**Récoltes et populations**», in revue Population, I.N.E.D., 1946.

(18) P. GOUBERT, **Beauvais et Beauvaisis**, Paris, S.E.V.P.E.N., 1960, réédité sous le titre : **Cent mille Provinciaux au XVII° siècle**, Paris, Flammarion, 1968.

(19) A. BAEHREL, **Une croissance : la Basse-Provence rurale**, Paris, S.E.V.P.E.N., 1961.

(20) M.D. GRMEK, «**Préliminaires d'une étude historique des maladies**», in Annales E.S.C., 1969.

(21) E. LE ROY LADURIE, «**L'unification microbienne du monde**», in Revue Suisse d'Histoire (1973) et **les Territoire de l'historien**, vol. 2, Paris, Gallimard, 1975.

(22) E. DE MARTINO, La Terre des remords, Paris, Gallimard, 1966.

(23) N. Elias, né en 1905, en Allemagne, a enseigné en Angleterre.

(24) N. ELIAS, **La Civilisation des moeurs**, Paris, Calmann-Lévy, 1974.

(25) J.L. FLANDRIN, «**Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'occident chrétien**», in Annales E.S.C., 1969.

(26) J. DEPAUW, «**Amour légitime et société à Nantes**», in Annales E.S.C., 1972.

(27) J. ROSSIAUD, «**Prostitution, Jeunesse et Société dans les villes du Sud-Est au XV siècle**», in Annales, E.S.C., 1976.

(28) M. FOUCAULT, **La Volonté de savoir**, Paris, Gallimard, 1976.

(29) P. ARIES, **L'Histoire des populations françaises**, Paris, Le Seuil, coll. "Point", 1848, 1971.

(30) L. HENRY et C. LEVY, «**Ducs et pairs de France sous l'Ancien Régime**», in Population, 1960.

(31) L. HENRY. **Anciennes familles génévoises**, Paris, P.U.F. 1956.

(32) A. PERRENOUD, «Malthusianisme et protestantisme», in Annales E.S.C., 1974.

(33) A. BURGUIERE, «De **Malthus à Weber : Le mariage tardif et l'esprit d'entreprise**», in Annales, E.S.C., 1972.

(34) G. Duby, La société aux XI et XII siècles dans la région mâconnaises, Paris, A. Colin, 1954.

(35) E. LE ROY LADURIE, **Paysans du Languedoc**, Paris, Flammarion, 1969.

(36) M. BLOCH, La Société féodale, Paris, A. Michel, 1939 2° partie, Live I.

(37) E. LE ROY LADURIE, Montaillou : **village occitan**, Paris, Gallimard, 1975.

(38) N. ELIAS, **La civilisation des moeurs**, Paris, 1974.

(39) P. ARIES, **L'Enfant et la vie familiale sous la France d'Ancien Régime**, Paris, Plon, 1960, rééditions, Le Seuil, 1973,1975.

(40) J. GOUESSE, «Parenté, famille et mariage en Normande aux XVII° et XVIII° siècles», in Annales, E.SC., 1972.

(41) A. BURGUIRE, «**Endogamie et communauté villageoise : la pratique matrimoniale : Romainville au XVIII° siècle**», in Quaderni storici, 1976.

(42) M. SEGALEN, **Nuptialité et alliance : Le Chox du conjoint dans une commune de l'Eure**, Paris, Maisonneuve et Laise, 1972.

(43) F. ZONABEND, «**Parler famille**», in l'Homme, 1970.

(44) L. FEBVRE «**Folklore et folkloristes**», in Annales, 1939.

(45) J. LE GOFF, «**Temps de l'Eglise et temps du marchand**»n , in Annales E.S.C., 1960, repris Pour un autre Moyen Age, Paris, Gallimard, 1978.

(46) J. LE GOFF, «**Temps du travail dans la crise du XIV° siècle**», in Le Moyen Age, LXIX, 1963, repris en Pour un autre MoyenAge, op. cit.

(47) J. LE GOFF, «**Culture cléricale et traditions folkloriques dans la**

civilisation mérovingienne», in Annales, E.S.C., 1967.

(48) G. DUBY, Guerriers et paysans, Paris, Gallimard, 1974.

(49) Y. CASTAN, Honnêteté et Relations sociales en Languedoc, Paris, Plon, 1975.

(50) J. LE GOFF et LE ROY LADURIE, «**Mélusine maternelle et défricheuse**», in Annales E.S.C, 1971.

(51) J. LE GOFF et P. VIDAL-NAQUET, «**Lévi-Strauss en Brocéliande, in Critique 1975**, à propos d'Yvain, de Chrétien de Troyes.

(52) En particulier dans M. AGULHON, **Pénitents, et francs-maçons de l'ancienne Provence,** Paris, Fayard, 1968, et dans la République au village, Paris, Plon, 1970.

(53) M. OZOUF, **La Fête révolutionnaire**, Paris, Gallimard, 1976.

(54) M. VOVELLE, **Les Métamorphoses de la fête en Provence**, Paris, Flammarion, 1976.

(55) F. FURET, et J. OZOUF, **Lire et écrire** 2 vol., Paris, Minuit, 1978.

المتابعات

- حوار مع الأستاذ العلامة محمد المنوني
- الخزانة الصبيحية نموذج خزانة خاصة... للنفع العام
- ندوة بيان يناير 1944 بين مطلبيه الاستقلال والديمقراطية

حوار مع الأستاذ العلامة محمد المنوني

حاوره : محمد معروف الدفالي
ومحمد الفلاح العلوي

ـ اعتاد قراء الحوارات التي نجريها مع أساتذتنا، أن يتعرفوا على بعض المحطات الرئيسية في حياة المحاوَر، فماذا يمكن أن يفيد به أستاذنا الجليل قراء «أمل» في هذا الإطار ؟

ـ عندما كنا في مرحلة الدراسة، كانت الأمور، سواء داخل المغرب، أو خارجه ـ أقصد العالم العربي والإسلامي ـ تسير بانتظام نسبي، لكن لما اندلعت الحرب العالمية الثانية، حملت معها مجموعة نتائج ومخلفات يعيشها العالم إلى الآن. ذلك أن هذه الحرب أحدثت تغييرا شاملا، صاحبته إيجابيات قليلة، وسلبيات طاغية إلى اليوم. ومن بين إيجابياته، حصول عدة أمم على استقلالها افريقية وأسيوية، ومنها دول اسلامية صميمة مثل دولة باكستان، ودولة اندونيسيا، كما أن في هذا المناخ العام تأسست جماعة الإخوان المسلمين، التي هي أصل الصحوة الإسلامية، وهي جماعة من خاصياتها ـ أثناء التأسيس ـ عدم اشتراط أي شرط على منخرطيها سوى الإسلام الصحيح، وماعدا ذلك من حقهم الانتماء إلى مختلف الاتجاهات، والتمسك بمختلف المذاهب، والتبعية لأية طائفة صوفية من الطوائف، وبهذا المنظور كونت جماعة الإخوان المسلمين، مجموعة كبيرة، انتشرت في كل العالم الإسلامي. وهناك إيجابيات أخرى كثيرة ... غير أن هذه الإيجابيات صاحبتها سلبيات في طليعتها افتقاد الدول النامية ـ مع اختلافها ـ للاستقرار، فلأول مرة انتشرت عمليات اغتيال الحكام، والانقلابات، وطغت الصراعات الايديولوجية : روسية وأمريكية، ومسيحية ... فنتج عن ذلك عدم الاستقرار في هذه الدول، وزاد الطين بلة، قيام دولة اليهود أو الكيان الاسرائيلي ـ نقول دائما الكيان، لأن اسرائيل لابد أن تزول إن شاء الله، طال الزمان أم قصر ـ فظهور مثل الكيان الاسرائيلي وما تبع ذلك من بلبلة في البلاد

العربية بالخصوص، حملت معها اغتيالات ومصائب ذات أثر على العديد من النواحي، فدب الخلل في الأخلاق، والتربية والفضائل، بل وبدأت هذه الأمور في الاضمحلال بشكل ساهم فيه صراع الايديولوجيات التي تسلطت من قومية واشتراكية وشيوعية ... الخ، بحيث كل ألقى بظله، وفي هذا السياق تأثرت عدة ميادين تأثرا بالغا، ومنها ميدان الثقافة. فالثقافة الإسلامية ضعفت، وهيمنت مكانها ثقافة عصرية. وإذا كانت هذه الثقافة العصرية أو الأجنبية في مسقط رأسها لها نظم خاصة وأخلاق خاصة، ولها كذلك تكوينها الوطني، فإن البلاد الأخرى التي أخذت بهذه الأنظمة الثقافية والتعليمية، أغفلت التكوين الوطني، والتكوين الإسلامي، وأغفلت كذلك الأخلاق، فتغيرت ثقافاتها ... فالتعليم الذي كان يسود العالم الإسلامي كان مبنيا في مجمله على دراسات اسلامية معمقة، تعتمد الأصول، وحتى المذاهب والاتجاهات لم تكن مختلفة كثيرا، ولما ظهرت بعض المذاهب الاصلاحية الجديدة مثل التي مثلتها جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، أو جمعية الإخوان المسلمين، وما إلى ذلك، كان نظامها متقاربا.

ونعود إلى مسألة الثقافة فكل ثقافة قديمة - مهما كانت - لابد من تعديلها لتتجاوب مع العصر الذي تعيشه، إذ الطائفة التي تعدل ثقافتها تتطور، والطائفة التي لا تقوم بذلك تذوب ...

فأنا ولدت خلال الحرب العالمية الأولى، وهذا لم يكن له تأثير كبير في حياتي، إنما الشيء الذي عشته ووعيته هو الحرب العالمية الثانية التي رأيت محاسنها ومساوئها. وأعود لمحاسن هذه الحرب لأقول إن تأسيس جمعية الأمم المتحدة - رغم علاتها وعلى فشلها - كان من المحاسن التي وقت البشرية من شر الحروب العامة، فلولا هذه الهيئة لتحولت مثلا حرب الأعصاب التي كانت بين روسيا وأمريكا إلى مواجهات مسلحة عالمية عامة، ومن محاسن هذه الحرب كذلك تتابع الاختراعات النافعة مثل تقنية التصوير (فوطوكوبي)، وأجهزة التصوير الأخرى، إذ من منافع هذا الاختراع أن الإنسان من قبل إذا احتاج الحصول على كتاب ما اضطر إلى نسخه باليد، ومع ذلك يبقى في حالة شك إذا عثر على خطإ في نسختة بشكل يجعله يفكر في الرجوع إلى النسخة الأصلية، وهذه قد تكون في مكتبة خاصة، وما يتطلب ذلك من مجهود ... هذه مسألة وقع تجاوزها بفضل آلات التصوير.

من الاختراعات كذلك ما هو ضار، ويعتبر من مساوئ الحرب العالمية الثانية، وهذه الاختراعات الضارة على العموم هي التي لها صلة بالحروب والدمار.

هذه بعض ملامح الجو الذي عشت فيه (السياق العام).

وحول دراستي أقول : درست بمكناس والقرويين، في وقت كانت حركة الدعاية ضد التعليم الأجنبي جد نشيطة،باعتبار مدارس الأجانب، مدارس صليبية، ومدارس دعاية استعمارية، بل إن بعض الآباء كانوا يروجون أن الفرنسيين إذا ما علموا أبناء المغاربة في مدارسهم فلابد أن يأخذوهم للتجنيد، وكل هذا خلق نوعا من نفور الناس من التعليم الفرنسي، وإقبالهم على التعليم التقليدي.

وكان للفرنسيين هم الآخرون دعاية ضد التعليم التقليدي، الذي وصفوه بالعقم، فكان هذا من بين الأسباب التي دفعت المغاربة لتأسيس المدارس الحرة، بل وإلى حرصهم على إدراج اللغة الفرنسية في برامج هذه المدارس.

في هذا الجو التحقت بالكتاب (الجامع) بمكناس، وفي نفس المدينة تابعت دراستي الابتدائية، ثم بعد ذلك انتقلت إلى فاس، لمدة خمس سنوات، حيث حصلت على الشهادة الرابعة، ثم الشهادة الثانوية وكانت تقريبا ، تعادل الباكلوريا ، ثم تابعت تعليمي العالي، وكان بالتعليم الجامعي قسمان : قسم أدبي وقسم شرعي، وكان الطلبة ينفرون من القسم الأدبي، ولا يتابع الدراسة به إلا القليل منهم، بينما الأغلبية كانت تتوجه للقسم الشرعي، وكنت منهم، إلى أن حصلت سنة *1943* على الشهادة النهائية. غير أن الرغبة في الدراسات الفقهية ـ مع التحولات العامة ـ بدأت تقل وتضعف وغير عدد من الطلبة توجهاتهم، وكنت منهم ... والحديث عن الدراسة يجر للحديث عن الكتب الدراسية، وهنا لابد من الإشارة إلى فضل مصر على تكوين شخصية المثقفين المغاربة باللغة العربية، فقد كان دور هذا البلد شبيها بدور باريس أو نيويورك فيما بعد على مثقفي مغرب ما بعد الاستقلال، فالمؤلفات المختلفة كانت ترد علينا من مصر لأنها معربة، وكانت بعض الكتب تأتي كذلك من سوريا ، ولكن العمدة كانت على مصر ... أعود لمسألة تغيير أو تحويل نوع الدراسة، فبعد الاستقلال دخل عدد من الطلبة دوي تخصص الدراسات الشرعية، كلية الحقوق وحصلوا على شواهدها ، وبخصوص شخصي، فقد حاولت استغلال معلوماتي

في دراسة التشريع الإسلامي فبدأت أكتب في التشريع الإسلامي، ونشرت منه مجموعة في دعوة الحق واستمر ذلك مدة طويلة، ومرة التقى بي أحد الأساتذة ـ رحمه الله ـ وقال لي في سياق حديث معي، يا فلان، كفاك من الكتابة في الإسلاميات واتجه اتجاها آخر، وكذلك كان ... وشيء آخر لابد من ذكره في هذا الحديث هو الدراسة الخاصة أو المطالعة الفردية، فقد كانت هذه المسألة في جيلنا تقليدا، بحيث إلى جانب ما كنا نقرأه على يد أساتذتنا في الدراسة المنتظمة كان لكل فرد منا دراسات خاصة ومطالعات، وقد تعلمنا من هذه الدراسة الجانبية أشياء كثيرة، من بينها الإنشاء، والشعر، فلم تكن مادة الإنشاء مدرجة في برامج التعليم إلا ابتداء من سنة *1941 ـ 1942*، وبفضل الكتب المصرية خاصة كنا قد تدربنا قبل هذا التاريخ على الإنشاء نتيجة مواظبتنا على هذه الكتب، ونفس الشيء يقال عن الشعر فمن خلال قراءتنا لإنتاج شعراء المشرق العربي، كان بعضنا يحاول تقليد شوقي والآخر حافظ ابراهيم، وثالث معروف الرصافي ـ الذي كان يتميز عن الشعراء المشارقة بقوته في العلوم العربية، لأن العراق تتقن علوم اللغة والنحو والتصريف أكثر من مصر ـ

ـ هل هذا الضعف في الإنشاء كان حاصلا حتى لدى طلبة القرويين بالقسم الأدبي ؟

لا، يمكن أن يكونوا أقل ضعفا، ولكن الذي أريد أن أؤكد عليه هو الدراسة الفردية الجانبية، ولابد من الإشارة في هذا الباب إلى أن الانفتاح على عدد من الأمور الحديثة، كان على يد عناصر من قيادات الحركة الوطنية، فالفقيه غازي وهو مكناسي الأصل وكان مستقرا بفاس، هو الذي فتح عيوننا على عدد من المناهج والأمور الجديدة عندما جاء إلى مكناس ومكث بها مدة عامين أو ثلاث سنوات، فعليه درسنا جملة مسائل وعدة كتب في الإسلام، وكتب حديثة، بمناهج حديثة، والفقيه غازي وطني مشهور كانت له مدرسة حرة بفاس، أغلقها الفرنسيون لنجاحها، كما أنه هو الذي زرع بذور الوطنية في مكناس.

ـ في أي تاريخ كانت عودة الفقيه غازي لمكناس ؟

تاريخ هذه الفترة، يمكن القول أن ذلك كان من عام *1931* إلى *1933*، بل أواخر *1933*، وبداية *1934*، وقبل مجيء الفقيه غازي كانت الوطنية

موجودة بمكناس، إلا أنها لم تتجاوز حد التعاطف ولم ترق إلى مستوى التنظيم، وعلى يده تكونت أول خلية منظمة، كما ساهمت إرشاداته ومواقفه في محاربة بدع عيساوة والحمادشة في مكناس بل إنه تزعم في هذا الإطار وضع عريضة طاف بها صحبة نخب من الخلية المنوه بها، وبعثت فيما بعد إلى السلطان محمد بن يوسف ... وكان للفقيه غازي دور في تعليمنا الإنشاء والجغرافية وغيرها من العلوم الحديثة ... ولما صرح له بمزاولة مهنته كوكيل شرعي، اضطر إلى مغادرة مكناس والتوجه إلى مكان تعيينه، آسفي ...

وأعود - مرة أخرى - لأقول، أنه لولا الدراسات الفردية ما استطاع طلبة القرويين من كتابة رسالة، إلى حد أن عالما زار أحدهم مرة، وسأله عن الأداة التي يكتب بها، فلم يجد لديه قلم، ذلك أن الاعتماد كان أساسا على الذاكرة بشكل يمحو أي حاجة للقلم أو الكتابة، إلا في حالات التأليف، وهذه كما يعرف الجميع كانت أدوات كتابتها هي «الدواة والقلم».

- هل يمكن أن نتعرف على طبيعة الكتب والقراءات التي كان الإقبال عليها أكثر من غيرها ؟

نعم كنا ندرس الكتب الإصلاحية، مثل المدخل لابن الحاج، وهو مهم جدا، وكتب رشيد رضا، وشيئا من كتب تفسير الطنطاوي، وكذلك ديوان شوقي - الشوقيات - وحافظ ابراهيم، والرصافي، والكتاب الذي ساعدنا كثيرا في التدريب على الإنشاء هو «النظرات» للمنفلوطي، وهو من الكتب المهمة ذات الأثر الكبير علي جيل بكامله، فمثلا إذا تأملت في كتابة الشيخ المكي الناصري، تجده متأثرا بالنظرات إلى حد كبير، فإنشاؤه مبني على الوضوح بسبب تأثره الكبير بالمنفلوطي، ونفس الشيء تقريبا بالنسبة للاستاذ علال الفاسي، وغيره إذ كلهم تعلموا من هذه الكتب وأمثالها.

يضاف إلى الكتب المجلات التي لعبت دورا كبيرا في تثقيفنا مثل : المنار - المقطم - الرسالة، فالرسالة لحسن الزيات مثلا كان لها شأن كبير، ومن جملة ما يحكى عن الاهتمام بها أن الفقيه محمد بن عبد الله، وهو من مؤسسي المدارس الحرة الأولى كان ينصح طلبته بحفظ افتتاحيات حسن الزيات بهذه المجلة، حفظا، وكان لذلك أثر على طلبته الذين تخرجوا متنورين ونذكر من بينهم عبد الهادي بوطالب، وادريس الكتاني، وأحمد بن سودة، وجماعة كبيرة، كانت تشكل معنا طبقة واحدة بالقرويين.

ومن المجلات أيضا البصائر، والشهاب للشيخ ابن باديس، وكانت مهمة غير أن الفرنسيين في النهاية منعوا دخولها المغرب، كما كانوا يمنعون بين الفينة والأخرى المجلات المصرية. ومن تونس كانت تأتي مجلات مهمة مثل الزهراء والمجلة الزيتونية، وكانت راقية من الناحية العلمية ومفيدة خاصة في أصول الفقه - فالتونسيون لهم حاسة خاصة في أصول الفقه والقواعد التي ذكرها الشاطبي في الموافقات.

ومن جهة أخرى بدأت تظهر بالمغرب مجلات مثل مجلة المغرب لصالح أميسة وهو جزائري، وكانت مهمة ومفيدة في التثقيف الذهني، وليس في الإنشاء، و كانت تصل من الشمال كذلك مجلة المغرب الجديد للشيخ المكي الناصري، ومجلة السلام للفقيه محمد داوود ... ثم ظهرت الجرائد الوطنية، وإن لم يطل عمرها، ولكن أثرت على مستويين : أثرت على الشعور الوطني من جهة، وأثرت كذلك في التدريب على الإنشاء، كانت هناك جريدة الأطلس، والدفاع، والمغرب لسعيد حجي، والوداد لشماعو، وأذكر هنا أن الوداد عندما ظهرت، كان من جملة الذين كتبوا لها في العدد الأول، الفقيه القري، مقاله بعنوان «وعد ووعيد»، لأن الوطنيين كانوا متشككين في الجريدة، ومعنى وعد ووعيد، «إذا كنت صالحا فنحن معك، وإذا كنت منحرفا فنحن ضدك» والمقال كله كتب على هذا المنوال، وعد ووعيد.

لقد كان اقتناء هذه المجلات في غيرمتناول الطلبة، لذلك كان يتم اللجوء إلى شرائها بعد فوات وقتها، فالمجلة إذا كان ثمنها هو فرنكين أو ثلاثة فرنكات، تصبح فرنكا واحد عندما تباع في عداد المرجوعات، وفي الحقيقة كان للنقود في هذه المرحلة قيمة ووزن، وهي قيمة لم تتغير إلا مع الحرب العالمية الثانية، وأذكر هنا أنه عندما ذهبنا إلى فاس للدراسة كانت ثلاثون ريالا تكفينا في الشهر للمصاريف، ولما اشتدت الحرب أصبحت ستمائة ريال لا تكفينا، فمع الحرب تبدلت الكثير من الأوضاع.

وعن بداية الكتابة أقول أنه لما كنا نُدَّرس بالمعهد المكناسي، بدأنا نتمرس على الكتابة في المناسبات وخاصة عيد العرش بسبب استحداث جائزة في هذا الباب، وقد حصلت على هذه الجائزة أنا والفقيه التطواني وباحنيني ومولاي عبد المالك البلغيتي وعلال الفاسي، سنة *1946* وسنة *1947*، وفي سنة *1948* أفراد آخرون هم الذين حصلوا على الجائزة. أما أول كتاب كتبته فكان عام *1946*م عن تاريخ

المكتبة المغربية، وأهديت منه نسخة للسلطان محمد بن يوسف، ثم اشتغلت بعد ذلك في مؤلفات أخرى، غير أن ما وقع أن الفرنسيين في سنة *1954* ، أخذوا كل ما كتبته من مؤلفات مهمة ولم يتركوا سوى الثانوي، وبقي ما صادروه عندهم إلى الآن. بعد الاستقلال بدأ المثقفون المغاربة يبحثون عن الجهة التي سيتممون بها دراستهم ولكن الأبواب كانت مغلقة، بدعوى أننا لا نتقن الفرنسية، ففي بداية الاستقلال، كل من لا يتقن الفرنسية لا يمكنه ولوج الجامعة ...

- اعتقالكم سنة *1954*، مسألة تجرنا إلى علاقتكم - استاذنا - بالحركة الوطنية ؟

علاقتي بالحركة الوطنية تميزت منذ ذهابي إلى فاس للدراسة، فلما دخلت القرويين في صف الطبقة الخامسة، وجدت فيها مجموعة الأسماء التي ذكرت من قبل، وكانوا كلهم مناضلين في صفوف الحركة القومية، أي مع محمد بلحسن الوزاني، فاستقطبوني، وقد بقيت إلى جانب الوزاني إلى أن اضمحل الحزب (حزب الشورى والاستقلال)، وهنا أشير إلى أنه إذا كانت الأحزاب والهيئات غالبا ما تضمحل من القاعدة بسبب انسحاب أو فرار الناس عنها وبالتالي انحلالها، فإن حزب الشورى والاستقلال، أتي من مخه، فاللجنة التنفيذية عقب انسحابها سنة *1959* هي التي ضعضعت الحزب ... وما يقوم به البعض اليوم لإحياء الحزب من محاولات، لاتشبه سوى محاولات بعث الميت ...

لقد كانت الأمور التي أثارت على محمد بن الحسن الوزاني المشاكل - وأنت تعرف هذا من خلال بحثك الجامعي - مسألتان، الأولى هي المرحلة الانتقالية التي اقترح، والثانية هي الندوة الصحفية التي عقد عام *1950* ، وقد أثبتت الظروف سداد رأي الوزاني بخصوص المرحلة الانتقالية، لأن المغرب لو قدر له أن يعرف مثل هذه المرحلة لمدة أربع أو خمس سنوات قبل الاستقلال، لتمكن من تكوين أطر، ووضع مدارس إدارية كبيرة ومدارس موازية، ولحصل على استقلال مبني على أسس وعلى بصيرة. ولكن المشاكل التي قامت في وجه أطروحة الوزاني،عصفت بأطروحته ...

وأذكر أنه في بداية الاستقلال، وضعت لجنة سميت اللجنة الملكية للتعليم، وكنت أحد أعضائها، وحاولت الدفاع عن التعليم الأصيل، غير أنني ووجهت بأن مهمة اللجنة هي تكوين الأطر، وفي هذا السياق خاطبني بحسن نية الفقيه المذكوري من الدار البيضاء قائلا : نحن متفقون مع ما تقول، ولكن نحن

لا نتوفر حتى على من يعرف قيادة قطار. وبهذه النظرة ذهب التعليم الاسلامي، لأنهم ركزوا على ثلاث نقط : المغربة ـ التعريب ـ التوحيد. وفي التوحيد، ذاب التعليم الإسلامي إلى الآن.

ـ نعود ـ أستاذنا ـ إلى بعض المحطات في كفاحكم الوطني، قلتم أنكم كنتم في بداية تأسيس العمل الوطني السياسي، عضوا في الحركة القومية، هل كنتم في القواعد، أم عنصرا قياديا ؟

لقد كنت في المجلس الأعلى للحزب كعضو، هذا أولا، وفي مكناس كنت كاتب الفرع، آنذاك وكانت منطقة مكناس تصل حتى حدود الجزائر، بما في ذلك خنيفرة والصحراء ... وكانت المعاملة أو التواصل مع البادية صعب جدا، ذلك أن التوجه إلى البادية كان مرهونا بالحصول على تصريح وإذن بذلك، ومن انتقل إلى البادية دون تصريح، يلقى عليه القبض، بمعنى أن الذهاب إلى البادية، لا يختلف في شيء عن الذهاب إلى الجزائر مثلا، فالبادية كانت محظورة نهائيا. وفي هذا الباب لابد من الإشارة إلى أن سكان البادية تعذبوا في فترة الحماية أكثر كثيرا من سكان المدن، إذ رغم كل ما يقال كانت للمدن بعض الهيبة، أما البوادي فكانت ضحية تعسف وشطط كبير. وفي سياق هذا الحديث كذلك لابد من التركيز على الدور الذي لعبه طلبة القرويين، وابن يوسف، من آفاق المغرب (الأفاقيون) في نشر الوطنية بالبوادي.

ـ هل من محطات اخرى في عملكم الوطني ؟

مثلا : عريضة المطالبة بالاستقلال، كنت من بين الموقعين على وثيقة الحركة القومية، ومن العجب أن وثيقة هذا الفريق من الحركة الوطنية بقيت في عداد الإهمال ولم تنشر إلا هذه السنة (وثيقة *13* يناير *1944*)، كما كنت أحد المستشارين لدا محمد ابن الحسن في كثير من المشاريع التي يقترحها وأرافقه دوما في اقتبالات المرحوم محمد الخامس فضلا عما تعرضت له من استنطاقات وحجز ثم السجن عام *1954* وكان من أسباب هذا السجن تقديم عريضة موقعة من أفراد الحزبين الاستقلال والشورى لمكناس، رفقة المرحوم عبد السلام التراب بتاريخ أوائل غشت *1954* حيث تحدثت عنها الجريدة.

ـ وماذا عن الحياة المهنية لأستاذنا المحترم ؟

بدأت عملي في التعليم الابتدائي بمكناس، ثم التحقت بالثانوي، وعندما

تولى ابن جلون وزارة التعليم، قرر القيام بمحاولة إصلاحية فاستدعاني ضمن جماعة من المفتشين على رأسهم عبد العزيز بن عبد الله ومعه الحاج أحمد بن شقرون، كنا جماعة من بيننا الفقيه السي عبد الرحمان الغريسي، الذي كان أستاذا بالقرويين، والشيخ الحسن بن البشير، والفقيه المسفيوي، والأستاذ الحسين وجاج : حوالي عشرة أساتذة، طفنا كل معاهد المغرب. بعد هذه المهمة عدت إلى مكناس كمراقب للدروس، ومفتش لمادة التاريخ بالتعليم الأصيل في مدن المغرب، وبقيت بهذا المنصب سنتين، وبعد ذلك استدعيت للرباط للعمل بالخزانة، كان قدومي للرباط في الخامس من دجنبر من سنة *1961* وفي مارس من نفس السنة فتحت الخزانة الحسنية، وكانت تسمى الخزانة الملكية فعينت بها، وبقيت مدة إلى أن استدعاني محمد الفاسي، بعد أن أصبح وزيرا للثقافة لأعمل رئيسا لمصلحة المخطوطات إلى جانب مهمتي بالخزانة الحسنية حتى حصلت على التقاعد. وأثناء تقاعدي، دخلت في عدة تعاقدات كانت تجدد كل سنة... ثم توقفت عنها، قبل أن يتم استدعائي للعمل بكلية الآداب ـ الرباط ـ التي مازلت أعمل بها.

ـ وهل تعملون في نفس الوقت بدار الحديث الحسنية؟

لا، دار الحديث الحسنية عملت بها مدة، لكن في إطار مؤقت ـ الساعات الإضافية ـ ونفس الشيء في مدرسة علوم الإعلام ـ عملت بالساعات ـ فعملي بكلية الآداب في إطار الموظفين (بالتعاقد).

وفي كل هذه التنقلات، كانت لدي مهمات جانبية، وعضوية بالعديد من المؤسسات.

ـ يتوزع اهتمامكم بين إحياء التراث، وفهرسته، والاهتمام بعلم المكتبات، والطباعة والوراقة، والتدريس بكلية الآداب، وتأليف العديد من الكتب والمقالات المتخصصة. كيف يتم التوفيق بين هذه الاهتمامات مجتمعة ؟ وماهي خطة العمل ؟ إفادة لبقية الباحثين ؟

يعود منبع هذا التنوع إلى القراءات الجانبية التي أثرناها قبل قليل، فقد نفعتنا كما قلت كثيرا، ويعود كذلك إلى كبار العلماء والشخصيات في القرويين، والذين كان الفرد يستفيد منهم بشكل مزدوج، من الإنصات إليهم،

وكذلك من كتبهم، فالفقيه الحجوي كانت له مؤلفات، وكذلك الكتاني، وكذلك عباس بن ابراهيم، وابن زيدان، فمؤلفات مثل هؤلاء أساتذة، وغيرهم من الفطاحل، كانت لها فائدة جمة. إضافة إلى ما كان يسمع من محاضرات في الإذاعة، وما يقرأ من كتب ومقالات مختلفة يتأثر بها الفرد بدرجات متفاوتة.

ـ إلى اي حد يمكن القول أن اهتمامكم بالجانب الحضاري، وجانب التنظيمات في تاريخ المغرب نوعا من التاثر بمدرسة الحركة الوطنية التي كان من بين همومها ضرورة الرد على الأطروحات التي جردت المغرب من وجود أمة ودولة ؟

هذا صحيح، فكتاب مظاهر يقظة المغرب ـ على سبيل المثال ـ أصله محاضرة صغيرة، توسعت فيها فيما بعد، وتوسع مع ذلك البحث في التنظيمات، وفيما يرجع إلى الاهتمام بالحضارة يمكن القول أني تأثرت في ذلك بأشياخ هذا الباب في فترة الحماية، ولاشك أن هذا هو الذي يعطي معطياته الآن سواء في اهتمامي بباب الحضارة أو غيرها، ولابد من الحديث هنا مرة أخرى عن المطالعة. فخزانة الملك، وخزانة الكتاني بالخزانة العامة أفادتني كثيرا في اهتماماتي وأود أن أشير هنا على الخصوص إلى مكتبة جلالة الملك بمراكش وما تحتويه من كتب الشيخ عبد الحي الكتاني التي كان قد حملها معه إلى فرنسا، وغيرها من خزانات آخرين.

ـ هناك الكثير من مقالاتكم التي مازالت متفرقة ضمن مجموعة من المجلات، ولم تدخل بعد ضمن ما أصدرتموه من كتب، اليست هناك نية للربط بينها وجمعها في مؤلف أو مؤلفات، ضمانا لإعادة رواجها بين القراء ؟

هذا سؤال مهم. وأذكر أنه مؤخرا حدثني في هذا الشأن الكتبي اللامع السيد لحبيب اللمسي صاحب مطبعة لبنان، وأبرم معي موعدا في شهر دجنبر أو يناير الماضي، كي أسلمه هذه المواضيع، لكن الوقت لم يسعفني، ومع ذلك فأنا مازلت على موعد معه لشهر ماي، وأطلب من الله الإعانة. فالمقالات المتفرقة في المجلات، في الحقيقة كأنها في قعر بئر ...

ـ بما أن التاريخ، من أصناف المعرفة الرئيسية في

اهتماماتكم، فما هي وجهة نظركم في الكتابة التاريخية، وأهدافها، وماهي المواصفات التي تحول المهتم بالتاريخ إلى مؤرخ ؟

المهتم بالتاريخ هو من داوم وأدمن على المطالعة والقراءة، وتعمق في المعلومات، ونظر من جهة أخرى إلى منهجية الكتابة ... ومسألة التدريب توجد في الكلية، فطالب الدراسات المعمقة، تتكون لديه فكرة أساسية عن اهتماماته فعندما يحضر رسالته الأولى، ثم رسالته الثانية، ويناقش أعماله أمام لجنة من الأساتذة، ويطلع على مناهج الآخرين، كل ذلك يفيده في تطوره. فكلنا يعرف أن حتى كتابة مقال لا تتم إلا بعد استيعاب مصادرها، ناهيك عن بحث أو دراسة، كما أن المقالة، وإن كانت إنشائية لابد من ضبط عناصرها، فبدون المصادر والعناصر المستوعبة لا يمكن الحديث عن موضوع متكامل ... ولا داعي للسرعة.

- عندما وضع برنامج الدراسات في كلية الآداب جعل مسالة تحقيق ودراسة المخطوطات، في سياق الأعمال التي يحصل بها الطالب على شهادات. هل قامت الكليات - في نظركم - لحد الآن بالعمل الذي كان منتظرا منها في هذا المضمار ؟ وما هي حدود مساهماتها في تحقيق التراث ؟

لنأخذ أولا وضع الكليات، فكل الكليات، وبالخصوص كلية الآداب، تعيش نوعا من النكسة، ففي أواخر الستينات وفي السبعينات، كان مطلب استقلال الجامعة من المطالب الرئيسية، غير أن هذا المطلب لم يتحقق، ولم يتحقق حتى الاستقلال المادي، بل وخضعت الكليات للرقابة، وهذه نكسة حقيقية، كذلك يمكن القول أن هذه النكسة تستفحل مع غياب الأساتذة الاكفاء الذين إما تقاعدوا أو انتقلوا إلى الدار الآخرة، دون أن نجد من يحل محلهم، إذ أين سنجد أستاذا مثل عياش أو زنيبر أو غيره ... ولم يبق من الأكفاء القدامى إلا القليل ... وليس في الجدد من الأكفاء إلا القليل والحديث هنا عن شعبة التاريخ، بمعنى إن الأساتذة بكل معنى الكلمة أصبحوا قلة ... وكعودة إلى علاقة الكلية بالوزارة، لابد من الإشارة إلى الدور السلبي لتحكم الوزارة في ميزانية الكليات، وتدخلها في تصرف عمداء وقيدومي الكليات.

ويمكن القول أن كلية الآداب بالرباط متأصلة شيئا ما، مقارنة مع الكليات الأخرى إذ بعض الكليات ليست لها حتى ميزانية كافية ... فالدولة تؤسس

الكليات دون تقويم، وضعف التقويم لا يساعد على عملية البحث.

- في سياق موضوع التحقيق، ماهي مهمة المحقق في نظركم ؟

محقق النصوص مهمته أولا كما هي في قواعد ذلك تلزمه بإخراج الكتاب كما وضعه مؤلفه أو قريبا من ذلك، ويجب التفريق في التعاليق بين مختلف النسخ المعتمدة، وهذه التعاليق يجب أن تكون مؤكدة وضرورية، وبين الحواشي، فالحواشي فيها اختلاف بين المدارس من يحبذ التطويل ومن يحبذ التخفيف ... وفي الحقيقة يجب أن تكون الحواشي مخففة فعندما نريد مثلا التعريف ببلد ما، نحدد مكانها باختصار ونحيل الراغب في المزيد على المصدر الأساس للتعريف بالبلد، نفس الشيء في الأعلام، نكتفي باسم العلم الكامل وتاريخ وفاته وولادته ومصدر ترجمته إذ ليس على المحقق توضيح كل شيء للقارئ، ويكتفي بإحالته على كتاب يجمع كل المصادر أو على معجم جامع للمؤلفين.

مسألة أخرى يجب الانتباه إليها، ففي بعض الأحيان يخطأ المؤلف، أو يلحن، أو يوظف تعبيرا غير لائق، هل نقوم بالتصويب أم لا ؟ الحقيقة هي أن لا نقوم بالتصويب لأن الكتاب كما يقال حبس لا يتغير، وإذا قمنا بتصويب نتبثه في الهامش، بمعنى لا نتصرف في المتن ولا نصمت إزاء الخطأ. والأخطاء قد تكون أحيانا من ارتكاب الناسخ وليس المؤلف، ومن هنا وجب توضيح النسخة التي بها خطأ والتي بها الصواب، وكذلك الإشارة إلى النسخة المعتمدة، تبقى مسألة ممكنة في هذه النقطة هناك اتجاهات، فمن قائل بوضعها في نفس الصفحة، وقائل بتركها إلى آخر الكتاب، ويبدو أن التعاليق إذا كانت خفيفة توضع في نفس الصفحة، أما إذا كانت الحواشي طويلة فيمكن تركها إلى آخر الكتاب.

- في اليوم الدراسي الذي نظمته الجمعية المغربية للبحث التاريخي مؤخرا، حول التراجع والصمود في الغرب الإسلامي، أثار الأستاذ القبلي في النقاش - بل وأكد - على أن تاريخ المغرب لا يمكن أن يكتب إلا بشكل جماعي، أي في إطار مجموعات عمل وبحث، لاستعصاء هذا العمل على الفرد، وتذكرنا هذه الإشارة بحديث سابق لكم أشرتم فيه إلى أن الجيل الذي اهتم بكتابة تاريخ المغرب في

فترة الحماية، اهتدى إلى هذه المسألة، وركز في عمله على التعاون، والتسابق إلى مد المشتغل بأي موضوع، بما يتوفر من معلومات تهمه، هل من الممكن إضافة توضيحات في هذا الباب ؟ وهل يعني ذلك أن وعي ذلك الجيل بالعمل الجماعي، أكثر تجدرا منه لدى الجيل الحالي ؟

الجيل القديم لم تكن لديه المنهجية الحديثة الموجودة الآن، وكان يعتمد المنهجية القديمة، وهي منهجية رغم تقليديتها اهتمت كثيرا بالتثبت، فالمؤلفون القدماء، كانوا يوصون بأن لا تثبت أية مسألة إلا إذا كانت مؤكدة مائة في المائة، ويوصون كذلك بالرجوع إلى المصادر، وبالمحافظة على مقاصد أي مؤلف، وهذا ما كان يدفعهم إلى الإتيان بالخبر أو الكلام بوجهه كله، عكس اليوم، حيث أصبح المؤلف يأخذ ما في المصدر ويلخصه ... إضافة إلى أن المؤلفين القدامى كانوا لا يكذبون، بما يعني توفر الضمير المهني لديهم، قد يأتون ببعض الكلام، دون نسبته إلى أصحابه ـ في الغالب ـ غير أنهم لا يكذبون، لأن الكذب يسقط قيمة العمل ... وعن العمل الجماعي الذي كان مع المتقدمين، نشير إلى أن طبيعته لم تكن تعني الاشتراك في مؤلف، وإنما عن طريق الاستشارة، من أراد وضع مؤلف لابد أن يستشير غيره في عدة أمور، والسؤال في بعض الأحيان ذو ضرورة قصوى، فمثلا إذا أراد أحدهم الكتابة حول عالم من منطقة سوس، لا يعرف عنه الكثير، لابد له من توجيه أسئلة إلى آخر يستقر في عين المكان، للحصول على بعض الحقائق، لكن في هذه الحالات، كان المؤلفون في الغالب ينسبون تلك المعلومات لأنفسهم دون إنصاف مزودهم بها ... أما أن تؤلف جماعة كتابا فهذا لم يكن معمولا به، بمعنى أن العمل الجماعي كان استشاريا ... فالحجوي مثلا ألف كتبه وحده وكذلك الكتاني، وابن زيدان ... وفي سياق عدم الإشارة إلى المساعدين تطفو في بعض الأحيان مسائل مفضوحة، فمثلا في كتابات عباس ابن ابراهيم وكتابات ابن زيدان، هناك نُقُولٌ مأخوذة عن كتابات فرنسية دون ذكر المترجم، فابن ابراهيم كان يساعده بالترجمة أبناؤه، كما أن ابن زيدان كان يترجم له بعض المثقفين، وهذا الإهمال يعود عيبه إلى منهجية العلوم العربية الإسلامية. وقد شاركت شخصيا في بعض ما يتعلق بكتابات ابن زيدان بالنسخ أو الرجوع إلى بعض المصادر، ولكن هذا شيء قليل.

- في سياق ذكر ابن زيدان، هل من معلومات حول الأجزاء المجهولة من كتاب الإتحاف ؟

ذهبنا إلى خزانة ابن زيدان ووجدنا عشرها فقط هو الذي ضاع، والباقي خير كثير، خاصة في تاريخ الدولة العلوية، وتاريخ مكناس، وبحثنا عن الأجزاء المجهولة من تاريخ ابن زيدان فلم نجده وكذلك المنزع اللطيف ... ومرة أخبرني الشيخ المختار السوسي أن تاريخ ابن زيدان يوجد عند الأستاذ المرحوم سيدي عبد الكريم ولد الحافظ سيدي المدني بالحسني، فبقي هذا الخبر في ذاكرتي. وذهبت صحبة عبد الله الجراري (محافظ المكتبة) إلى سيدي عبد الكريم فوجدنا عنده الكتاب، وهو متكون من ثمانين أو اثنين وثمانين صفحة من حجم كبير فيها ترجمة مولاي سليمان، وبعض تراجم مكناس، وخاتمة مهمة حول العادات والتقاليد المكناسية، وبعض الحوادث التي حدثت في مكناس ... وهذا بحث مفيد جدا، ومتوفر بالخزانة الحسنية، ومازالت كتابات أخرى مجهولة.

- يثار في السنوات الأخيرة نقاش بين المهتمين، حول استغلال الآداب الشرعية في كتابة تاريخ المغرب. إلى أي حد يمكن لقراءة المؤرخ لهذه الآداب، أن تفيد في هذا الباب ؟

يعني إفادة جانبية. فالمؤرخ يمكنه أن يستغل بصفة عامة كتب الآداب الإسلامية، وكتب النوازل، بل وحتى كتب النحو يمكن أن يجد فيها إشارات ... وقد أصبحت أهمية ما يوجد في المعيار من معلومات مسألة غير خافية، كما أن الحوالات الحبسية تفيد المؤرخ في الكثير مما يحتاج إليه من إفادات ثمينة.

- ألا يستلزم هذا نوعا من الثقافة الفقهية لدى المؤرخ، وضرورة التسلح بثقافة فقهية تمكن من فك المنغلقات ؟

هذا صحيح، وقد قال به المؤرخون القدماء، كالسخاوي في «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، والمؤرخون المغاربة، مثل اليوسي في المحاضرات، وابن زيدان، كلهم يؤكدون على ضرورة توفر المؤرخ على ثقافة عامة، لأن الثقافة التاريخية المحضة غير كافية، لماذا ؟ لأن التاريخ لا يوجد في كتاب واحد، ومن هنا لابد للمؤرخ من الاطلاع على مضامن مختلفة في الفقه وغيره، ففي ميدان الزكاة مثلا لابد من التعرف على السكة ووزنها وقيمتها، من أجل

إخراج الزكاة، وهذا يختلف من عصر إلى عصر، فالأمر في عصر الموحدين ليس نفسه في عصر آخر ... وإلى هذا فكتب الفقه فيها إفادات كثيرة، فكتاب سيدي ميارة في شرح الزقاقية، والمعيار للونشريسي وغيرها تتوفر على معلومات وإفادات لا تتوفر في غيرها من الكتب ...

ومادمنا بصدد الحديث عن ما يجب على المؤرخ أن يعرفه نشير إلى أن على المؤرخ أن يتقن لغة البلد الذي يؤرخ له، فالذي - مثلا - يجهل الأمازيغية، يغيب عنه الشيء الكثير حول تاريخ المغرب ... وعلى العموم فالمؤرخ مثل الداعية في هذه المسألة عليه معرفة لغة الناس الذين يتوجه إليهم ...

- ماهو تقويمكم للمسار الذي سارت فيه كتابة التاريخ بالمغرب، في العشرين سنة الأخيرة، و ماهي اهمية نتاج المؤرخين المغاربة في هذه الفترة ؟

بصورة عامة، الكتابة التاريخية، منذ أواخر الستينات إلى الآن، تحكم فيها مسار الأبحاث والدراسات، أكثر من التأليف، ويمكن القول أن هناك مؤلفين جادين في هذا الميدان ... بينما هناك مؤلفون آخرون يكتبون للاستهلاك فقط، ومؤلفون آخرون يكتبون، لكنهم مستعجلون، وهم معروفون من خلال كتبهم، وهناك المزورون.

ولابد في هذا الجواب من الإشارة إلى أن المغاربة لم يتعرفوا على المنهجية الحديثة في كتابة التاريخ إلا مؤخرا، ونذكر من بين الرواد الذين كتبوا بهذه المنهجية، وكانت له خصوصية في ما كتب، هو الأستاذ محمد الفاسي، فهو أول مغربي كتب في تاريخ المغرب بالعربية وبمنهجية حديثة، وهو في كتاباته دقيق يتثبت ويتحرى في كل ما يكتب، صادق إلا أن إنتاجه متفرق.

- ماهو جديد كتابات و مؤلفات استاذنا ؟

هناك العديد من المؤلفات التي ابتدأتها، ولم أتممها، والكتابة لما تكون كمشروع تبدو سهلة، ولكن صعوبتها تظهر مع مباشرة العمل فيها، والكتابة في التاريخ تأخذ الكثير من الوقت، أنا بصدد تتمة كتاب مصادر التاريخ المغربي، الجزء الثالث ... وآخر ما كتبت حول الوراقة، ثم هناك المقالات التي تحدثنا عنها قبل قليل، والتي قلت أني بصدد جمعها وترتيبها لنشرها بين دفتي كتاب، وأتمنى إن شاء الله إعداد مقالات في مناسبات معينة.

الخزانة العلمية الصبيحية

نموذج خزانة خاصة... للنفع العام

معروف الدفالي
الفلاح العلوي

إسهاما من «مجلة أمل» في التعريف أو زيادة التعريف ببعض الخزانات ودورها في نشر العلم والمعرفة، وإعطاء صورة تقريبية أولية عنها، للباحثين الذين يجهلونها، أجرينا حوارا مع الحاج عبد الله الصبيحي، منفذ فكرة تحبيس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، والساهر على تسييرها بأريحية عالية، ومعنويات مرتفعة تنم عن سرور كبير، بهذا العمل الوطني التطوعي الذي يقوم به هذا الرجل.

لقد استغرق حوارنا مع الأستاذ المهندس الحاج عبد الله الصبيحي، مدة غير يسيرة، موزعة بين ثلاثة لقاءات، تخللتها جولات عبر مرافق هذه الخزانة المنعدمة المثيل، وانتقالات إلى المنزل «العتيق» للعائلة الصبيحية حيث أطلعنا الحاج عبد الله، على بعض مازال يزخر به هذا المنزل من الكتب والمخطوطات، والصناديق المملوءة بوثائق لاشك في فائدتها للباحثين، مازالت تنتظر ساعة جعلها رهن إشارة الأساتذة والطلبة.

كان الحوار مع الحاج عبد الله الصبيحي ممتعا ومفيدا جدا، وتجاوز الحديث معه أمور الخزانة، ليتناول بعض الأمور حول العائلة الصبيحية، وبعض أدوارها في تاريخ مدينة سلا، وتاريخ المغرب عموما، وكذا بعض ذكريات هذا الرجل عن أوضاع المغرب في عهد الحماية، والسنوات الأولى للاستقلال، وكذا ذكرياته أيام كفاح المغاربة من أجل الاستقلال، وبعض الخطوط العريضة في تاريخ الحركة الوطنية، وزعاماتها، في المغرب عموما، ومدينة سلا على

الخصوص، وقد ارتأينا لأسباب منهجية وتنظيمية، فرز ما يتعلق بذكريات وشهادات الأستاذ عبد الله الصبيحي، والاحتفاظ بها لنشرها في ملف لاحق، مقتصرين في صياغة المقال الحالي، على الأمور المتعلقة مباشرة بالخزانة، كما نشير إلى أننا في هذا التقرير، استعنا ببعض العاملين بالخزانة موظفين ومتطوعين، ـ ومنهم الصديق لطفي بوشنتوف ـ وبعدد من الفهارس الخاصة بمحتوياتها.

1 ـ التأسيس :

من مجموع الخزانات الخاصة المفتوحة في وجه العموم في المغرب، تسترعي الخزانة العلمية الصبيحية الانتباه باعتبارها من الخزانات الرائدة في ميدان إفادة الباحثين سواء من حيث محتوياتها أو تنظيمها أو أسبقيتها في الميدان. ترجع فكرة تأسيسها إلى سنة *1965* حيث راودت الفكرة باشا مدينة سلا السابق العلامة المرحوم الحاج محمد بن الحاج الطيب من أسرة آل الصبيحي المشهورين في مدينة سلا بكونهم من أعيان المدينة وبيوتاتها العلمية. وقد أشار ولد الباشا المذكور السيد عبد الله الصبيحي على والده بتحبيس ما تملكه الأسرة من كتب ووثائق بشروط تمكنهم من مراقبة الخزانة والإشراف عليها. وهكذا تم التحبيس يوم الاثنين *24* ربيع الأول عام *1387*هـ موافق *3* يوليو *1967* . وقد أوقف الحاج الصبيحي على هذه الخزانة غلافا ماليا مهما ليصرف في مصالحها وعين ابنه المهندس الفلاحي السيد عبد الله الصبيحي ناظرا عليها. ومنذ ذلك الوقت شرع السيد عبد الله في مشروع بناء مقر جديد للخزانة أتم بناءه سنة *1969* وفق مواصفات معمارية تجمع بين الأصالة والمعاصرة في بقعة مساحتها *400*م*2* خارج باب الخباز بساحة الشهداء في مدينة سلا. والبناية تشتمل على قاعتين فسيحتين مجهزتين أحسن تجهيز للمطالعة وحفظ الكتب فضلا عن مكاتب ومرافق إضافية تشمل مسجدا وضريحا لوالده. وقد تطلبت عملية تجهيز الخزانة وتنظيمها في البداية وقتا طويلا من سنة *1969* إلى سنة *1974* . وتضمنت هذه المرحلة نقل الكتب وترتيبها. وهكذا تمت عملية التحبيس الثانية من طرف الأستاذ عبد الله الصبيحي في *25* شعبان عام *1396*هـ موافق *21* غشت *1976* لتفتح الخزانة أبوابها في وجه القراء ستة أيام من كل أسبوع.

لقد استفادت الخزانة الصبيحية من فكرة التحبيس المشروط بجعل مراقبتها بأيدي أصحابها الأصليين من أسرة الصبيحي، فبالإضافة إلى ما أنفقته هذه الأسرة على الخزانة عند تأسيسها في البداية فقد استفادت من تحبيس مجموعة من البنايات والمرافق التابعة لها والتي كانت في الأصل ستستعمل كدار ضيافة للوافدين على الخزانة. إلا أن فكرة خلق موارد قارة للخزانة جعلت السيد عبد الله الصبيحي يعدل عن هذه الفكرة بتوجيه من الفقيه التطواني ويقوم بكرائها لتوفير مبالغ مالية قارة لإنفاقها على الخزانة، وقد قلده في هذا الشأن بعض أعيان مدينة سلا حيث حبس أكثر من واحد ريع بعض المباني السكنية على الخزانة وخصصت هذه الأموال الجارية لتغطية مصاريف الصيانة والماء والكهرباء والعمل اليومي، بالإضافة إلى ما خصصة السيد محافظ الخزانة من عناية مالية لها. فقد كانت عنايته المعنوية والعلمية أكبر حيث تفرغ لها، لا يغادرها صباح مساء إلا لقضاء بعض أغراضه، فهو يحافظ عليها محافظته على روحه.

2 ـ المحتوى :

تعتبر الخزانة الصبيحية حاليا من أهم خزانات المغرب الخاصة بالنظر لما تحتوي عليه من كتب التراث بالإضافة إلى ما أضيف إليها من كتب حديثة في مختلف التخصصات وخصوصا في العلوم الإنسانية والإسلاميات فبالنسبة للكتب المحبسة في الأصل هي ملك للأسرة الصبيحية وهي أسرة مجيدة عريقة عالمة جمع أفرادها وخصوصا الأب الحاج محمد الكتب من البلاد العربية والهندية والإيرانية وحافظ على عدد وافر من المخطوطات الأصلية المتنوعة التي يرجع تاريخ انتساخها إلى القرون الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى الوثائق الخطية النفيسة التي تعنى بتاريخ المغرب وسلا خصوصا وتاريخ شمال إفريقيا عموما بالإضافة إلى مجموعات كثيرة من المجلات الدورية سواء التي صدرت بالمغرب إبان الحماية أو المجلات المشرقية التي كانت تصل إلى المغرب في نفس الإبان، والتي اقتناها السيد عبد الله الصبيحي أو أبوه الذي يقول عنه : «إن والدي كان مغرما باقتناء الكتب والوثائق، وكان رحمه الله كلما سمع عن كتاب جديد ظهر في الشرق أو وثيقة هامة إلا وبذل كل ما في استطاعته لاقتنائه والحصول عليه مهما كان الثمن».

لقد كانت نتيجة هذا الاعتناء بالكتب من طرف الصبيحيين المشرفين على هذه الخزانة أن أصبحت تتوفر الآن على ما يقارب :

- *4000* مخطوط منها حوالي *1200* مفهرسة و*1400* مخطوط.
- *20.000* وثيقة منها حوالي *6* آلاف مصنفة.
- ما يفوق *20.000* عنوان لمطبوعات مختلفة.
- ما يفوق *120* عنوان لمجلات بعضها في مجموعات كاملة ونسخ مكررة. ومن أجل التعرف على عينات لهذه الكتب يمكن الرجوع إلى الفهرس الذي أعده للخزانة الأستاذ الدكتور محمد حجي كجزء أول لمحتوياتها والذي يذكر في مقدمته أن الكتب المحبسة قد أضيف إليها في السنوات الأخيرة ما يفوق عددها أصنافا كثيرة من مطبوعات ومخطوطات ومصورات عن مخطوطات نادرة في مكاتب خاصة...».

لقد كانت الخزانة تضم في ما سبق بالإضافة إلى الكتب والمجلات عددا من الجرائد التي كانت تصدر في النصف الأول من القرن الحالي، إلا أن ضيق المكان، وكثرة الكتب حالا دون استمرار وجود هذه الجرائد التي نقلت إلى منزل العائلة.

ونتمنى أن تسمح الظروف مستقبلا بإعادة هذه الجرائد التي قد لا توجد بعض نسخها إلا في هذه الخزانة.

هذا وتخضع مختلف محتويات الخزانة من مخطوطات وكتب ووثائق إلى عملية الفهرسة التي يقوم بها مجموعة من الباحثين، إما في إطار التطوع أو في إطار بعض الأبحاث كأبحاث الإجازة، مما يعود بالنفع على رواد الخزانة ويسهل مهمة بحثهم، وهكذا فبفضل مجهودات كل من الأساتذة محمد حجي، أحمد التوفيق، عمر أفا وغيرهم تمت فهرسة عدد من نفائس هذه الخزانة.

ويفيدنا الأستاذ محمد حجي بخصوص مخطوطات الخزانة أنها متنوعة، تشمل العلوم التي عرفها المسلمون، شرعية ولغوية وعقلية ودخيلة ويغلب على بعضها الطابع العلمي والرياضي - الفلكي خاصة وذلك لكون المحبس المرحوم الحاج محمد الصبيحي كان من أعلام الرياضيين الفلكيين وكذا عدد من أجداده وأقاربه، إضافة إلى كونها تشمل مجموعات كاملة من مولفات عدد من العلماء المغاربة من فاس وسلا والرباط...

كما يشير الأستاذ عبد الله الصبيحي إلى أهمية المطبوعات الحجرية، الموجودة بالخزانة وإلى أن بعضها لازال لم يفهرس لحد الان، وهي كما نعلم في حكم المخطوط، رغم المجهودات التي بذلت وتبذل في هذا الصدد. وللتدليل على أهمية هذا النوع من الكتب الموجود بالخزانة نشير إلى أن السيد عبد الرزاق فوزي محافظ القسم العربي بخزانة جامعة هارفارد الأمريكية ذكر في مقدمة كتابه عن المطبوعات الحجرية أنه وجد بالخزانة الصبيحية سبع مطبوعات حجرية لا توجد إلا في هذه الخزانة. ولأخذ فكرة عن طبيعة المخطوطات في هذه الخزانة نشير إلى التصنيف الذي قام به الأستاذ محمد حجي في كتابه : فهرس الخزانة العلمية الصبيحية والذي يعطي صورة تقريبية عن أهمية هذه المخطوطات :

1 القرآن وعلومه ويشمل 93 عنوانا مصنفا
2 ـ الحديث وعلومه ويشمل 81 عنوانا مصنفا
3 ـ التوحيد ويشمل 262 عنوانا مصنفا
4 ـ التصوف ويشمل 259 عنوانا مصنافا
5 ـ اللغة وتشمل 149 عنوانا مصمنا
6 ـ التاريخ ويشمل 104 عنوانا مصنفا
7 ـ الحساب ويشمل 263 عنوانا مصنفا
8 ـ الطب ويشمل 22 عنوانا مصنفا
9 ـ الكيمياء وتشمل 22 عنوانا مصنفا.
10 ـ متنوعات وتشمل 73 عنوانا مصنفا.

وقد عمل الأستاذ بوطربوش على إتمام هذا العمل في إطار جزء ثان جاهز للطبع وصل فيه إلي تصنيف 525 سفر في موضوعات لا تخرج في معظمها عن التصنيف السالف الذكر عند الأستاذ محمد حجي.

إن ما يزيد من أهمية محتوى هذه الخزانة أنها تسير حسب نظام يختلف عن نظام الخزانات الأخرى المماثلة، فما يسمى في الكثير من الخزانات بالمحفوظ الخاص مما لا يوجد إلا في مكتب المحافظ ويكون طلبه بإذن خاص، مثل هذا النظام غير معمول به في الخزانة الصبيحية، إضافة إلى أن القيم على الخزانة يحرص على تعدد نسخ المطبوع الواحد تحسبا لكل طارئ.

وبصدد التنظيم الداخلي للخزانة نلاحظ أن نية محافظها معقودة على توسيع فضاء وضع الكتب حتى يتمكن فصل المطبوعات الحديثة عن الحجرية والمخطوطات عن غيرها، وتخصيص مكان خاص للوثائق وللمجلات والجرائد، كما أن النية معقودة لتخصيص مكان خاص بالمطالعة للأساتذة الباحثين وفصلهم عن بقية رواد المكتبة من الطلبة، الشيء الذي سيوفر لهم فرصالعمل في ظروف أحسن.

وعن التنظيم والسياسة المتبعة في إغناء الخزانة بالكتب يقول السيد عبد الله الصبيحي :

«لكي تساير الخزانة وقتها يجب تجديدها، فالمحافظة على التراث أساسية، ولكن يجب تطعيمها بالمؤلفات الجديدة ومسايرتها لما يطبع، وفعلا هذا ما حرصت على القيام به طيلة هذه المدة فحينما لا يجد أحد القراء كتابا ما أعيد طلبه إما عن طريق التصوير من خزانة أخرى أو عن طريق الشراء، وهناك تقليد أساسي وهو أن كل رواد المكتبة يوقعون بأسمائهم عند الدخول بحيث يسهل علينا معرفة أعداد الرواد يوميا، بل بين الصباح والمساء، ثم عند طلب الكتاب يسجل رقمه ومن أخذه وهكذا نتمكن من معرفة الكتب التي تستعمل بكثرة من أجل جلب المزيد من نسخها».

وعلى ذكر رواد الخزانة تجدر الإشارة إلى أن عدد المنخرطين ممن يتوفرون على بطاقات الاشتراك بلغ إلي حدود زيارتنا للخزانة *28294* منخرط، وأعداد هؤلاء تتزايد سنويا بمعدل ألفي منخرط في السنة.

3 ـ علاقة الخزانة بالجهات الرسمية :

يرسم لنا السيد عبد الله الصبيحي صورة قاتمة عن التعامل مع الجهات الرسمية فباستثناء التجاوب الذي يجد من طرف محافظي الخزانات العامة الرسمية كالخزانة الملكية والخزانة العامة أو مديرية الوثائق الملكية حيث لا يرفض له طلب من أجل تزويد خزانته بما ينقصها من الكتب والوثائق عن طريق التبادل والتصوير، وبالإضافة إلى الدور الذي يقوم به شخصيا في اقتناء ما يوجد عند بعض العائلات الكبرى في سلا حينما يريد الورثة تصفية محتوى إحدى الدور الكبرى كلما أرادوا الرحيل عنها باستثناء ذلك فإن تعامل الجهات الرسمية مع الخزانة يبقى سلبيا فهي لا تقوم بأية مساعدة وحتى حينما ترسل بعض موظفات

الجماعة الحضرية كملحقات بالمكتبة فإنهن يرغبن في أن يكون هذا الالحاق في صالحهن لكي يتفرغن لعمل (التريكو) نظرا لعدم وعيهن بمسؤولية العمل في خزانة عامة، لذا فإن السيد عبد الله الصبيحي يضطر لصرفهن حينما يجد أنهن غير صالحات للعمل في الخزانة.

وبموازاة هذه الصورة القاتمة عن عمل من ترسلهم الجماعة الحضرية للمساعدة، يعطي السيد الناظر صورة أخرى عن عمل بعض الباحثين الذين يتطوعون للعمل في الخزانة حيث يقول :

«إن الكثير ممن ساعدتهم الخزانة سواء في مرحلة تعلمهن بالثانوي أو الكلية يأتون الى الخزانة من أجل المساعدة، إما بوضع بطاقات للكتب أو فهرستها وغير ذلك، وهذا راجع بالإضافة إلى رغبة وهواية هؤلاء إلى المعاملة الحسنة التي نعاملهم بها، فحينما تعامل شباب الخزانة على أنهم أبناؤك تساعدهم في البحث عن المراجع وعن المضان، يعترفون بالجميل فيأتون للمساعدة. ناهيك عن الالتزام بقوانين المطالعة، فلا نجد استعمالا سيئا للكتب ولا أوراق مهملة على الأرض، منذ سبعة عشر سنة مرت على افتتاح الخزانة لم يضع أي كتاب، فعلينا أن نقدر هذا حق قدره...»

ندوة بيان يناير بين مطلبيه : الاستقلال والديمقراطية

عبد العزيز باقية

احتضن الفضاء الثقافي لمركب المعاريف خلال أيام : *28* ـ *29* ـ *30* يناير *1994*، ندوة فكرية نظمتها مجلة "أمل" بتعاون مع الجماعة الحضرية للمعاريف. وقد اختارت لها شعار : (بيان يناير *1944* بين مطلبيه الاستقلال والديمقراطية) طرح خلالها مجموعة من الأساتذة الباحثين والمهتمين بالقضايا التاريخية والفكرية تساؤلات جوهرية حول "الحدث"، وتناظروا في ما أحاط به ونتج عليه بشكل علمي معرفي هادف إلى تقويم أولي تبقى الساحة الفكرية في أمس الحاجة إليه. وقد صادفت هذه الأيام الثقافية صدور العدد الرابع من مجلة أمل الذي افتتحت به سنتها الثانية.

لقد تلاقى هذا الهدف مع ما تكتسيه ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال من أهمية على اعتبار أنها منعطف أساسي في تاريخ المغرب المعاصر، مرت عليه مسافة نصف قرن من الزمن، ومع ذلك مازالت له مجموعة من الدلالات والاستمرارية في الوضع الراهن، هذا علاوة على أنه ـ الحدث ـ لم يدرس لحد الآن دراسة علمية منهجية معمقة، الشيء الذي توخت المجلة أن تساهم فيه ولو بقسط بسيط خلال هذه الأيام، ولهذا اقترحت مجموعة من المحاور كمشروع عمل لهذه الندوة وهي :

- العام والخاص في الشروط المحيطة بمبادرة المطالبة بالاستقلال.
- مضمون ومغزى المطالبة بالاستقلال.
- النتائج القريبة والبعيدة التي ترتبت عن المطالبة بالاستقلال.
- انعكاس حدث المطالبة بالاستقلال في بعض أشكال التغيير.

غير أنه ومن خلال مواضيع مداخلات المشاركين المتوصل بها تمكنت المجلة

من احتواء المحاور السابقة في محاور جديدة توزعت عبر جلسات أربع ضمت سبعة عشرة مداخلة تميزت بالتنوع والتكامل. وقد واكبها معرض ثقافي ضم بالإضافة إلى أعداد مجلة أمل مجموعة من الكتب وصور بعض شهداء الحركة الوطنية.

اليوم الأول : الجمعة *28/ 1/ 94* مساء.

توزع عبر جلستين أولاهما كانت افتتاحية تضمنت كلمة الجماعة الحضرية وكلمة مجلة أمل وفي نفس الوقت وقف الحاضرون دقيقة صمت ترحما علي روح المرحوم الأستاذ محمد زنيبر - الذي كان من المقرر أن يشارك في هذه الندوة لولا المنية - وكذا على سائر أرواح كل من استشهد من أجل استقلال الوطن. وبعد ذلك بدأت الجلسة الفكرية الأولى التي ترأسها الأستاذ «حسن الصميلي» والتي كان عنوانها هو : «العام والخاص في الشروط المحيطة بحدث المطالبة بالاستقلال» . وقد تدخل خلالها كل من الأساتذة :

- الاستاذ ابراهيم بوطالب : بعرض عنون بـ «وثيقة *11* يناير *1944* دستورالمغرب المعاصر» ومن خلاله أشار إلى أن الوثيقة رغم قصرها فهي وثيقة نضالية جاءت لإثبات الذات، فإذا سلمنا جدلا أنها دستور فإن الدساتير تتميز ببعض المواصفات، وبالرغم من كل هذه المحددات فإن الوثيقة تعتبر دستورا مصغرا للمغرب المعاصر.

- الأستاذ عبد الله العياشي : عنون مداخلته بـ «جذور وثيقة *11* يناير *44* وظروف تقديمها الوطنية والدولية» وقد حاول خلالها أن يبين بأنها حلقة من حلقات النضال المغربي الذي واجه الاستعمار على مختلف المستويات وخلال جميع محطاته بدءا من محاولة التقسيم أو التفرقة بين العرب والبربر ووصولا إلى مرحلة ظهور كتلة العمل الوطني وبرنامجها النضالي *1934* وانتهاء بتقديم وثيقة *11* يناير *1944*. التي جاءت في عصر تصفية الاستعمار العالمي.

- الأستاذ أحمد زيادي «السياق التاريخي والسياسي لوثيقة الاستقلال».

لقد استعرض الأستاذ زيادي مجموعة من الوثائق المتعلقة بالحركة الوطنية حاول من خلالها أن يربط بين ماهو سياسي وماهو تاريخي مسجلا في نفس الوقت بعض التغيرات التي ساهمت في إيجاد الشروط الموضوعية للحركة الوطنية ومنها : الدعاية ضد فرنسا عبر إذاعة برلين - هزيمة فرنسا أمام الألمان - خروج أول مظاهرة وطنية بمدينة تطوان للمطالبة بالاستقلال.

ـ الأستاذ محمد معروف الدفالي : «حدث المطالبة بالاستقلال بين الفجائية والانتظار). ومما جاء في مداخلته أن الوضع في المغرب وبالأخص في سنة 1937 عرف توجيه الوضعية من طرف الحركة الوطنية لصالحها وضدا على سلطات الحماية مما أدى إلى حل كتلة العمل الوطني في 18 نونبر 1937 ، وتعطيل جريدة "العمل الوطني" في 8 دجنبر 1937 ، وقد سعى المستعمر من وراء هذه التحركات إلى اجتثات الحركة الوطنية إلا أن محاولاته باءت بالفشل. وعموما فقد ظل العرض غنيا بالتساؤلات العلمية التي توقف عندها المتدخل كثيرا ومنها نسوق : «هل كانت الوثيقة تحمل مفهوم الحدث وهل كان الحدث فجائيا ؟ أم أنه حدث منتظر ؟ وبهذا العرض تكون الجلسة الأولى قد أنهت المحاور التي تدخل في إطار العام والخاص في الشروط المحيطة بالحدث.

اليوم الثاني : السبت 29 يناير 94.

انقسم بدوره إلى جلستين : الصباحية وقد ترأسها الأستاذ محمد حجي محورها : «من أوجه ردود الفعل المرتبطة بمطلب الاستقلال» تدخل خلالها مجموعة من الأساتذة :

ـ «من مقدمات عهد المطالبة بالاستقلال» تحت هذا العنوان جاءت مداخلة الأستاذ مصطفى بوعزيز الذي استهل عرضه بطرح تساؤلات عن المضمون العام للممارسة السياسية آنذاك. مناقشا في نفس الوقت الوثيقة التي يرى بأنها رمز محمل بدلالات كثيرة تؤشر على التحالف بين السلطان والحركة الوطنية، مستدلا على ذلك برسالتين الأولى مؤرخة ب 28 يوليوز 1943 صاغها رئيس تلاميذ ثانوية مولاي يوسف المهدي بن بركة. والثانية مؤرخة ب ـ 4 غشت 1943 ، موقعة من طرف : مجموعة من الشخصيات من بينهم : المهدي بن بركة ـ أحمد اليزيدي ـ عبد الرحمان زنيبر.

ـ أما الأستاذ محمد الفلاح العلوي فقد جاءت مداخلته عبارة عن «قراءة في بعض وثائق ومذكرات المطالبة بالاستقلال والديمقراطية» مستندا فيها على الوثائق التي قدمت للمطالبة بالاستقلال. ويرى على أن عامل التوحيد بين هذه الوثائق هو العنصر الحاسم في أهم اللحظات عند القيادة الوطنية وقد انتهى إلى أن مسألة الديمقراطية تبقى أصعب من الاستقلال لذا علينا أن نأخذ في اعتبارنا جميع المعطيات السابقة لسنة 1944 إذا ما أردنا أن تنجح كل الأعمال والقرارات التي تسير في هذا الاتجاه وتحقق المتوخى منها.

ـ أما العرض الثالث لهذه الجلسة فهو الذي شارك به الأستاذ العربي واحي تحت عنوان «أحداث المطالبة بالاستقلال بسلا في يناير 1944» فهو يرى بأن الإقامة العامة قد أصابها الذعر عند بروز وثيقة 11 يناير 1944 هذا في وقت تفاعلت فيه مختلف قوى الشعب المغربي مع الحدث وركز في مضمون مداخلته على تجربة المدن عامة ومدينة "سلا" خاصة التي عرفت نموا مبكرا مشيرا إلى أن عدد الموقعين على الوثيقة من مدينة سلا وصل سبعة أفراد. ويعود السبب في هذا الوضع الذي عرفته وعاشته مدينة سلا إلى سببين هما : التقاليد النضالية العريقة من جهة وقربها من المخزن والإقامة العامة من جهة ثانية.

ـ وكانت أخر مداخلة مندرجة في الجلسة الثانية للأستاذ (أحمد مهدرها) معنونة بـ : «ردود فعل الفرنسيين ضد بيان 11 يناير 1944. من خلال وثيقة فرنسية» فقد اعتبر أن الإقامة ترى أن الوطنيين تطورت أساليبهم النضالية ما بين 1930 و 1944 والسبب في هذا يعود إلى ثلاثة عوامل هي : تأثر سمعة فرنسا أثناء الهزيمة ـ السياسة المتبعة إزاء السلطان ـ التقارب السياسي بين المخزن وجمعية قدماء التلاميذ.

أما الفترة المسائية، فتمحورت المداخلات حول : «جدلية الاستقلال والديمقراطية في بيان يناير 1944» وترأس أعمالها الأستاذ عثمان المنصوري وخلالها تدخل كل من الأساتذة :

ـ الأستاذ محمد حجي الذي تناول بالحديث «المطالبة بالاستقلال والديمقراطية : مذكرتا 11 و 13 يناير» موضحا بأن موضوعه سيكون عبارة عن ملاحظات لأنه ليس مختصا في التاريخ المعاصر فهو يرى أن الحديث يتركز حول وثيقة 11 يناير 44 في وقت تطمس «وثيقة 13 يناير 44 لحركة القوميين» من طرف خصوم أصحابها ويستمر في هذا المنحى متسائلا عن ماهية مذكرة 13 يناير 44؟ وهل هي مخالفة للأولى؟ وللجواب يقول الأستاذ حجي : «على مستوى الحيثيات هناك اختلاف، أما فيما يتعلق بالجوهر فيتفق مضمونا ولفظا. لقد أدتا ـ وثيقة 11 يناير ووثيقة 13 يناير ـ مهمتهما في تلك الفترة التاريخية».

وبعد هذه المحاولة التركيبية شارك الأستاذ محمد المريني بمداخلة تحت عنوان : «بيان 11 يناير منطلق هام للنضال الديقراطي» منطلقا من الحديث من دستور 1908 الذي جاء في ظل شروط محلية ودولية تمثلت في تأثير الثورة

الفرنسية وأبعادها، وبعد أن أشار الأستاذ إلى إجهاض هذا المشروع انتقل إلى مرحلة تقديم وثيقة 11 يناير التي ربطت بين الاستقلال والديمقراطية قائلا بأن هذه الوثيقة تتصف بنَفَسٍ نضالي متأصل، فمطلب الاستقلال في مرحلته مطلب ديمقراطي يعبر عن جدارة الشعوب التي تقرر مصيرها بنفسها، وتزيل الهيمنة الاستعمارية عن أوطانها.

أما المداخلة الثالثة في هذه الأمسية فهي التي قدمها الأستاذ عبد الحميد احساين في موضوع : «القصر ووثيقة 11 يناير 1944». فالباحث في هذا الجانب يقول الأستاذ «احساين» لا تسعفه المادة المصدرية كما أن التأويلات والأحكام المسبقة تعقد عمل الباحث وتضع علامات كثيرة من الاستفهام، ففي موضوع المطالبة بالاستقلال يحق لنا أن نسأل متى بدأ التنسيق بين الحركة الوطنية والقصر؟ وكيف تمت ؟ وماهو مضمون المحادثات ؟ فلا نعرف بالضبط متى اتفق القصر مع الحزب الوطني حول مسألة الاستقلال، غير أن الذي يمكن قوله في هذا الجانب هو أن اللقاءات المتواصلة بينهما يمكن أن تصنف إلى :

- مواضيع تنظيمية إجرائية - مواضيع جوهرية - مسألة الديقراطية.

أما فيما يتعلق بالمداخلة الرابعة فهي التي شارك بها الأستاذ «أحمد الرضاوني» والمتمحورة حول الديمقراطية والحركة الوطنية وقد عنونها بـ : «الخلاف حول المسألة الديمقراطية في الحركة الوطنية» معتبرا أن الحركة الوطنية بتياريها : حزب الاستقلال وحزب الشورى لم تحسم في مسألة الجانب الديمقراطي، فلم يكن رجال الحركة القومية موافقين على وثيقة 11 يناير 1944، كما أنه لم تتم استشارتهم لأن الوثيقة وقعت سرا. بينما وقعت وثيقة القوميين (13 يناير) بنقاش علني وعام، لينتهي إلى أن وثيقة 11 يناير 1944 قدمت باسم حزب معين وليس باسم تشكيل سياسي.

وقد كانت آخر مداخلة في جلسة هذا المساء تحت عنوان «وثيقة 11 يناير بين مطلب استقلال الدولة ومطلب دمقرطة المجتمع» وهي المداخلة التي شارك بها الأستاذ عثمان أشقرة. فحدث تقديم وثيقة الاستقلال يعتبر حدثا تاريخيا وسياسيا شكل قفزة نوعية عند مفكري النخبة السياسية فمن المطالبة بالإصلاحات والمطالب المستعجلة إلى المطالبة بالاستقلال، ورغم كل هذه المحطات فإن الغائب الأكبر هو دمقرطة المجتمع، ثم يضيف الأستاذ «أشقرة»

قائلا بأنه يجب أن نقرأ الوثيقة بطريقة تاريخية وسياسية إذا ما أردنا إدراك ما وقع بعد الاستقلال.

اليوم الثالث : الأحد 30 يناير 1994.

إن المحور العام الذي دارت حوله مداخلات هذه الجلسة هو : محاولات ربط الحاضر بالماضي من خلال بيان يناير 1944. وترأس جلسة أعمالها الأستاذ جلال الطاهر. وتوزعت المداخلات إلى أربعة محاور متكاملة كان أولها هو : «تأملات في الوضع الراهن على ضوء مبادئ وثيقة 11 يناير 1944» شارك بها الأستاذ عبد اللطيف حسني قائلا : إن تاريخ الوثيقة يمتد بعمق في التاريخ الوطني وعلينا مساءلته لمعرفة مدى تطبيق الحركة الوطنية لروح بيان الوثيقة. فالنخبة السياسية وافقت على التعامل مع جوهر الوثيقة في بعديها النضالي والدستوي هذا في الوقت الذي كان النظام يصر على عملية المد والجزر على الحركة الوطنية وقد خلص الأستاذ حسني إلى أن السلطة لجأت إلى مجموعة من الأساليب الجديدة ظاهرها ديمقراطي وباطنها سلطوي، ليتساءل هل نجحت الحركة الوطنية ؟ إن الطريق شاق وصعب وبالرغم من كل ما ذكر فإن الوثيقة تبقى أمانة في عنق الحركة الوطنية.

وفيما يتعلق بالمداخلة الثانية خلال هذه الجلسة فقد جاءت تحت عنوان «11 يناير 1944 وراهنية السؤال» شارك بها الأستاذ "حسن نجمي» الذي أبى إلا أن يتوقف عند بعض الإشكاليات المتعلقة أولا بمسألة معدل السن للموقعين على الوثيقة - (أكبرهم يبلغ 44 سنة وأصغرهم لم يتعد واحد وعشرين من عمره) محاولا الوصول إلى الوضع الراهن متسائلا : هل شباب اليوم يختلف عن شباب الأمس ؟ وهل الشاب المغربي حاليا شاب لا سياسي ؟ فإذا كانت الشبيبة المغربية في الأربعينات قد خضعت لمرجعية دينية وصاغتها صياغة نضالية فإن شبيبة اليوم لم تحافظ على نفس المرجعية لأن شبابنا لا يريد أن يظل رهينا للحظة تاريخية انتهت سياسيا وثقافيا، لذا فإن الجيل الجديد في نظر المتدخل ليس سلبيا وإنما يملك العديد من القدرات للفعل والتغيير إذا ما أعطيت له الفرصة على جميع الأصعدة وبذلك يمكن له أن يخرج من دائرة التهميش التي يعيشها.

أما المداخلة الثالثة فهي التي شارك بها الأستاذ (محمد ملوك) تحت عنون «الحركة الوطنية والديمقراطية» حيث قسم النضال الوطني إلى مجموعة

مراحل هي : (44 ـ 1955) ـ (55 ـ 1965) ـ (65 ـ 1975) (1975 ـ الآن).
وقد اكتنفت هذه المحطات التاريخية مجموعة من الملابسات السياسية وترتبت عنها مجموعة من النتائج قسمها بدوها إلى قسمين هما :

المرحلة الأولى التي اتسمت فيها قيادة الحركة الوطنية بالآفاق المحدودة نظرا لأن مرجعيتها الفكرية سلفية ونضالها أحادي ونظرا لأن الهم الأساسي آنذاك انحصر في التركيز على أولوية الاستقلال وبالتالي تهميش الجانب الديمقراطي.

والمرحلة الثانية عرفت خفوت هاجس الاستقلال وانفجار تناقضات داخل الحركة الوطنية مما مهد لبروز مواقف لاديمقراطية وبالتالي فإن القضية المركزية عند الوطنيين كانت بالأساس هي الاستقلال وأما مسألة الديمقراطية ومدى تحقيقها فقد عرف صراعات متعددة أخذت أشكالا عنيفة صدامية تارة وأحيانا طبعت بالتفاوضية وكل ذلك بهدف إرساء أسس ديمقراطية تكون بمثابة المرجع الأساسي للوطنيين.

وفي المداخلة الأخيرة المعنونة «بالذكرى الخمسينية للمطالبة بالاستقلال في أجهزة الإعلام المغربي» ، تتبع الأستاذ عنقا الإدريسي صدى الذكرى الخمسينية في أجهزة الإعلام بمختلف أنواعها وتوجهاتها ، مستخلصا من متابعته مجموعة نتائج وتساؤلات حول مغزى الذكرى ومستوى الاهتمام بها في مختلف الأجهزة.

وفي ختام هذا التقرير تجدر الإشارة إلى إن جلسات الندوة كانت غنية بتساؤلات، وتدخلات الحاضرين، بشكل ينم عن تعطش المهتمين لمثل هذه اللقاءات، تعزيزا لمعارفهم وإرضاء لما يختمر في ذاكرتهم من علامات استفهام حول تاريخ وكفاح الحركة الوطنية بشكل عام.

كتابات نسائية

- وثائق حول المرأة من القرن التاسع عشر
- ضرب النسا
- مجموعة البحث الجامعي للدراسات النسائية

وثائق حول المرأة من القرن التاسع عشر

مؤسسة الزواج

فاطمة العيساوي

تقديم

قبل التطرق للوثائق المتعلقة بهذه المؤسسة ؛ لابد من إبداء بعض الملاحظات التي توصلنا إليها بعد عملية مسح لعدد كبير من الوثائق المخزنية :

1 ـ قلة الوثائق التي تتحدث عن المرأة بالمقارنة مع الوثائق الخاصة لمواضيع أخرى : فممثلو المخزن الذين كانوا يراسلونه في قضايا متنوعة ؛ قلما كانوا يتعرضون لمسألة تتعلق بإحدى النساء ؛ حتى أننا قد نصادف كناشا يفوق عدد وثائقه الألف لا يحتوي على وثيقة واحدة تتحدث عن مسألة تخص المرأة، ويمكن أن يفسر هذا بعاملين :

ـ أ ـ طبيعة الوثائق المخزنية ؛ إذ هي عبارة عن مراسلات رسمية بين المخزن المركزي وممثليه في القبائل والحواضر.

ـ ب ـ طبيعة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ؛ فقد كان مجتمعا ذكوريا ، لا تظهر فيه المرأة على مسرح الأحداث، لا لأنها لم يكن لها أي دور في الحياة اليومية، ولكن للنظرة التي كان ينظر بها إليها.

2 ـ طابع النخبوية : إذ نلاحظ أن هذه الوثائق لا تطرح القضايا المتعلقة بالمرأة إلا بالنسبة لنساء رجال المخزن، أو الشريفات ؛ سواء اللائي لهن صلة قرابة مباشرة مع المخزن، أو مطلق الشريفات ؛ وكنتيجة لذلك نجد أن الوثائق المتعلقة «بالعاميات» قليلة جدا ؛ إن لم تكن عبارة عن إشارات فقط.

3 ـ أغلب الوثائق المخزنية تهتم بالمرأة الحضرية ؛ أكثر من البدوية، ويمكن أن يفسر هذا بأحد الأمرين :

ـ ارتفاع القيمة الفعلية للمرأة في المدينة، وكذا وعي الرجل بهذه القيمة.

ـ نظرة المخزن إلى المرأة في المدينة تختلف عنها في البادية.

4 ـ اهتمام الوثائق المخزنية ينصب أكثر على القضايا الشرعية الخاصة بالزواج والإرث، وبالتالي الحيف الذي كان يحيق بنساء القرن التاسع عشر من جراء عدم تطبيق الشرع الإسلامي بالنسبة لهاتين المسألتين.

5 ـ تغلب على الوثائق المتكلمة عن المرأة سمة التحكيم ؛ فهي عبارة عن مشاكل وقضايا ترفع إلى السلطان للنظر فيها : إما لأهميتها، أو لاختلاط الأمر عند ممثلي المخزن وعجزهم عن إيجاد الحل المناسب لها، وربما أيضا لطابع المركزية الذي كان يطبع جهاز المخزن خلال هذه الفترة.

أما بالنسبة للوثائق التي تتحدث عن مؤسسة الزواج : فبعد قراءة لآلاف الوثائق المخزنية أمكننا استخراج بعض الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع، وقد يبدو أن بعضها عاد لا يخرج عن المألوف مما نعرفه ونعيشه يوميا ؛ ولكن ألا يجب أن نضع يدنا على بعض الأشياء مستندين على وثائق تثبت تجذر وتاريخية هذا المألوف، ومع ذلك قد تصادفنا وثائق أخرى لا تخلو من الطرافة والمفاجأة، وأحيانا أخرى من الاستغراب والاستنكار.

وقد ارتأينا أن نضع تصميما لهذه المجموعة من الوثائق انطلاقا من المراحل الأولى للزواج إلى نهايته ؛ مقتصرين على بعض النماذج لأن المجال لا يسمح بغير ذلك.

I - تأسيس الزواج.

أ ـ الإكراه على الزواج.

خلافا لما هو شائع لم يكن الزواج دائما يفرض على المرأة ؛ إذ يمكنها أن ترفضه ؛ بل وأن تجهر بذلك ، وأكثر من هذا يمكن أن يرفع أمرها إلى السلطان نفسه للنظر فيه كما توضح ذلك إحدى الرسائل الرحمانية التي جاء فيها :

«خديمنا الأرضي القايد محمد أشعاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فحاملاه من غمارة ادعيا أن ابنة عم لهما يتيمة زوجها أخ لها توفى من رجل من غير وكالتها ولا رضاها وهي كارهة فنأمرك أن ترفع القضية للشرع المطاع وما حكم به نفذه وفقك الله والسلام»[1].

ب ـ توقيع عقد الزواج.

كان المخزن يؤكد على ضرورة تطبيق الشرع عند توقيع عقد الزواج. وكذا على الطقوس التي ترافق هذا التوقيع، وكان متشددا في ذلك خاصة بالنسبة لبنات بعض الأسر المخزنية أو الشريفات، اللائي كان لهن بالإضافة إلى ذلك ضابط معين ينظم بناء زواجهن[2] وكاستشهاد على كل هذا نأخذ بعض الأمثلة :

1 ـ «القايد محمد بن الطالب محمد اليوسي وصل كتابك مشتملا على فصلين والفصل الثاني يناقض الأول معنى الأول الإعلام بكون الفقيه مولاي محمد رحمه الله عقد الزواج لابنته البكر لال زينب قيد حياته مع ولده الشريف سيدي محمد بن العربي المدغري وقدم الزوج الآن للزفاف بزوجته فيقتضى أن العقد المطلع عليه تم بينهما ومعنى الثاني أن الأولاد محاجير ولا محيد عن إعلامنا لتكميل عقد الزوجية بينهما وهذا عين التناقض وعليه فإن كان المراد بالعقد العقد المصطلح عليه بوقوعه في المسجد مثلا وسمع الحاضرون من والدها المخبر مولاي محمد وقبل ولي الزوج وعينوا الصداق وقرأوا الفاتحة وولول النساء فلم يبقَ إلا أن يدعى لهم بما حاصله ألف الله بمشيئته بينهما أجمل ائتلاف وأمنهما من طوارق الاختلال وطرائق الاختلاف أمنا يتصل بالرفاء والبنين وعميم الألطاف وإن كان المراد بالعقد الوعد بأن وجه الشيخ المذكور من يخطبها لولده من أبيها قيد حياته فأجيب بالقبول وتواعدوا للعقد ليلة البناء فللقاضي في ذلك محل نظر والسلام»[3].

2 ـ « الطيب بن محمد الكنتافي وبعد فقد وصل جوابك مستند الشريف جنابنا النظر في تزويج أختك لمن ذكرت وصار بالبال فلابد من بناء ذلك على أساس شرعي فإنها يتيمة لا يزوجها بما شاء وممن شاء إلا وصى لك مع الإخبار من قبل أبيها فإن كان عندك موجب بذلك من قبل أبيها فوجه نسخة منه مع من يتولى العقد عليها من قبلك بحكم التوكيل الشرعي أو رسم من تنوبه عنك فيه هنا وإن لم يكن عندك إيصاء بذلك فالشرع يقدم عليها أنت أوغيرك وابعث به إلينا والسلام»[4].

3 ـ «القاضي السيد محمد بن السيد العراقي وصل كتابك ذكرت أنك كتبت لجانبنا الشريف سالفا وأخبرت بأن شريفة علوية بثغر طنجة صعنت في السن وهي فقيرة ورام بعض الشرفاء أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش

خطبتها فأوقفت أمرها على ما يقتضيه نظرنا الشريف من إمضاء مراعاة لفقرها أو الرد مراعاة لقاعدة الشرفاء العلويين في إنكاح الكفء الخاص طالبا الجواب على ذلك وصار بالبال فلتجر في ذلك على القاعدة في تزويج العلويات ثمة فإنها ثابتة مقررة هنالك والسلام»[5].

II - الحياة الزوجية.

أ ـ مواقف إيجابية.

هناك عدة وثائق تبين الدور الإيجابي الذي كان للمرأة في الحياة الزوجية؛ لما كانت تبادر إليه من تضحية ووقوف بجانب زوجها إن كان يمر بمحنة ما ـ وتقدم له العطاء المعنوي والمادي للرفع منه. وهذه بعض النماذج عن ذلك :

1 ـ «ولدنا البار الأرضى سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد (...) إن زوجة ابن الخياط الزرهوني الذي بسجن فاس العليا أكثرت التردد على حضرتنا طالبة تسريحه ذاكرة أنه لا تباعة عليه وإنما سجنه الحباري ظلما ولاذت بالبركة سيدي الحاج العربي وكتب على شأنه غير ما مرة وأخبر الشامي بأنه ليس على يده فلابد طالعنا بحقيقة أمره (...) والسلام»[6].

2 ـ «القائد بوشعيب الفرجي وبعد فقد اشتكت علي حضرتنا العالية بالله المرأة صفية زوج بوشعيب بن المعطي الفرجي بأن خليفتك قبض على ولد أخت زوجها المذكور طالبا منه إعطاء معاونة حين كن بحركة سوس وأوجعه ضربا حتى مات ولما عزم زوجها المذكور على التشكي بذلك على حضرتنا الشريفة بالحملة قبضت عليه أنت ووجهته مسجونا للقبيلة ثم نقلته لسجن الرباط بعد أن أخذت له مالا له فنأمرك أن تخبر بالحقيقة في ذلك وراقب الله فإن لسان الخلق كلام الحق وللناس إطلاع على بعضهم بعضا والسلام»[7].

3 ـ «عمنا مولاي عرفة وبعد فإن الخديم ادريس العيسوي كان أخبر بتقاعد أيم والده المرأة عائشة بنت بوشتى الشركي السنوسي على أمور متروك والده المذكور بعد وفاته وأذن له في استخراج ذلك منها ثم وردت على حضرتنا الشريفة شكايتها بالكشف عن الواقع وهو أنها كانت معروفة عند الخاص والعام بالمال والغنى ناضا وزرعا وضرعا وحليا وأثاثا وأملاكا لأنها كانت تزوجت قبل

والده بأربعة رجال متعاقبين من قبيلتها وكلهم ماتوا عنها أغنياء فورثت من كل واحد منهم نصيبا من المال والماشية والبهائم ودفعت له ذلك بالعدول كما بالرسم الذي بيدها وصارت تبيع ما لها في البلادات بقبيلتها وتشتري ببلاد زوجها المذكور كما اشترت أملاكا بداخل مدينة فاس وأن رسوم ما ذكر كله تحت يدها »[8].

ب - الخلافات الزوجية.

كانت الخلافات التي قد تحدث لبعض موظفي المخزن مع زوجاتهم، ترفع بدورها إلى السلطان ؛ مما يفسر الطابع الأبوي لجهاز المخزن، وطبيعة علاقته بممثليه ؛ كما يتضح من خلال هذه الوثيقة التي نبين في نفس الوقت المكانة التي كانت للمرأة لدى المخزن.

«المحتسب الحاج المهدي بناني وبعد وصل كتابك لعلي مقامنا بالاعلام بأنك تأهلت في شهر ربيع النبوي وحكمت عليك العروس بإنشاء نزهة مع العيال وطلبت تمكينك من مفتاح إحدى العرصتين، عرصة مولاي عبد السلام أو عرصة ابن عودة لعدم قدرتك على مخالفة أمرها وصار بالبال. أما تأهلك فبالرفاء والبنين والبركة، وقد تأسدت في غاب فاس من حيث تأهلك وتنمرت على العيال القديم وعملت بمقتضى الشنشنة الفاسية من حيث تمكن حكم الشيخ في حيرة منهم إلى أن صاروا إلى حالة لا يقدرون معها على مخالفة الأمر وهو من المعاشرة بالمعروف التي أمر الله بها : وفي الأثر لا يغلبن إلا كريما ولا يغلبهن إلا لئيم، وفي الصحيح أن المهاجرين رضوان الله عليهم لما قدموا المدينة مهاجرين وجدوا إخوانهم الانصار يغلبهم نساؤهم ؛ وعليه بك الفخر بغلبتهن من وجوه ومقتضيات شرعية وأما العرصتان فقد أصدرنا أمرنا الشريف للخديم المقري بأن يخيرك في أيتهما أردت ويمكنك منها والكتاب له بذلك يصلك والسلام»[9].

جـ - الخيانة الزوجية.

بجانب المواقف الإيجابية التي كانت للزوجات تقابلنا في بعض الوثائق مظاهر سلبية كانت تمس بعض الزيجات مثل الخيانة الزوجية ؛ مما يذكرنا بأنها ظاهرة تاريخية.

من أمثلة ذلك :

1 - «ابن العربي النصيري : وصل كتابك بأن العربي التاذلي المكناسي

كان اشتغل مع زوج ابن عمك الحاج محمد النصيري بالفساد مدة غيبته للحج ولما قدم من سفره تَخَوَّفَ منه المذكور وزوجته فأطعماه سما فمات من حينه حسبما بالموجب الذي وجهت وصار بالبال فغاية ما تضمنه الرسم المذكور أن المكناسي المشار إليه كان يتردد لدار النصيري مدة غيبته بالمشرق من غير أن تكون به تدمية الهالك من طعمة السم وعلى كل حال ها نحن أمرنا قاضي مكناس بتنفيذ الحكم الشرعي في القضية والسلام»[10].

2 ـ «محبنا الأرضى التاجر المرتضى السيد الحاج محمد بن المدني بنيس حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد فيصلك كتاب للفقيه سيدي العربي بن المختار (...) هذا وإن الحاج العربي بنيس تسرّى هنا ولم يقصِّر وأخشى إن حققت زوجته ما كان مشتغلا به هنا من الزهو مع السراري أن تَذْبَحَه فنُحِبُّك تَكْتُم عنها ذلك أي التسري والزهو ولا تقله إلا لجيرانكم ونگاگيف المدينة وجيرانه هو وأبناء عمكم قاطبة فإنهم يسترون ذلك بحيث لا يصلها إلا من ساعته وإن سمعته فاقبضوا منها ضامن الروح فإن شجاعة نساء فاس لا يصلها غيرهن وهذا من العجب وأنت قصّر ولا أخشى عليك إلا من السريات وأما الحرة فحاشاها ولكن إذا رأت النساء يذبحن أزواجهن فلابد أن تتشجع غير أن شجاعتها لا تصل إلى الذبح وإنما تصل للعض والقمش والضرب بالمشامير وهو أهون ونسأل الله أن تضربك أو تهددك فقط وأما القمش والعض فإنهما يؤثران فيك ويراهما الناس وعلى المحبة والسلام»[11].

III ـ مشاكل الزوجات.

أ ـ التنكيل والتعذيب.

تتحدث عدة وثائق عن سوء المعاملة التي كانت تواجه بها المرأة في بعض الأحيان من طرف زوجها[12] إذ كانت تعاني من التنكيل البدني والمادي بالاعتداء عليها بالضرب والجرح والابتزاز بل يصل الأمر إلى القتل : خاصة إذا كان الزوج مسؤولا مخزنيا وتتضح هذه الصورة من الوثائق التالية :

1 ـ «خديمنا الأرضى الطالب بوسلهام بن علي (...) وبعد فحاملته الشريفة لال زينب بنت عبد الجليل الوازانية ادعت أنها أرادت التوجه للمشرق وتزوجت ابن عمها سيدي الراضي بن محمد على أن تتوجه صحبته صيانة لعرضها وحفظا لمروءتها فظلمها وتعدى عليها في نفسها ومالها وحلق رأسها

وجرحها ومد يده في أصولها ومتاعها فبوصول كتابنا هذا إليك احتل عليه حتى تحصّله واجعله في السجن حتى يرفع يده عن متاعها وأصولها واعلمنا به ولابد والسلام».

2 ـ «المعطي الزراوي بأن رجلا من إيالته اسمه رحال بن الذهبي وقع بينه وبين بنته مالا ينبغي ولما اطلعت زوجته على ذلك وخشي منها إفشاءه عمد للزوجة وشوه خلقتها بقطع أنفها وشفتيها ولما فرت بنفسها وظن أنها عند الأمين الحراق وخشي صدور الكتب منه لحضرة سيدنا بالواقع تشكي على مولاي عثمان بأن الأمين المذكور وأخويه أخذوا له زوجته على وجه الفحش وجرحوا ابنته وأثبت على ذلك مواجب زور وكتب له مولاي عثمان في ذلك فأجابه بالواقع ثم إن الشاكي فعل فعلا أعظم من الأول وهو أنه قتل بنته تعديا وملحها في سماطه وورد على شريف الأعتاب ناسبا قتلها للمشكو بهم طالبا من سيدنا التنبيه على القبض عليه إذا ورد على الأعتاب الشريفة»[14].

3 ـ «حَمٍّ البورزوني وبعد وصل كتابك بقتل الخديم الحرزلاوي لزوجته البورزونية ومنع أهلها من مباشرة دفنها بإلقائها بمطمورة، وقد كادت أن تقع فتنة بينهم بسبب ذلك فسايست أمرهم بما بينته حتى يأتيكم جوابنا الشريف بما يكون عليه العمل في هذه القضية وصار بالبال فقد كتبنا للخديم المذكور بالانصاف على عرف القبيلة فيما بينكم كما كتبنا لعمنا مولاي عرفة وخليفة باشا مكناس في ذلك فليكن تمشيكم عليه والسلام»[15].

ب ـ تجاوزات موظفي المخزن.

مست هذه التجاوزات المرأة كذلك ؛ إذ تذكر عدة وثائق كيف أن يد بعض موظفي المخزن قد امتدت إليها، وكان ضحيتها عدد من الزوجات. من بين هذه الوثائق ما يلي :

1 ـ «القاضي السيد عبد الرحمان بن مبارك (...) بلغنا أنك خرقت الضابط الشرعي في الانكحة فصار الرجل لا يزوج بنته إلا إذا استأذنك وأعطاك، ورسم الطلاق لا تحوزه المطلقة حتى تدفع لك عشر الصداق ...»[16].

2 ـ «القائد محَمد بن خمليش وبعد فقد أخبر الخديم أحمد بن البهلول المراحي أنه كتب لك في شأن رجل من إخوانه يريد الرجوع لبلده فمنعته من ذلك وقبضت عليه وحيث ألح عليك في تسريحه أغريت من يطعمه فلما أطعمه سرحته ووجهته له وأبقيت زوجته تحت يدك لما لا ينبغي فكتب لك عليها

فأنكرتها ثم لما قبضت منها عددا من الدراهيم أظهرتها وأغريتها على إنكار الزوجية حتى كادت تنشأ فتنة بسببها ... »[17].

3 ـ «القاضي السيد بوبكر الغرابي وبعد فقد أخبر الخديم ابن البهلول الامراحي بأنك (...) تراميت على زوجة لبعض إخوانه وأردت انتزاعها من يد زوجها وأذنت لاخوانك في الضرب حتى انتزعوها من يد أهلها وما حازها منهم إلا الخديم بلعباس بن الهاشمي من اخوانك ووَجَّهَهَا إليه ؛ وهذا تهور كبير وخروج عن الطور شهير ويتحاشى ذلك المنصب من هذه السقطات وينزه عن رذيلة هذه الموبقات وعليه فنامرك أن تكف عن هذه الفعال التي لا تحمد عاقبتها بحال وتراقب ربك في عباده ... »[18].

جـ ـ الطلاق.

لا تخلو الوثائق من الحديث عن المطلقات والتعسف الذي يلحق بهن حتى بعد الطلاق ؛ مثلما يظهر من خلال هذا النموذج :

«خديمنا الأرضى الطالب بوسلهام بن علي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فحامله قدور بن عبد المومن البدوي ادعى أنه كان زوج ابنته من عبد السلام بن العربي النسب وطلقها هذه منه واليوم أراد تزويجها ممن رغب فيها فلم يدعه فإذا كان الطلاق صحيحا وإنما أراد هذا المطلق منع الزوجة اقبض عليه وأدبه حتى لا يعود لذلك وإن كان الطلاق غير صحيح فارفعهما للشرع وما حكم به عليه العمل والسلام»[19].

ويمكن أن تنتهي بغض الزيجات بواسطة هجر الزوج لزوجته وتركها للضياع كما تعبر عن ذلك هذه الوثيقة :

«بعد أداء ما يجب لشريف مقام مولانا نصره الله وأدام تأييده وعلاه يعلم سيدنا أسعده الله قد اشتكى بالاعتاب الشريفة من ناب عن الشريفة السيدة رقية بنت سيدي عبد الرحمان الشاكري ذكر أن لها بنات بدار الشريفات وكان لها زوج ثم إنه فر عنها وبقيت للضياع طالبة من الجانب العالي بالله الإنعام عليها بالدخول للدار لتجتمع مع بناتها »[20].

خاتمة.

كانت هذه مجموعة من الوثائق التي تتحدث عن جانب من حياة المرأة، ورغم تقديمنا لها كمادة خام فهي تدل على غنى الوثائق المخزنية ؛ ليس فقط من الناحية المعرفية، ولكن أيضا من الناحية المنهجية لمساهمتها في سد الفراغ الموجود في المصادر التاريخية الأخرى، فيما يخص التاريخ الاجتماعي للمغرب.

هــوامــش

(1) في 11 ربيع الثاني 1245/10 أكتوبر 1829 وثائق المولى عبد الرحمان المحفظة 1/1 الخزانة الحسنية.

(2) تشير الوثيقة إلى هذا الضابط دون أن تفصح عنه.

(3) رسالة حسنية بتاريخ 8 صفر 1301/9 دجنبر 1883. كناش 348 خ.ح.

(4) رسالة حسنية بتاريخ 21 ربيع الثاني 1302/7 فبراير 1885 كناش 360 خ.ح.

(5) رسالة حسنية بتاريخ 5 جمادى II 1306/6 فبراير 1889. الكناش 671 خ.ح.

(6) رسالة رحمانية بتاريخ 14 ذي القعدة 1263/24 أكتوبر 1847، مديرية الوثائق الملكية، محفظة فاس.

(7) رسالة حسنية بتاريخ 4 صفر 1301/5 دجنبر 1883، الكناش 348 بالخزانة الحسنية.

(8) رسالة عزيزية بتاريخ 20 جمادى الأولى 1314/26 نونبر 1896 الكناش 635 خ.ح.

(9) رسالة حسنية بتاريخ 6 جمادى الثانية 1301/3 أبريل 1884، الكناش 516 خ.ح.

(10) رسالة حسنية بتاريخ فاتح شعبان 1308/11 مارس 1891، الكناش 632 خ.ح.

(11) الوزير الطيب بن اليماني، في 28 ذي القعدة 1275/29 يونيو 1859، محفظة فاس، مديرية الوثائق الملكية.

(12) توجد بالمكتبة العامة بتطوان وثائق عبارة عن رسوم عدلية بثبوت اعتداء بعض الأزواج على زوجاتهم، يشير إليها فهرس الوثائق التاريخية لمهدي الدميرق ومحمد الغازي الرويفي.

(13) رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان في 16 رمضان 1256/11 نونبر 1840، محفظة 8/29 خ.ح.

(14) رسالة واردة على السلطان مولاي الحسن من القائد المعطي الزراوي بتاريخ 11 شعبان 1306، الموافق لـ 12 أبريل 1889، كناش خ.ح.، رقم 154.

(15) رسالة عزيزية بتاريخ 14 جمادى II 1314/20 نونبر 1896، كناش خ.ح، رقم 635.

(16) رسالة حسنية بتاريخ 9 ربيع الثاني 1303/15 يناير 1886، الكناش 639 خ.ح.

(17) رسالة عزيزية بتاريخ 30 جمادى II 1314/6 دجنبر 1896، الكناش 635 خ.ح.

(18) رسالة عزيزية بتاريخ 25 جمادى الأولى 1314/1 نونبر 1896، نفس المصدر.

(19) رسالة رحمانية بتاريخ 13 جمادى II 1258/22 يوليوز 1842، محفظة 4/1 خ.ح.

(20) من الخليفة مولاي اسماعيل إلى السلطان مولاي الحسن في 6 جمادى الأولى 1301، الموافق لـ 5 مارس 1884، محفظة فاس بمديرية الوثائق الملكية.

حـول ضرب النسـاء

تقديم : عثمان المنصوري

يسرني أن أقدم للمهتمين بالمسألة النسائية، هذه الوثيقة التي عثرت عليها ضمن الأرشيف البرتغالي المتعلق بقنصلية البرتغال بطنجة، وهي عبارة عن رسالة بعثها القنصل البرتغالي جوزيف دانييل كولاصو، أصالة عن نفسه ونيابة عن قناصل دول أخرى مثل بريطانيا والنمسا والدانمارك، إلى السلطان مولاي الحسن، وذلك بتاريخ مارس 1883.

ويدور موضوع الرسالة حول ظاهرة ضرب النساء من طرف ولاة المخزن كعقاب على بعض المخالفات التي يقمن بها، وهي محررة بلغة ضعيفة تتخللها عبارات دارجة تحول دون فهم مضمونها لذلك ارتأيت أن أرفقها بهوامش توضيحية، وأن أقدم هذا التلخيص الموجز لمضمونها :

بعث القناصل المذكورون إلى السلطان المغربي يذكرون له أنهم - اعتمادا على ما هو معروف عنه من رجاحة عقل ورحمة وحب للخير - يلتمسون منه أمر ولاة مخزنه بالتخلي عن عادة ضرب النساء المستحقات للعقوبة، ويخبرونه أن الجرائد الأوربية تستغل هذه العادة للتشهير بالمغرب، وأن ضرب النساء أصبح عيبا عند الأوربيين. ويرجون منه أن يتأمل جيدا في كلامهم لأنه ناتج عن إخلاصهم وحبهم الخير للسلطان، وأنهم لا يعتقدون أن السلطان يقبل أو يرضى بذلك مطلقا لما هو معهود عنه من الشفقة والرأفة برعيته.

نص الرسالة :

«إلى الحضرة الشريفة المولوية السلطان المعظم بالايالة المراكشية وغيرها. فالواضع المنسطر[1] لدولة كريت ابريطن[2] ونايب النبريال الاسطرية هنكرية[3] وديناMارك[4] والفلمنك، حيث متكل على وجود العاقل التام والرحمة والشفقة والخير من سيدنا الذي هو معروف لدى الخاص والعام وحيث لاشك لنا من صحيح مراده التام ليحيد[5] كل ما يعد ويجلب يتخيل ويتوهم من جهة دول الأجناس[6] من قبل ما يعمله الولاة بمراكشة[7] المعينين من الجانب الشريف فيطلب بأمر من دولته بأن المخزن من العمال وغيرهم أنْ يتركوا ويتخلوا عن العادة لضرب النسا المترتب عليهن حجة[8] فعلى كل حال يومروا بالتخلي عن ذلك وإبطاله فيكون في علم الجانب الشريف بأن الجوازيط[9] في هذه الأيام القريبة اشهرت وأذاعت مرارا كلاما في جميع بلدان الأجناس بما وقع من العصا للنسا بالدار البيضاء وغيرها وبلغ ذلك للدول ولرعاياهم ووقع في ذلك كلام كثير لا يناسب ذكره من حيث هذه العادة الناقصة الصادرة من ولاة هذه الايالة. وهذا الضرب للنسا قد كان في الزمان الفارط من بعض ايالة الأجناس وترك ذلك، إذ ذاك[10] يحصل منه غيار[11] للقلوب ولا بقي يقبل من أحد في هذا الوقت. ويذكروا أن الدولة التي على هذا الوجه تضع المحبة التي الواضع[12] مراده التام بقاءها بين سيدنا والدول التي هو نايب عنهم يطلب ويرجو من الله أن سيدنا يتأمل في هذا الكلام الذي ذكره ويلوح[13] لمعناه ويرجو أن يكون في صميم قلبه الشريف أنه خرج من قلب ناصح الذي غرضه في الخير لجانب الشريف فيطلب من جانب الشريف أن يأمر بما يليق باقتضاء نظره الشريف للولاة الذين هم عمال وأشياخ بالتأخر والتخلي عن تلكم العوايد التي يحصل منها الغيار للأجناس وينظروا فاعلها بعين الازدرا والنقص وهو ضرب النسا بازفل[14] مطلقا كن مسلمات أو غيرهن فالواضع زعّمه[15] واقدمه على طلب ذلك على وجه المحبة لما يظن أن سيدنا من شفقته ورحمته ورأفته وحاشته[16] أن لا يرضى يقع للنسوة مطلقا مثل ذلك لما هو معهود من شفقته التامة».

هوامش

(*1*) الوزيرا [Ministro].

(*2*) بريطانيا العظمى.

(*3*) الامبراطورية النمساوية الهنغارية.

(*4*) الدانمارك.

(*5*) ليزيل.

(*6*) يقصد الدول الأوربية.

(*7*) المغرب.

(*8*) المستحقات للعقاب.

(*9*) الجرائد.

(*10*) لأن ذلك.

(*11*) غضب.

(*12*) واضع الرسالة.

(*13*) ينفذ إلى عميق معناه.

(*14*) العصا.

(*15*) زعّمه : جرّأه.

(*16*) حاشته : حاشاه.

مجموعة البحث الجامعي للدراسات النسائية

جامعة محمد الخامس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
ص.ب. 1040 - الرباط

1 - التعريف بمجموعة البحث الجامعي للدراسات النسائية.

إيمانا بالدورالهام الذي تقوم به الأستاذة الجامعية، من أجل الرفع من المستوى التعليمي والتربوي، واعتبارا لاستعدادها، وكفاءتها التي أهلتها لولوج جميع الأسلاك والتخصصات، وعيا منها بأن البحث العلمي أصبح ضرورة من الضروريات لتنمية المجتمع وتقدمه.

فقد عمدت استاذات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة محمد الخامس، بالرباط إلى تأسيس مجموعة للبحث أطلقن عليها اسم :

مجموعة البحث الجامعي للدراسات النسائية

وهي مجموعة لا تكتسي صبغة سياسية، ولا تجارية، وإنما تهدف إلى المشاركة الفعالة في تنمية المجتمع المغربي، وسد الفراغ الحاصل في مجال البحوث النسائية ولهذا فالمجموعة تفتح أبوابها في وجه كل الباحثين والباحثات.

2 - ولهذا الغرض عقدت عدة اجتماعات، حددت فيها الأهداف الآتية :

- العمل على التعريف بالبحث العلمي النسائي، وتشجيعه.
- توثيق البحوث المتعلقة بالمرأة الجامعية.
- إحداث مجلة جامعية.
- تنظيم ندوات وعقد مناظرات.
- ربط علاقات مع مجموعات للبحث وطنية ودولية.

3 - محاور البحث.

1 - المرأة والثقافة ؛ 2 - المرأة والمجتمع ؛ 3 - المرأة والتنمية ؛ 4 - المرأة والتاريخ
5 - الخطاب حول المرأة.

من أنشطة «أمل» المقبلة

- إخبار بندوة حول المرأة
- ندوة الموروث الشفوي والمقاربة السمعية البصرية
- إخبار بمنشورات ومحاور «أمل» القادمة

إعلان عن مشروع عقد ندوة :

حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب

تعتزم «مجلة أمل» في شهر مارس المقبل (1995)، تنظيم ندوة علمية، حول تاريخ المرأة، تحت شعار :

حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب

لهذا نهيب بكل الباحثين، والمهتمين بالموضوع، المشاركة في إثراء هذه الندوة بأبحاثهم، ومداخلاتهم، ودراساتهم، وحتى نتمكن من ضبط وإحكام الأمور التنظيمية، نقترح على الإخوة الباحثين، بداية شهر يناير 1995، آخر أجل لتلقي اقتراحات المشاركة التي نتمنى أن تكون كثيرة ومتنوعة.

ورقة أولية لمشروع الندوة

يعتبر تاريخ المرأة بالمغرب، أحد جوانب تاريخ المجتمع، التي مازال الباحثون لم يخوضوا فيها بجدية، وبمنحى استقصائي علمي، رغم الإيمان بأن «المسألة النسائية»، جزء من مشكل البلد الاجتماعي والثقافي، بل وقضية من أهم قضايا الوجود الاجتماعي والتاريخي، وحتى الكتابات الأجنبية التي اهتمت في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية العشرين، بهذا العنصر المجتمعي، اهتمت غالبا بالنساء، كإحدى جماعات الأقلية، كما كانت في مجملها حبيسة الأنتروبولوجيا الاستعمارية، لدرجة وظفت معها الفرق بين المرأة العربية، والمرأة البربرية، بمنهجية إيديولوجية، مازالت بحاجة إلى متابعة، واستقصاء.

إننا نعرف أن غياب الحديث عن المرأة بشكل مباشر، في الاسطغرافية التقليدية، تتحكم فيه الذهنيات، وموروث المجتمع، إلا أنه حتى بعد الاحتكاك والتأثر بثقافات أخرى، وبعد أن بدأ الحديث عن المرأة، ينفلت نسبيا من بعض أساره، تحكم الانتقاء، والبحث عن حالات خاصة، تم التعامل معها بمنظور

«المثل الأعلى»، وهذه مسألة إذا كان من غير المعقول دحض دورها في إلقاء بعض الضوء على تاريخ المجتمع، فإنها في نفس الوقت، لا تعطي فكرة مكتملة حول واقع النساء بالمجتمع، لأن المحظوظات، والمتميزات، حالات قليلة، ولأن ليس هناك نموذج نسائي، نستطيع أن نرى فيه ممثلا، لجميع النساء ... فالمرأة ـ كالرجل ـ أنواع، وفئات، ومراحل تاريخية، حضارية، متفاوتة. تطرح ضرورة تتبع وتقصي اتجاهات خط التطور.

إن الباحثين والمهتمين بالتاريخ يعرفون بتوفر عينات، وأنواع من الوثائق المختلفة، والمتنوعة، يمكن الاستفادة منها، في مقاربات متعددة، تساهم في إنجاز حفريات، في جانب من جوانب تاريخ المجتمع، هو المرأة طرفا من أطرافه الأساسية.

وإن «مجلة أمل»، وعيا منها، بما يمكن أن يقدمه هذا الموضوع من فائدة، وما يمكن أن يضيفه من إضافات تثري البحث في تاريخ المجتمع، وتكشف عن بعض النقاب في تطوره، تعتزم تنظيم هذه الندوة، وتحت الشعار أعلاه.

لماذا «حلقات»، هكذا، بشكل فضفاض، ودون تحديد قضية أو إشكالية بعينها للتّناظر؟

أولا : لأن ضعف ـ إن لم نقل عدم ـ الاهتمام بالموضوع، يجعل منه إشكالية في حد ذاته.

ثانيا : لأن المغامرة، بتحديد قضية أو إشكالية بذاتها، ـ ربما ـ لا يوفر مشاركات كافية ـ كما نتمناها ـ لندوة علمية.

ثالثا : لأن ندوة أولى، تتناول العموميات، قد تساعد لا محالة في تحديد إشكاليات مبلورة، لندوات، ولقاءات مقبلة، وتفتح بداية نقاش جدي وجديد.

وكما فضلنا عدم تحديد إشكالية أو قضية، نفضل ترك طبيعة المقاربة لكل حسب اهتمامه، وما يرى. والمعالجة حسب المتأتى والواضح النتائج والخلاصات، في رأي كل باحث.

مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع
صندوق البريد *14910* ـ البريد المركزي ـ الدار البيضاء

ندوة الموروث الشفوي والمقاربة السمعية البصرية

(ندوة من تنظيم «أمل» ومجموعة البحث والتوثيق السمعي البصري
التابعة لكلية الآداب بنمسيك - بالدار البيضاء)

ورقة عمل

الموروث الشفوي جزء منا، من تراثنا وذاكرتنا. فهو يفرض نفسه علينا، لكن التعامل معه يضع الباحث أمام مجموعة من الصعوبات والمشاكل ويطرح جملة من التساؤلات وعلامات الاستفهام التي تستوجب تعميق النظر فيها. ومن بين الأسئلة التي ينبغي الوقوف عندها :

أولا : كيف يمكن تطوير البحث في الموروث الشفوي وتذليل الصعوبات التي تعترض الباحث في هذا المجال ؟

ثانيا : إلى أي حد يمكن لتقنيات التواصل الحديثة أن تساعد على تحقيق أفضل الاستفادة من المعطيات والظواهر الشفوية ؟

هذه الأسئلة، دعت مجموعة البحث والتوثيق السمعي البصري ومجلة أمل إلى التفكير في تنظيم ندوة حول موضوع : الموروث الشفوي والمقاربة السمعية البصرية، وذلك برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك في شهر دجنبر 1994. ومن بين الأهداف المتوخاة من هذه الندوة :

1 - حصر الإشكالات التي تعترض مسار الباحث في حقلي الرواية الشفوية والتوثيق السمعي البصري، من أجل الخروج بخلاصات موضوعية ونتائج عملية من شأنها أن تساعد على تطوير البحث في القضايا المطروحة.

2 ـ ربط الجسور وتبادل الخبرات بين المهتمين، في مختلف فروع العلوم الإنسانية، بقضايا الرواية الشفوية والتوثيق السمعي البصري.

ونظرا لرغبتنا الأكيدة في الاستفادة من تجارب وخبرات الباحثين الذين اهتموا بسبر أغوار الذاكرة الجماعية اعتمادا على مناهج الرواية الشفوية وتقنيات التواصل الحديثة، ارتأينا دعوة كل المهتمين للمساهمة في هذه الندوة. ونتمنى أن تجد دعوتنا القبول لديكم

وتجدون، رفقته ، المحاور المقترحة لهذه الندوة.

I - الرواية الشفوية وسبل استغلالها :

1) إسهام الرواية الشفوية في تطوير البحث في العلوم الإنسانية.
2) الرواية الشفوية والأبحاث التاريخية المغربية : الحصيلة والآفاق.
3) الرواية الشفوية والبحث الميداني.

II - الموروث الشفوي والتقنيات السمعية البصرية

1) الرصيد الشفوي في الأرشيف السمعي البصري.
(مراكز الأرشيف، وسبل الاستغلال...).
2) الوثيقة السمعية البصرية : إشكالية الإنتاج والاستغلال.
3) الرواية الشفوية والإعلاميات.

III - نماذج وتجارب :

استعراض بعض التجارب التي تعاملت مع الموروث الشفوي في مختلف التخصصات.

ترقبوا ضمن منشورات "مجلة أمل"

1 ـ جامع القرويين والفكر السلفي.

للأستاذ محمد الفلاح العلوي.
كتاب أصله رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ تم إعداده تحت إشراف الأستاذ عبد الله العروي.
يبحث في أصول الفكر السلفي بالمغرب، ويتتبع اجتهادات ومساهمات عدد من زعماء هذا الفكر، والقضايا التي شغلت فكرهم واجتهاداتهم فيما يخص قضايا وواقع المجتمع التعليمية الثقافية، والاجتماعية والسياسية.

2 ـ بيان يناير *1944* بين مطلبيه : الاستقلال والديمقراطية.

كتاب يضم بين دفتيه مداخلات الندوة التي عقدتها بتاريخ *28* ـ *29* ـ *30* يناير *1994* بالمركب الثقافي للمعاريف بالدار البيضاء.
مجلة أمل بتعاون مع الجماعة الحضرية للمعاريف. سبعة عشرة مساهمة لأساتذة، متعددي الاختصاصات، تناولت الموضوع، عبر تساؤلات، ومقاربات وظفت التاريخي، والسوسيولوجي والسياسي ... في طرح إشكاليات طمحت بشكل علمي إلى استقصاء الظروف التي أحاطت بهذا الحدث، والنتائج القريبة والبعيدة التي تمخضت عنه.

من محاور ملفاتنا القادمة

- الحرف والحرفيون في علاقتهم بالمجتمع والسلطة عبر تاريخ المغرب.
- قضايا في حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي.
- التجارة والتجار في تاريخ المجتمع المغربي.
- محطات في تحولات الفكر والثقافة عبر تاريخ المغرب.
- تطور التاريخ والكتابة التاريخية بالمغرب.
- بعض آفات المجتمع المغربي عبر التاريخ.

هذه المحاور ، مازالت مفتوحة أمام إسهامات، ومشاركات كل الإخوة الباحثين والمهتمين، وترتيبها - أعلاه - لا يعني أسبقية أي منها إذ كل محور، أصبح مكتملا نسبيا، وصالحا لتكوين ملف، اعتمادا على ما ستتوصل به المجلة من إسهامات ودراسات، يكون الأسبق في الإصدار من غيره.

«أمل» في انتظار مكاتباتكم ومساهماتكم

REVUE AMAL

Histoire - Culture - Société

N° 5 - 2ème Année 1994

B.P. 14910 - Casa Principale 20000 - Casablanca - Maroc.

ثمن النسخة : 22 درهما

الغلاف من إنجاز أبو مهدي الإدريسي